رواية

زيد الشهيد

أفراس الأعوام

تموز

أفـراسُ الأعـــوام

جميع الحقوق محفوظة
الكتاب: أفراس الأعوام
المؤلف: زيد الشهيد
الطبعة الاولى: ٢٠١١
تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق (١١٨١) بغداد – لسنة ٢٠٠٩

تموز

طباعة. نشر. توزيع
دمشق / جوال: ٠٠٩٦٣ – ٩٤٤٦٢٨٥٧٠
Email: akramaleshi@gmail.com

زيد الشهيد

أفـراسُ الأعـــوام

رواية

الروايــة الفــائزة بالجــائزة الاولــى فــي مســابقة دار الشــؤون الثقافية العامة – بغداد لعام ٢٠١١

انظر كيف ضَربوا لكَ الأمثال فَضلّوا
فلا يستطيعون سبيلا.

قرآن كريم
سورة الإسراء

الفصل الأول

الخطباء الذين يكلّمونكم عن الحب، والساسة الذين يخرقون آذانكم بالحديث عن الوطن والشرف والعدالة، كلهم يثيرون الغثيان.

نيكوس كازنتزاكي
(الاخوة الأعداء)

ذلك السياسيّ
لا يعرف أن يضيءَ مدينتَهُ،
إلاَّ إذا أحرقها.

أدونيس
(الكتاب الخطاب الحجاب)

وحين قدّرت أنَّ صلواته وشعائره لا بدَّ أن تكون انتهت توجَّهتُ إلى غرفته وقرعت الباب، فلا جواب.

هرمان ملفل
(موبي ديك)

(١)

ها هو جعفر حسن درجال قد بلغَ الستين.. وما يحدثُ أمامه ضحى هذا اليوم الثامن من آب ١٩٥٩ من هرجٍ ومرج، وفوضى لا تُطاق في محاولة الفوز بكرسي أو منضدة أو مزهرية أو شمعة تعليق الملابس أو ستارة نافذة أو مروحة سقفية أو منضدية أو... أو.... أو..... تلك الأشياء التي أبيح نهبها من مقر (اتحاد الشعب) الواجهة الأمامية للحزب الشيوعي في مدينة السماوة حيث انتظر الكثيرون ممّن يرون فيه تهديماً للدين وتفتيتاً للمجتمع لحظة الانقضاض عليه وسرقة محتوياته بعدما تشمَّموا رائحةَ انفضاض الحكومة عنه وإصدار المرجعيات الدينية فتاوى بحلّه وحضرِ نشاطِه بشعار "الشيوعية كفرٌ وإلحاد" .. ما يحدث أمامه الآن أعاده إلى ذلك الفجر الفضي الداكن لليوم الخامس من تموز من العام ١٩١٧.

فمع أولى نسائم الفجر لذلك اليوم وعلى غير ما يتوقع أبصرَ عنصر الجندرمة المنتصب عند باب سراي قائمقامية السماوة المطلّةُ بنايتُها على نهرِ الفرات في ساعة حراسته حفنةَ مسلحين يتبعهم حشدٌ من أفرادٍ يتقدمون باتجاهِ مخزن المؤن الواقع جوار مبنى السراي حيث تُخزن أكياس الدقيق والسكر والتمر وعلب السمن ذخيرةَ المدينة مثلما هي تموين لدعم المقاتلين المجاهدين الذين يتدفقون تلك الأيام ويتم استقبالهم وهم يتجهون جنوباً لمقاتلة الإنكليز الذين تجاوزت قواتهم لواء المنتفك / الناصرية بعدما احتلت البصرة والشعيبة وتقدمت حتى صارت أصواتُ مدفعيتهم تُسمع من بعيد وهي تتقدم نحو السماوة، داكةً في طريقها سدوداً وموانعَ صنعتها الحكومة العثمانية فلم تصمد طويلاً.

انتصب الجندرمة مستنفِراً صوتَه الحازم:

- إلى أين؟!.. ما الذي تريدون فعله؟

لم يأتهِ ردٌّ. فقط دنا المسلحون أكثر من الباب الخشبي الموصد بثلاثة أقفال مُحكمة. توقّفوا عنده، وراحوا بمساعدةِ زمرة رجال قدموا معهم يجهدون في كسر الأقفال وسط دهشة وغضب الحارس. انخلع القفلُ الأول من وسط الباب ثم تلاه القفل الذي في الأسفل، لكن الثالث في الأعلى ظل عصيا عليهم إذ بدا أبعد من أن تطاله أيديهم بيسر.. تحرك احدهم يبحث عن حجر أو صندوق يعتليه ليسهل كسر القفل العصي. وسرعان ما لاح لهم كرسي كاتب العرائض الذي يتخذ من جدار المخزن ميداناً لعمله.

صرخ الحارس وقد أيقن أنَّ خطراً جدّياً يحصل، وأنّه سيعاقب إن هو أهمل واجبه ولم يتدارك الأمر؛ فوجّه بندقيته الـ(شنايدر) الألمانية ذات الماسورة الطويلة صوب المهاجمين وهدَّدهم باستخدام الرصاص إن لم يكفّوا عن فعلتهم. أنهمك الجميع دون أن يولوه اهتماماً؛ بل بدوا أنهم يستهينون به فأطلق رصاصةً في الهواء علَّهم يتوقفون ويهربون. وكان على وشك أن يطلقَ الرصاصة الثانية عندما امتدت يدٌ من ورائه لتسحبه إلى داخل مبنى السراي. تلك اليد كانت لرئيس مجموعة الحرس الذي آثر أن لا يشرك مَن بعهدته في موقفٍ شائك كهذا، هو الذي كانت لديه خبرةُ عشرة أعوام في هذه المدينة فهرول مسرعاً يعتلي السلم وصولاً إلى القائمقام.. القائمقام لم يذهب تلك الليلة إلى بيته بل نام في مكتبه بعدما عقد ولساعات طويلة من الليل اجتماعاً ضمّ قائد الدرك واعيان محلتي (الغربي) و(الشرقي) اللتين تشكلان الجانب الكبير من المدينة وأخذ منهم تعهداً أن يحموا بلدتهم بكل ما استطاعوا من رجال وعزائم وإيمان ويصدّوا هجوم الإنكليز المدركين أعتابها. غير أن هذا التعهد كان بمثابة إيماءة تشير لضعف سلطة الحكومة ما جعل المتربصين يبادرون بالهجمة القاصمة لهيبتها ضرباً في اقتصادها.

ما أن استيقظ القائمقام ونهض من سريره في الغرفة الملاصقة لمكتبه حتى سمع نقرات خفيفة متسارعة على الباب وصوت قائد حرس السراي

يهمس بصوت خفيض: "بيك.. بيك!".. حين فتح الباب ترجم علامات الخوف تتبارى على ملامح الوجه الأسمر الشاحب الممتقع، وصوت الرعب يقول: "إنهم ينهبون مخزن التموين.. فيهم مسلحون لا يأبهون لتحذيراتنا!".

تلك اللحظة شعر "البيك" أن كل ما بناه طيلة فترة وجوده قائمقاماً للقضاء أنهدَّ، وأنَّ قراراته المبنية على أساس تصميم يقيني على تغيير واقع المدينة نحو الأفضل تفتَّت، وتهاوى، وانهار؛ وأنَّ القائمقام السابق الذي سلَّمه مهامه الوظيفية كانَ محقّاً عندما قال: "أنتَ جئتَ إلى القضاءِ الخطأ، وأنا بقدومِكَ فزت بالنتيجة الصح.".

ترك قائد الحرس منتصباً عند الباب وتحرك إلى النافذة المطلة على شارع النهر. وقف هناك يطالع جموع الناهبين في حالة هرجٍ ومرج وفوضى. وجوههم وملابسهم وأيديهم ملوثة بالدقيق والسمن؛ يهجمون ثم يخرجون محمّلين بكل ما يقدِرون على حمله من مُلكٍ مُستباح، ما يلبث آخرون أن يتولّوا فورةَ هجومٍ أخرى، وتحميل آخر. ومن بين ما يجري ويدور أبصر القائمقام احدهم وقد غزته ذرات الطحين فغمرت وجهَهُ ولم تَبن غير عينين وفم امتلأ بالمسحوق اللزج فبدا كما لو كان منهمكاً في التهامه ما أوصله إلى حالة الاختناق، فراح يجهد في شم الهواء. وحين لم يجد مَن يعينه على التخلص من محنته عدا راكضاً باتجاه الجسر الخشبي . ومن هناك ألقى بنفسه إلى النهر سعياً لتفادي اختناقه وضياع حصاد غزوته.

مِن سطح بيتهم. ذلك البيت الواطىء في زقاق "الدَخَل" في محلة الغربي استيقظ جعفر. يومها كان شاباً بعمر السبعة عشر عاماً. استيقظ فزعاً على صوت إطلاق نار من سلاح قريب، ثم سماع دربكة وحوار عالٍ متقطع وغير مألوف في الزقاق. توجه إلى جدار السطح مُطلاً برأسه، مبصراً أناساً مندفعين عبر الزقاق باتجاه السوق الكبير، يتحدثون عن هجوم يحدث لمخزن السراي وأن المهاجمين شرعوا ينهبون محتوياته.

كـان الفجـر انتهـى (والفجـر فـي مدينـة كالسـماوة – تحيطهـا البسـاتين ويدخل في جوفها الفرات نهراً – يضـجُّ بالهوام من بعوض وحرمس وديدان سود طائرة وأخرى قهوية اللون تدبُّ خارجة من ثقوب تتَّخذ منها بيوتاً ومآوي، تخـرج مـع انسـحاب آخـر ضـوء للنهـار، وتتحـرك مـع قـدوم لـوامس الغـروب لتتناول حرية الحركة والطيران بعضـها بحثاً عن أجسام تمتص من بشراتها اللدنـة دمـاءً غذائيـةً تزودهـا بطاقـة العـيش وإن هـي سـتموت بعـد سـاعات، وبعض آخر يتناول الفُتات المتروك على أرضية المطابخ – هذا إذا كان ثمَّة مطابخ بالتعريف الحقيقي للمطابخ – رحلة عيش يومية تأتي على مخلفات البشـر ورقـودهم)، والصـباح أطـلَّ بنـوره عنـدما تـرك البيـت قاطعـاً الأزقـة الأمعائية وصولاً إلى شارع النهر. هناك الحركة لمّا تزل حثيثةً لأناس يعيثون نهباً ويحملون قوتاً مجانياً فرحين بما نهبوا، ومبتهجين بما حملوا. متوحدين كأنَّ مـا كـان من عِراك بين محلتيهم الغربـي والشرقي النازفة جراءه الدماء الـوفيرة قـد ذاب ونسـي المهـاجمون قـرارات الثـأر المسـتفحل وفـرص تحقيقـه. صـار يـرى الشـرقيين والغربيين فـي انهمـاك صـارخ ((الأعداء رأيـتهم يسـاعد أحدَهم الآخر في حملِ كيسِ رز أو علبة سمن، أو " حلاّنة " تَمْر لا يستطيع فرد واحد حملها في وقت كانت فيه أصوات مدفعية القوات الإنكليزية تقترب انتصـاراً بينمـا هيبـةُ الدولـة العثمانيـة تتقهقـر انـدحاراً.. مـا هـذه المفارقـة، يـا إلهي))

تحرَّك وسطَ حيرةٍ وارتباك، وكانت دائرة البريد والبرق التي هي جزء من مبنـى السراي أول مـا أطلَّت نظراتـه علـى بابهـا الخشبي ذي الضلفتين بعدما شبعت عينيه من مشـاهد الحركة الدائبـة للسرّاق وهم ينتهزون الفرصـة المُثلـى للانتقام من حكومة كانوا يوالونها تزلفاً ويضربون لها العهد كذباً. لا يدري ما الذي جعلـه ينظـر إلـى بـاب دائرة البرق وهو يُفتح فجأةً فيخرج منـه القائمقام ببدلته الحضرية وقد خلع سدارته ولفَّ رأسه بكوفية في محاولةٍ للتخفي عن

أعين الرائحين الغادين. واقع الحال لم يكن هؤلاء ينتبهون إليه، ذلك أنَّ السَّمن المجاني أثمن من التطلع في الوجوه؛ والرز العنبر أفضل من أنْ تنطلق كلمةٌ تحدِّث هذا أو توقِف ذاك. دنا منه، وفاه همساً:

– بيك! هل أصاحبك سعياً للأمان؟

رفع الرجل نظرةَ ارتباكٍ وراح يستطلعه. شيء ما في رأسه شرع يدور. "((شيءٌ ما يدور في رأسي الآن.. مَن هذا الفتى الذي يقدِّم مساعدةً مجانية، ويترفَّع عن المشاركةِ مع الناهبين؟ مَن؟!.. آ.. تذكرتُهُ.. إنّه الذي كنتُ أبصره عديد المرات يخطو قريباً من بيتي وبيوت الموظفين المجاورين لي. قيل لي وقتها أنّه شاب حملته موجةُ الغرام من صوبه الكبير عابراً الفرات إلى صوب القشلة حيث نسكن))... ومن بين خشيته أن لا يُكتشف فيحصل ما لا يتمناه ردّ همساً:

– السير منفرداً أفضل.. بمقدورِكَ متابعتي عن بعد.. وأنا أشكرك.

تحركَ خلف الرجل المتسلل الحاثُّ الخطى دخولاً إلى فم الجسر قصداً في عبوره وإدراك بيته الكائن هناك. سحبَ جعفر أنفاسَ الارتياح لسلامته، ويقينا سبقه القائمقام بسحب مثل هذه الأنفاس للسلامة نفسها.

ألقى نظرةً نهائية عليه لختم حالة الطمأنة فأنبأه المشهد أنه يحث السير من أمام البيوت المطلّة على النهر ببنائها العصري الحديث الذي لا يشبه البيوت الأخرى مخلِّفاً وراءه التياترو، وقد تدلَّت من شرفته ثلاثة رؤوس يبدو أنها كانت تراقب المشهد، ويقينا أبصرته يمر من أمام أنظارها.

((شاهدنا نظامَ سيرٍ معهود لرجل اعتاد يومياً عبور الجسر من صوبنا باتجاه السراي في الصوب الكبير. وكنا ننتظر وقع خطاه وهو يسير الهوينا مستنشقاً هواء الصباح ومتعللا بما يسمع من بلابل تطلق زغرداتها وعصافير تعج بأصوات متشابكة ابتهاجاً بنهار جديد.. نهضنا فزعين على صوت رصاصة دوَّت مناهِضةً مَقدَم النسمات الصباحية البليلة، وقلنا معاً: وصلَ

الإنكليز !.. الإطلالة من شرفة دارنا أنبأتنا أن لا وجود لمظاهر إنكليزية، فقط أناس يتحركون ما وراء النهر قرب السراي وهم يحملون أشياءَ لا نتبينها؛ أعلمنا ضوء النهار المتسلل أنهم يفتضون باب مخزن المؤن وينهبون محتوياته.. لم تكن الدهشة في السرقة إنّما في الرجل الذي جاء عابراً من صوب السراي باتجاه صوبنا.

همست بهيّة:

- هذه الخطى ليست غريبة.
- أنها تشبه مشية القائمقام ! قالت وفيّة

وافقتها نجية:

- صحيح! تشبه مشيته، وأظنّه هو!

حدسنا أنّه انسل متخفيّاً لئلا يُكتشف فينال الأذى.

- لو أني عرفته من بعيد لنزلت إليه واندفعت لأدعوه إلى هنا بحجة حمايته.. آه كم تمنيت لو زار التياترو وجلس لأتحدث معه، واشرب من طلعته الجميلة.. آه!

_ لا تكوني سخيفة يا وفية.. هذي مدينة لا يرتاح فيها مَن يأتيها..

_ كلامك صحيح!

_ لننزل إلى الحوش.. لم أعد أراه.. انعطفَ نحو بيته))

حين تركت نجية مهمّة إنزال أفرشة النوم من السطح إلى الغرفتين الأرضيتين على عاتق وفيه وبهية أحسَّت أن مصيرهنَّ صار محكوماً بالخوف، وما شاهدته لا يشي بهدوء قريب؛ هي العارفة أن العديد ممّن كانوا يؤمون التياترو سينتهزون مثل هذا الحادث للانتقام منهنَّ فلهم معهنَّ ثأرٌ من الردع المهين جراء المشاكسات وتصرفات كانت تثير قرفهنَّ وقت وجودهم بين الرواد.

- أسرِعنَ! هذا نهارٌ لا يبدو انه سينتهي على خير.. هيا.

كانت نجية على صواب؛ إذ ما أن مرّت ساعةً حتى سمعنَّ ضجةً وهمهمات، وصوتٌ في الخارج يقول " ها هم جاءوا يحملون البنادق وآخرون يتسلحون بالعصي والهراوات، عابرين الجسر. إنهم يتجهونَ نحو بيوت الموظفين لنهبها، وإلى الحامية لتسليب الدرك وأخذ أسلحتهم وحاجياتهم بعدما جردوا جندرمة السراي من أسلحتهم، وأعلنوا السراي مُباحاً بغرفه، وفنائه، وتأثيثاته، ومهابته."

ومثلما استبيح السراي وأسراره وتركه حماته والقائمون على تصريف شؤونه، تركت النساء الثلاث التياترو بعدما أقفلنه بقفلٍ واهٍ سينده على العابرين ليفتضوا الدواخل مُتَّخذات الأزقة هروباً عن الأعين. ((أنهنَّ لا يأمنَّ هذه المدينة ولا يثقن بحال يُقسِمُ الناس فيه على أنه سيدوم وأنها تختلف عن بقية مدن هذا البلد المُبتلى باللا قانون كونها آمنة وديعة طيّعة وأهلها طيبون تقاة ورعون. فكم من مرّةٍ أُقتِحمَ التياترو بشقاوات مستهترين يفرضون (الخاوة) ويسلبون الموجود.. هذا ينتمي لفارض العلوان وذاك لجابر الدخيل، وويل لمن لا يُطيع.. تتذكّر نجية الشيخ صالح وصوته الجهوري كل ليلة أربعاء في مجلس العزاء الحسيني الذي يقيمه حاج محمود في بيته الملاصق من الخلف للتياترو كشعيرة اعتاد عليها مُذ حجَّ بيت الله وهو بعمر الأربعين وهو الآن في الخامسة والخمسين. تتذكّر كيف كان الشيخ صالح يردد خطبة زياد بن أبيه يوم ولّي على البصرة، مهدداً ومتوعداً، كتصوير لجور مَن يوَلَّون على رقاب المسلمين من ظَلَمةٍ وقساة: " حرام عليَّ الطعام والشراب، حتى أُسوِّيها بالأرض هَدماً وإحراقاً. إني رأيتُ آخرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لينٌ في غير ضعف، وشدّةٌ في غير عنف. وإني لأقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيمِ بالظاعن، والمُقبل بالمُدبر، والمُطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يَلقى الرجلُ منكم أخاه فيقول: " انج سعد، فقد هلكَ سعيد". فترتعد خوفاً، ويتراءى لها زياد بن أبيه يرفع سيفاً ينهال به على رقاب

الجُلاس ويرفع بصره ليكون آخر أوامره أن يأتي حراسه بها ليأخذ رأسها؛ عندها تنسحب. تدسُّ جسدها تحت الغطاء وتتكوَّر في سريرها الخشبي المعمول من عيدان سعف النخيل مرددة آيات تتعوّذ من الشيطان وتطرد الوساوس، أو تترك سطح التياترو وتنزل هابطة إلى غرفتها لتضيع في ثرثرة زميلتيها عن الرواد وتصرفاتهم وأقوالهم وما حصل ذلك اليوم من أحداث وما آل إلى منتهى.)).

كان آخر ما شاهده جعفر هو التفاتة القائمقام من بعيد كأنه يبعث بشكره ويقول بفم الامتنان وصلت بر الأمان فعُد. هاجت في رأسه تداعيات لمبتدأ يقين أنَّ حالاً تتعالى فيه مظاهرُ الفوضى ليَشي بلا استقرار قريب في المدينة، وأنَّ الحكومةَ بهيبتها العثمانية الجاثمة ساقطةٌ لا محال، وأنَّ الإنكليز على الأبواب، والسراي لن يفتح بعد اليوم بمفاتيح السلطة الواثقة بوجودها، المهيمنة على المقدرات، وأنَّ القائمقام الذي فرَّ هارباً وما تحيطه من إدارة حكومية بموظفيها وعائلاتهم وأتباعهم لم تعد لديهم إلا ساعات لمغادرة المدينة وإلا غدو من قصص الغابرين. أمّا مَن تسكن في حجرات القلب وتسبح في فضاء الروح فستغيب حتماً، فتظلمُّ الدنيا ويشيع الذهول.

هجمت عليه خفافيشُ الكآبة المتلاطمة، وتكدَّرت فضاءاتُ الروح المعتلج.

اقتحمه قلقٌ عميم، وهمٌّ قابضٌ كتيم.

ومن بين تشكابات الهمِّ والقلق انتفضت صورة وهيبة. رفع عينيه باتجاه بيوت الموظفين؛ هناك في صوب القشلة ما وراء الفرات.. طارت روحُه إلى هناك.. إلى وهيبة. خالها بعمرها الذي يوازي عمره أو يقلُّ عنه بعام تعيش الرعب وتتوقع الفقد. تمثَّلها تستنجد بما يزيل عنها شبحَ فراقٍ قادمٍ ستجعله هذه الحادثة برزخاً يصنع فراقهما الأبدي.. "آآآآآآه، تعالَ يا جعفر.. تعال، أنقذني وعائلتي من هذا الهول!"

خالَ جعفر نفسه عاجزةً عن فعلِ شيءٍ أمام جسامةِ حالٍ من الاستحالة تجاوزه والسيطرة عليه.

تلك اللحظة وقفَ حائراً، وتطلَّعَ ذهيلاً!

ولم ينتبه إنْ كان القائمقام أدرك بيته سالماً أم أنَّ أمراً سيئاً قد جرى له؟..

(٢)

طوال قرون ظلَّت السماوة مدينةً عصيّة على كلِّ مَن فكرَّ في الإغارة عليها أو جاءها بمهمة تنظيم إداري وتصريف شؤون حكم. يشفع لها سورُها المُحكَم المتين وشجاعةُ أهلها في صدِّ مثل هذه الغارات. أهلُها منقسمون في سكنهم إلى حيَّين يفصلهما سوقٌ طويل. الأول أطلقوا عليه الحي الغربي فكان نعت سكنته (الغربيون) فيما الثاني اسمه الحي الشرقي فصاروا يُسَمَون (الشرقيون)؛ إضافةً إلى نهرٍ يخترق المدينة فيهبهم الحياة ويشعرهم أنهم بمأمنٍ ممّن يفكر في الإغارةِ واستخدام التعطيش سلاحاً لمحاربتهم. ولأنَّ التاريخ لا يمكن طمره والتغاضي عنه فإنَّ سكان هذين الحيَّين كانا في معارك دائمة وحرب غائرة تدخل في أعماق السنين. السوق بعرضه ذي السبعة أمتار يشكِّلُ أرضاً حراماً بالعرف العسكري وبرزخاً لا يمكن تجاوزه من قبل الطرفين أيام الاحتراب. هذا يعني توقُّف العمل ونزول الصاعقة على رأسِ مَن له محلُ بيعٍ فيه.(مَن يستطع أحدٌ منهم الاحتجاجَ فليفعل.) بيد أنَّ هذه العداوة سرعان ما تتلاشى حين ينادي المنادي أنَّ خطراً جديّاً خارجيّاً يداهم المدينة، وأنَّ رافعي لواء ذلك الخطر يخططون لاستباحتها؛ عندها يتنادى الجميع للصد. يسبقهم فارض العلوان شيخ الغربيين وجابر الدخيل شيخ الشرقيين في اجتماع ينتهي بتهيئة عشرات الأشداء الذين ينتظرون لهفةً الدخول إلى الجنَّة من بابِ الشهادة وحيازة موقعٍ متميزٍ في مرتبة الفردوس حيث الحور العين والوِلدان المخلدون وانهار العسل.

جعفر، حدثته جوخة وهي جدته لأبيه وقد تجاوزت عمر المئة عام واحتفظت رغم أن جسدها ضمُر واحتلت وجهَها الغضون والتجعدات بذاكرةٍ لها قدرة الحكي المتسلسل بعيداً عن هيمنة الخرف وشرود الذهن وعطل الذاكرة عن خبر قدوم الوهابيين من جانب البادية الجنوبية الممتدة إلى ارض

الحجاز وكيف تنادى أهالي المدينة لصدّهم؛ فقالت:

"عاد أبي يوماً من المقهى ليحدّث أمي عن مقدمِ وباء بشري وقومٍ متوحشين قادمين من الجزيرة العربية جعلنا في ريب دائم وخشية ثقيلة من المجهول. رأيتُ أبي وأمي وأخوتي مُقبِل وحميّد وكاظم الذين يكبرونني بأعوام يستعيذون بالله كلما جاء ذكر أولئك القوم المتعطشين للفتك. فمجيئهُم نذيرُ شرٍّ وشؤم ووعدٍ بدماء ستسيل بلا رحمة. إذ أن قلوب هؤلاء البدو مجبولةٌ من حجر. لا يعرفون للإنسانية وجهاً ولا للدين سماحةً. والأخبار التي كانت تصل المدينة تشير إلى مذابح ارتكبوها تهتزُّ لها الجبال هلعاً وتجفُّ الأنهار الهادرة بالمياه رعباً مثلما تُذكِّر بالمغول وحبِّهم لشرب الدماء ورغبتهم بالعبث والدمار . هُم لا يعرفون القتلَ إلا ذبحاً، ولا دخولَ البيوت إلا حرقاً.

ولأنَّ الوباء يعمُّ الجميع فقد تناهض سكان المدينة. وصارت اللقاءات تتم في بيت فارض العلوان فيحضرها جابر الدخيل ورجالاته أو في ديوان جابر فيدخل الجميع في حوارات جادّة. يتناقشون في خطط منع العدو من الاقتراب من سور المدينة أو التخطيط لغارات مباغتة تتم خارج السور ثم يعود المغيرون بخطفة جناح بعد إتمام المهمة. اختاروا لهذا الفعل شجعان المدينة ووقع رأيهم على أخي حميد واحداً منهم لما يمتلكه من شجاعة ونباهة وروح فدائية. وضع الجميع في حسبانهم أن العدو يجب أن يندحر قبل أن تمس أصابعه الشريرة خشب أبواب السور الحصينة. وللحق أقول أن قائد المغيرين كان ذكيّاً ونابهاً. تركَ المدينة بعد حادثةٍ ذكيّة تمثَّلت فيها الحكمة على أقدر ما يكون وتعالى دهاء الرجال بأرفع ما يُرجى. حادثة ظلت تتناقلها الأفواه في الدواوين والمقاهي والجلسات."

"ذلك اليوم المشوب بالتحاور والتساجل في أمرٍ جلل يتعلَّق في اتخاذ قرار يتطلَّب الصواب ولا يقبل الإخفاق وقف جابر الدخيل وفارض العلوان في أعلى السور. تطلعا يحصيان أعداد المغيرين المرابطين عن قرب هالهم العدد

إذ أبصرا ما يربو على الخمسين خيمة منصوبة باتساق وأكثر من ثلاثمائة ناقة وعدد يتجاوز الأربعين من الخيول النافرة القوية؛ فلهما بعد ذلك أن يحصيا عدد المقاتلين. وقد تقصد قائدهم الوهابي الدنو من السور والمُرابَطة ليثير في نفوس أهالي المدينة الرعب ويسقط مدينتهم بلا قتال، بل باستسلام مهين ثم بعدها يعيث بهم قتلاً وفتكاً وتشريداً وسلب أموال وتدمير بيوت وتجريف مزارع وسحق ثمار وطعن كرامة وتقويض حال . كان بمقدورهما مشاهدة القائد البدوي خمسيني العمر (كان بدوياً جلفَ الملامح، أصفر البشرة، خفيف الشارب، كثيف اللحية، متعجرف، مستكبر. يهابه الجميع، فيتحركون من أمامه وحوله كخدمٍ ورعاع. له عينان رغم تقادم الزمن على حيويتهما ما زالا يحتفظان ببريق يسكب دهاءً دافقاً برغبة الاستحواذ على ما يرى ويتخيل، وعطشاً متراغياً للحياة ونزوعاً دفيناً للسيطرة وحب النفوذ). يجلس في مقدمة خيمته الوسيعة الحجم وقد فرشت له ولقادته الذين يشاركونه الجلسة البسط الصوفية المطرزة والوسائد الوثيرة، يعتمرُ عقالاً مربعاً وكوفية مرقطة ببقع حمراء تبدو كما لو كانت بقع دماءٍ أرادها أختاماً لنزوعه الشديد في القتل هويةً له تناهض ثوبه الأبيض المائل إلى الصفرة الشبيهة بصفرةِ محٍّ بيض الصقور... كان خُدّامه يتحركون مُلبّين أمراً لمجرد إشارةٍ من يدهِ أو طأطأةٍ من رأسه."

"أبصراه محبّاً لشرب القهوة بالفناجين الزجاجية التي تتحرك كثيراً قرب فمه، مثلما شاهدا بشرة وجهه السمراء الصفراء الكالحة، وملامحه العابسة الغضوب. فكّرا بما يصيبه فيتسبب بفرط عِقد يلمّه. وتباحثا عن رامٍ يستطيع أن يصيبه في القلب فيقضي على عنجهية الدمار ويسحق المقاصد الوحشية المتناسلة في القلب الحقود. في خضم التحاور استقر الرأي على أخي حميد كَرامٍ يجيد استخدام بندقية "البرنو" ذي التأثير الفاعل ليتولى مهمة معالجة هذا الهدف الثمين لما يتمتع به من رصد مُحكمَ وتصويبٍ باهر."

"صباح اليوم التالي وقبيل بزوغ الشمس كانت العين الراصدة تتابع حركة القائد وهو يجلس منتشياً بعد تناوله حليب الناقة وشرائح الخبز المطلية بالعسل الأسود الشهي بانتظار تقديم القهوة بالفنجان الزجاجي الصقيل. تقدم الخادم الفاحم البشرة يحمل دلّةً برونزية لميعة وراح يسكب قهوةً سوداء في قلب الفنجان. وفي اللحظةِ التي ارتفعت الكف لتتلقى الفنجان وتدفع بمحتوياته إلى جوف الفم تهشم الزجاج الصقيل وتفرَّطت أجزاؤه فيما تناثر السائل الأسود بقعاً على الوجه، وكشفت العينان المتفرستان في الأرجاء ذهولاً أرساها على شاطىء قرار أتُّخِذَ سريعاً.. قال في أعماقه: "إنَّ الذي أصاب الفنجان في قلبه لقادر أن يصيبني في رأسي"..

رفع الرأس وأرسى آخر نظرةٍ على الرامي المنتصب في نقطة رصدٍ مكينة فوق سور المدينة وقد تصاعد خيط دخان من الماسورة الطويلة؛ لحظتها أعطى إشارة الانسحاب والتحرك صوب مدينةٍ أخرى ليُمارس فيها فعل الذبح والعبث والدمار."

هل تفاعلت هذه الحادثة لتقرّب بين الشرقيين والغربيين فتجعل منهم مدينة موحَّدة يؤمها الوئام وينشر الصفاءُ رحيقَهُ في النفوس؟ هل تناخى الفرقاء على نبذ الفرقة كما تناخوا على العدو القادم للإغارة والهتك؟ هل قال احدهم للثاني أنَّ ديننا واحدٌ وإنسانيتنا مشتركة فلماذا التنافرُ والشقاق؟.. هذه الأسئلةٌ طرحها جعفر على جدته تاركاً لها حريةَ الرد.. لكنّها غب جلسةٍ وجدَت نفسها قادرة على الحديث استدعته إلى غرفتها الحسيرة.. اتكأت على الوسادة الصوفية متَّخِذةً جلسةَ مَن يريد الحديث الطويل:

– قبل يومين سألتني عن أحوال الناس المهووسين في افتعال صدامات لا تنتهي إلا بزهق روح بريء أو ترك أجسادٍ تئن.

– نعم يا جدتي، أنا في حيرةٍ وبحث عن جواب.. أقول أين الدين الذي يزرعون تعاليمه في قلوبهم؟ وأين مخافة الله والخشية من بطشه؟

تضحك جدته جوخه بقهقهةٍ تعكس فعل السنين على صوتها واهتزاز جسدها، فتأتي ضحكتها كقأقأة دجاجة:

_ أي دين يا ولدي؟ وأي مخافة.. مَن يقول لكَ أن الناس هنا يخشون الدين فلا تصدق. ومن يشير إليكَ على أن رسول الله والأولياء لهم مهابةٌ حقيقة في نفوسهم فاعتبره من عِداد التخاريف.

تقرأ الدهشة على وجه حفيدها وانبثاقها في عينيه:

– نعم.. صدّق ما أقول؛ وستهبك الحياةُ في قابلات الأيام نعمة الاكتشاف وتكسبك التجربة يقين أنَّ الدين بعظمته لم يؤثر بهؤلاء الأعراب.

وفعلاً لم تمر سوى بضعة أسابيعَ حتى تسبب فعلُ بسيط لا يستحق الاهتمام في قتالٍ سقطت فيه الأرواح قتلى وتراغت حمّى الحقد لترتفع غيوماً كدِرة في سماء النفوس. فقد اعترض احدُ الغربيين "رضا "السقّاء، طالباً افراغ شيء من ماء يحمله إلى احد الشرقيين لكي يشرب ويغسل وجهه وينشر حفنةً منه على رأسه الملتهب بفعل هجير ظهيرة لافحة فرفض السقاء طلبه مدعياً حملهُ لبيت التاجر شلهوب وأن هذا التاجر لئيم وسيتهمه بسرقة الماء فينهال عليه بالسباب. الرجل الغربي كان خطط لهكذا ردٍّ سيأتيه فازداد تعنتاً، مُجبِراً الرجل السقّاء على إعطائه الماء. وحين وصل إلى بيت التاجر اخبرهم بما جرى. اندفع ابن التاجر إلى أبيه ينقل كلام أمّه الجاعلة من هذا الفعل اعتداءً كبيراً لا يمكن التغاضي عنه. وبدوره هرع التاجر إلى الشيخ جابر الدخيل ليعرض ما حدث مع حركات تمثيلية تصور الأمر وكأنّه اعتداءٌ على الحرمات، واستهانةٌ بالمقدرات. ادعى المشتكي أن هذا لم يحدث عفواً:

– إنها محاولة من فارض العلوان لتحدّيكَ يا شيخ، وفعل مقصود فيه شيطنة تريد الاستهانة بقدرِكم من خلال تحدينا نحن أتباعك الأوفياء.

تأمل الشيخ جابر الكلام؛ وراح يستعيد قسمات الشيخ فارض فتنبثق في ذاكرته تلال دهاء تتخفى خلفَ عيني غريمه، وتوصله لحظات تأمله أن ما

حدث جاء من باب القصد الواضح؛ ومن الغباء التغاضي عنه. فأومأ في الحال إلى احد رجالاته المنتظرين إشارةً منه:

– اذهب إلى السوق ورد الصاع صاعين.

السوق يعجُّ بالمتسوقين. المتسوقون جلّهم ريفيون قادمون صباحاً للتسوق. وهناك أوقف الرجل الشرقي بائع قرب متجول يسكن الحي الغربي:

– كم سعرها؟

– عشرون قران.. كم تريد؟

امتدت يد السائل إلى خنجره. استلّه من حزام جلدي يطوق البطن متوجِّهاً إلى أحدى القرب. بضربةٍ خاطفة مزّقتها.. وببرود مقصود، خاطبه:

– لا تستحق السعر. وإن تفوَّهتَ بكلمةٍ أمزق القِرَب جميعاً.

لم تمضِ سوى دقائق حتى لعلعت في فضاء السوق رشقات من رصاص، وشاهد يوسف بلبول اليهودي من دكانه الذي يعرض الأقمشة المتنوعة وخيوط الصوف بألوانٍ مختلفةٍ جمعاً من رجال الغربي يوجهون بنادقهم إلى السماء والشرر يتطاير من عيونهم، يزبدون ويرعدون. يتوعدون الشرقيين ثم ينسحبون والجينَ الأزقة العائدة لحيّهم، وتاركين السوق ينفضَ روّاده فيستحيل فراغاً في غضون دقائق.

تلك الحادثة أطلقت نار القتل المتبادل سقط جراءها ثلاثةٌ من الشرقيين واثنان من الغربيين فماتت نشوة الانتصار ودقّت عجوز النواح أوتادها في فناءات خمسة بيوت وثلاثين فرداً، بين أمٍ وأب وأخت وأخ وأولاد.. موت يُعلن وجوده هنا، في هذه المدينة المتواصلة دوماً معه. يأتي بشتى الأوجه، ويتلبس بمختلف اللبوس. يقطف ما يريد من متفاوتات الأعمار، لا يأبه ولا يخاف، لا يتردد وليس في قلبه رحمة:

مرةً جاء على شكلِ دبيب على بشرة (شندل) بائع الجلود. ترك خلفه طفح ورغبة في حك. أظافر المُبتلى به تهرش الجلد فتزداد حساسيته وتدفع

الأظافر إلى هرش يعقبه هرش، ثم هرش تصاحبه حمّى تعلو مع ارتفاعات مناسيب هستيريا الهرش. ينصرف الليل بين فعالية الأظافر وارتفاع درجة حرارة الجسد، حتى إذا أعلن الصباح ظهوره قالت الأنفاس وداعاً يا شندل، وقال جسد شندل ها أنا هامد.

ومرةً دخل مع حليب وهبته بقرة هلال الناصر عبر فم (عبّاوي) فأحدث هرجاً ومرجاً في معدته.. هاج وماج في الأمعاء، فكان الفم غب نصف ساعة يلفظ ما في المعدة من سوائل صفراء وفتحة الشرج تدفع سائلاً ابيض مخضر دون سيطرة،. وعبّاوي لا يعرف كيف يوقف هذا الخروج الكيفي، ولا هو قادر على إعلان أن لباسه الداخلي وثوبه تلوثا بالخراء.. وساعة أجبر نفسه على الإفشاء بما يعتريه كان جسده خوى وأعضاؤه لا قدره لها على الحركة.. أسرع شقيقه فاضل مستنجداً بالميرزا رضا كي يحضر ليعطي له ما يعينه على مجابهة هذا الطارىء اللعين، لكن الزمن لم يكن بصالح الأخ، ذلك أن الميرزا رفض الحضور مشخِّصاً المرض باسم (أبو زويعة)، مكتفياً بإعطائه ورق اليانسون. قال للأخ "اغلوا الماء وذوبوا الوريقات فيه ثم اسقوه للمريض بعدما يبرد".. بيد أن المريض لم يحظ برشفة من السائل لأنَّ المختلس، قال بفم السخرية: لقد سبقتكم، فلا داعي لتسخين الماء.

ومرة تسللَّ مع لميعِ مديةِ فتحِ ظهورِ الأسماك غرزها حمادة السمّاك في عنق رحّومي البقّال عندما تشاجرا على لولوة السمراء. ولولوة جاءت مدعوة إلى التياترو مع فرقة زنجية من البصرة ترقص على إيقاع الـ(الهيوة) وضربات الصنوج والدفوف مع رفيقة لها توازيها في الحركة والأداء. كانت لولوة مستديرة الوجه وواسعة العينين، شفتاها تلتمعان مع بلل الرضاب الذي تتقصّد أن يكون دائماً متحفزاً لا يترك شفتيها يشوبهما الجفاف.. قوام لولوة يمكن أن يُقال عنه ممشوقاً ولها عجيزة تحفّز الناظرين ممن ابتلوا بزوجات ليست لهن عجيزات بهاته الاستدارة والارتواء على التحديق الذي يقود إلى وله

وولع.. هام حمادة بلولوة، ونازعه عليها رحّومي. رحوّمي لم ينازعه بمصطلح النزاع المبني على النديّة إنما أعلن في لحظة هيام و(العرق) المحلّي يتغلغل في ثنايا الدماغ أنَّ لولوة معجبة به وإنها ضربت له عهداً بأنها ستحدد معه موعداً للقاءٍ ساخن.. ذلك أغاظ حمادة فجعله يستل مديته ليغرزها في عنق المسكين الذي لا احد يعلم هل كان صادقاً في قوله أم لا، هل حقّاً أعطته لولوة عهداً وضربت موعداً أم أن ذلك محض خيال لا يدري انه سيقوده إلى نهاية فاجعة؟.. المهم أن الموت كان المنتصر. فقد رحل رحومي رحيلاً أبدياً وزجَّ حمادة في السجن، ولم يطلق سراحه إلا بعد خمس عشرة سنة. وما أن وضع أولى الخطوات خارج بوابة السجن حتى جاءه صوتٌ من خلفه يناده باسمه: حمادة!.. أتعرفني؟!". وقبل أن يكمل حمادة الطليق توّاً تطلّعه في وجه المتكلم أنغرز في عنقه سكين مشحوذ بخمسة عشر عاماً من الغلِّ والحقد والانتظار، وصوت يقول أنا ابن رحومي الذي قتلته غدراً. يا كلب ".

ومرة، بل مرات طاف على أطفال المدينة فراح يحصدهم بمنجل (الحصبة) و(أبو زويعة) والغرق في مياه الفرات حيث العادة السنوية أن يبتلع فتى في الربيع وآخر في الصيف من أولئك الذين يغريهم فيستدرجهم إلى السباحة ثم يبتلعهم ويدفع بهم إلى أعماقه يتخبطون ويتخبطون ثم تخور قواهم ويسلبهم أنفاسهم، وأخيراً يدفع بهم إلى انعطافة (الدحَيل) جنوب المدينة منتفخي البطون ومفقوئي الأعين.. مرة ومرات اقتحم حياة الرجال والنساء فأسقطهم في حومة (السل) و(الفالج) و(السكري) و(ارتفاع ضغط الدم) و(الذبحة الصدرية) و(الجلطة الدماغية).

أغلِقَ السوق لأيامٍ خشيةَ حدوث انتهاك وعودة إلى الاقتتال. وفاحت في فضاء الجلسات رائحة الشكوى من أنَّ غلقَ السوق يعني توقف الأعمال وانقطاع الرزق. تجرأ (جبر) على فتحِ مقهاه واستقبلَ أولَ زبون قدمِ من الريف القريب غير عارف بالذي حدث فشاهده آخر مرَّ من أمام النهر

يرتشف فنجان القهوة بحالة من الانتشاء فسرت إلى قلبه الشجاعة وتوجّه ليجلس على تختٍ ثانٍ.. وهكذا شرع المارَّةُ بالجلوس في مقهى بعثت خبراً إلى أصحاب المحلات في بيوتهم فخرجوا يستطلعون؛ ومن ثم يفتحون. فعادت الحركة إلى السوق وبدا كأن شيئاً لم يحدث.

جرى أنَّ قائمقام المدينة وقائد الجندرمة العثماني اعتادا على غلقَ الآذان وإغماض العيون حين يحدث الاقتتال وتنتشر رائحة الموت، مُفضّلين الانتظار على التدخُّل. فعندما يتعب المتحاربون وتكلُّ السواعد يتهيئون هم لسماع نداءات الاستنجاد. وقتها تتحرك الخيول ويشاهد الناس المتلصصون من كوى البيوت الغبارَ المتطاير من تراب الشوارع والسوق ويسمعون صوت المنادي العثماني يدور في الأرجاء طالباً بلهجةٍ عربية متكسرة عودة العقل إلى الرؤوس والاستعاذة بالله والخشية من غضبه فيما يتوجه عنصران منهم إلى بيتي فارض العلوان وجابر الدخيل يدعوهما للحضور إلى مبنى السراي بناء على طلب القائمقام.

وهناك يبدأ التعنيف، وتنهال على مسامعهم كلمات التوبيخ توصفهم بالبلادة والبله والخروج على الدين وطاعة السلطان، فتتطأطأ الرؤوس ويبدي المتحاربان أسفهما طالبين عذراً لتهور رجالهما، معلنين أنَّ ما حدث لم يكن بعلمِهما.

ويوم سمعَ الناس أنَّ الإنكليزَ قادمون، وأنَّ الحال لا بدَّ أنْ يتغير ويأتي هؤلاء بآراء لا تسمح بالاقتتال وتعاقب مَن يتسبب بها سرت في النفوس فرحةٌ وطافت في القلوب غيومُ الابتهاج. وراحت العيون تتطلَّع ولو برغبةٍ دفينة إلى القادم الجديد. وهُم وإن كانوا يحتضنون جموعَ مجاهدين قدموا تلك الأيام جماعاتٍ جماعات لمحاربة الإنكليز المرابطين في "الشعيبة" القريبة من لواء البصرة ومنعهم من احتلال الوطن مُظهرين التعاون والحماس للجهاد إلا أن الدواخل ليست كذلك. فقد سمعوا أن الإنكليزَ أناسٌ متحضرون؛ بمجيئهم

ستنتهي الهيمنة العثمانية البغيضة وتتخلص المدن من أنفاسهم وسطوتهم. سيجلب الإنكليز معهم عربات تمشي بلا خيول تجرها، ولن يشاهدوا بعد ذلك روثاً تلفظه مؤخرات خيول العربات وخيول الجندرمة كذلك. سينشئون مستشفيات تعالج المرضى ويأتون بأطباء يرتدون الصداري البيض ويقضون على الأمراض الشائعة والمستوطنة في هذه المدينة. سيبنون المدارس ويعلّمون الصغار القراءة والكتابة بمجاميعَ كبيرة. ستأتي بضائعُهم المصنوعةُ بآلاتٍ متطورة حديثة. سمعوا بأنَّ النور سيأتي محمولاً بأسلاك معدنية ومصابيح تنتشر في الطرقات تبث ضوءها السحري فتنتفي ظاهرة الفوانيس، ويتحول عمّال نصب الفوانيس في الشوارع والأزقة إلى عمال تركيب المصابيح وتوزيع النور. سيأتون بآلاتٍ سحرية تحول الماء إلى ثلج فتقتل في نفوس الناس غائلة الحر وتنتهي ظاهرة نشر "شربات الفخار" فوق حيطان السطوح، ويتخلّى الناس عن "حْبوب الفخار". كل ذلك كان يأتي على لسان وارد السلمان الذي عاش في بغداد ستة أشهر وعاد إلى السماوة ليقصَّ على روّاد مقهى (عطية) الواقع على حافة صف البيوت المحاذية لبستان (آلمكتوب) ما كان يسمعه يدور في المقاهي البغدادية بلا خوف من البطش العثماني ولا خشية.

_ ((أجلس في مقهى (الميدان) فأرى بعضهم من على التخوت الخشبية التي يجلسون عليها يتأففون، وأسمعهم يجاهرون بكرههم للولاة العثمانيين. يتحدثون بجرأةٍ عن أن العراقيين سيكونون أغبياء إن هُم استمروا في مساندتهم لحكامٍ جائرين، وسيتكرَّس الغباء في نفوسِهم إن لم يفردوا الأذرع ترحاباً بالقادمين الجدد المتحضرين الذين سيحررونا من ظلم وقع على أجدادنا وانتقل إلى آبائنا ثم جثم على حياتنا، ومن ثم سيلتهم حياة أولادنا وأحفادنا المساكين.))

يدسُّ وارد السلمان يدَه في جيبِ سترته ويُخرج ورقةً كتبت بحروف طباعة

آليـة، قـال أنهـا وزّعـت سـراً بـين بعـض رواد المقهـى وحصـل هـو علـى هـذه النسخة.

((عراقنـا! هـذا العزيـز، بلـدُ الأجـداد العظـام لسـوء طالعـه وأنانيـة حكّامـه وجورهم وجدَ حالَهُ ضيعةً عثمانية، تحتَ سلطةِ سلاطين ادَّعوا الورعَ وجاهروا بحفاظهم علـى قـوة الإسـلام وتطبيـق تعاليمـه الإنسـانية السـمحة المبنيـة علـى أسـاس "كُلُكم كأسـنان المشـط"، اكتشـف أهلُـه بعـد حين أنَّ أرضَـهم لا تدر إلا بما يبهج حياة سلطانٍ بعد سلطان، هناك في اسطنبول مثلما اكتشفَ أن رايةَ الإسـلام التـي بـدأت رفرفتُهـا فـي ارض الجزيـرة العربيـة قـد انتقلـت إلـى ارضِ عثمـان، ومـا مُفـردة مُسـلم التـي تحمـل بـين ثناياهـا معـاني الحـب والمـودة والإخاء الإنساني قد لويَ عنقها فصارت تعني الخضوع والخنوع وامتثال لأمر السلطان. صار المسلمُ تحتَ رايةِ السلطان قيناً، يكدُّ نهاراً ويتضوَّر ألماً وتعباً ليلاً؛ ثم يُقدِّم حصيلةَ جهدِه وشقائه وعرقه علـى طبقٍ من خنـوع. بلـدنا يـا أخواني أرادوه بقرةً حلوب ومدنُه أذرعَ خَدومة لهذه البقرة. صوت سياط الوالي وأعوانـه تُسـمع فـي الفضـاء، لاسـعةً ظهـور المتـأوهين لثقـل العمـل وضـخامة الجهد. وشمّاعة الطاعـة للخليفـة المسـلم تُعلَّـق عليهـا كـل مبـررات التعـذيب والتجويع والإذلال حتى الموت.)).

الكلمات أحدثت صدى مؤثراً بين الجُلاس، فصاح شاكر حسان وقد عدّل من جلسته على الكرسي المعمول من سعف النخيل وأرسى عقاله الغليظ على رأسه:

– هـذا كـلامٌ در وجـواهر.. هـل يقولـون هـذا فـي بغـداد فعـلاً، يـا وارد.. أقصد هل الناس تؤيد ذلك؟

– الأغلبيـة مـنهم بانتظـار الفـرج الكبيـر. أمـا القلّـة فهـم المنتفعـون ممَّـن يقبضون من الترك المال الحرام لكي يشوا بالمتذمرين من حكمِهم، وأولئك لا يرتضون زوال أولياء نعمتهم حتى لو سحقت بغداد بأهلها جميعاً.

– ومن منّا لم ينتظر هذا الفرج؟!.. لقد ذرَّ الأتراك الكلاب رماد الجهل والأمية والابتزاز في عيوننا وعقولنا ولم يفكروا يوماً بخدمتنا واحترام حقوقنا.

جاءت كلمات شاكر حسان مدافةً بالحقد، مُبدياً استعداده لأن يستنسخ القصاصة التي قرأ السلمان محتواها ثلاثين مرة لكي يتم توزيعها بين مَن يُحسنون القراءة والكتابة ليطلعوا عليها، ولكي يقرؤونها أيضاً على مسامع الناس دعوةً لنبذ سنين الظلام ورفض هيمنة السلاطين.

_ وعيون الأتراك المتوزعة بيننا ولا نراها، كيف نتجنب أذاها؟

كانت هذه كلمات مزعل العباس. التفتَ مراراً متفحصاً وجوه الجالسين قبل أن يفوه بها.

– هؤلاء كالديدان نسحقهم بنعلنا إنْ نحن اتحدنا وخلقنا كلمتنا واحدة.. قالها السلمان قبل أن تنطلق من فم شاكر.

– والجهاد؟!.. وهذه الجموع التي تتوالى باسم نصرة الإسلام والدفاع عنه ومحاربة الكفّار من يقنعها بأنَّ الكافرَ العادل المتنوِّر أرحمُ من المسلمِ الظالم المتجبّر؟.. تساءل العباس.

– هؤلاء عاجلاً أم آجلاً سيكتشفون خطأ نظرتهم، وسيجدون أنَّ جهاداً يدعون إليه ما هو إلا نصرٌ للظالم وسحقٌ للمظلوم.

عندما انفضّت جلسةُ المقهى انتشرت رائحةٌ جديدة في فضاءِ المدينة.. رائحةُ رغبةِ استقبال الأمل وانتظار ساعة الخلاص. أحس وارد السلمان أنَّ دعوته وصلت ولو إلى حفنةٍ من الناس، وجلس شاكر حسان في حوش بيته بعد أدائه صلاة المغرب والعشاء يُمنّي النفس بزمنٍ جديد يزيل وطء الكابوس الجاثم منذ قرون؛ وشكَّك مزعل العباس بما سيحصل معتقداً أن التغييرات التي سيحلم بها هو أو وارد السلمان وشاكر حسان ما هي إلا أحلام طائرة ستُحلِّق قليلاً ثم تهوي إلى قاع الواقع الثقيل، وغيمة من الأماني ستمطر مزناً يسيرة وتتلاشى. فما يتمنون لن يحدث بغمضة عين خاطفة، أو بين ليلةٍ

وأخرى. أمّا رجال الدين فلن يتركوها تسير كما هي عجلة الزمن؛ إلى أمام حيث المستقبل بمنابته النورانية وتجاوز مستنقع فقر وجهل ومرض وعتمة يخوض في بحورها أبناءُ مدينتهم. سيتناهضون رفضاً لما سيحدث، ويتبارون لتعطيل ما سيصير. سيصدرون الفتاوى، ويؤلبون البسطاء. سيُظهرون أنَّ الدين في خطر وأنَّ القادمين سيعيثون في الأرض فساداً. لهم الحق في رفض ما هو جديد ومستحدَث، ذلك إنهم يخافون المستقبل في حين يعيشون في عالم الحاضر حياة الرغد والبطالة والرخاء، ويشدون العقول إلى الماضي والغرق في يم هيمنته على انه مقدَّس يجب التمسك به والتشبث بمفرداته، وما ابتعادنا عنه ومحاولة تجاوزه إلا عصيانا لمشيئة الله وتجاوزاً على حكمته.

من هذا التصوّر كان مزعل العباس ينطلق، فلا يستشعر بوادر تغيير تأخذ طريقها بانسيابية الراغب المتلهف. أيقن جازماً مع نفسه أنَّ وارد السلمان وشاكر حسّان سيلاقيان الصد والرفض والتشهير، وسينعزلان على أنهما كافران وأعداءٌ للدين. بتبشيرهما بالمستقبل الزاهر النيّر كما يزعمان إنما يروجان لتقبّل الكفّار ويعملان على تحطيم الإسلام.

(٣)

خبرُ توسّع عملياتِ السلب لدوائر الدولة الواقعة في الصوب الكبير وصلَ إلى الموظفين وهم في بيوتهم ووسط عائلاتهم في صوب القشلة الصغير. ومع هذا الخبر خبرٌ لاحق يقول أنَّ نيّة الناهبين تتجه إلى الإغارة على بيوت الموظفين أيضاً لسلبها ومصادرة محتوياتها.

في ذلك البيت الواطئ البناء ذي الحديقة المقتطعة من بستان يجاور بيت القائمقام كانت وهيبة بثوبها القطني الهفهاف ووجهها المستدير المرتوي احمراراً تراقب موجةَ شحوب هجمت على وجه والدها مدير المال ووالدتها التي راحت تذرع الحوش والجةً غرفةً ثم خارجة لأخرى، لا تدري ماذا تفعل..

فقط كانت تردد "أنَّ الله وحدُه الساتر!". ترتعش قليلاً وتصفر حتى لتبدو تلك اللحظة كما لو أنها كبرت عشرين عاماً فبدت في الستين. ترتعش وهي تنظر بخشية على ابنتها البكر وهيبة وأولادها الصبية الثلاث.. كانت تردد: "ليأخذوا كلَّ شيء وليتركونا في أمان نخرج من هذه المدينة التي لا تعرف إلا الغدر والشر."

طرقات متتالية على الباب أنبأت بمبررات القلق. ظنَّ عبد الكريم شوكت مدير المال أنها طرقات المغيرين يقصدون بهم شرّاً فتفجَّر فزعاً ولم تكن لديه القدرة على فتح الباب؛ لكأن أعوامه الأربعين تلاشت فلم تسعفه بحركة توصله إلى الاكرة، والرسو على اليقين.

– مَن؟.. صاحت أم وهيبة مستعينةً بما تبقى لديها من شجاعةٍ ناضبة.

– أنا، الجندرمة.. القائمقام يدعوكم للتهيؤ والمجيء جميعكم إلى داره.

– لماذا؟

– لا تقولي لماذا يا خاتون. عائلات الموظفين كلهم الآن في بيته. هو يخشى عليكم وعليهم من الخطر.

وسط ارتباك الأب وفزع الأم شعرت وهيبة بخيبة قاهرة، وأيقنت أن حياتها شرعت تتجه لغير ما أرادت، وأنَّ ما سيحصل سيكون غامضاً ومضبباً.

((يوم زفَّ أبي خبر ترقيته إلى درجة مدير مال وموضوع نقله لممارسة عمله الجديد في دار قضاء السماوة فرحت أمّي كمحاولة لتبديل الواقع والعيش بطريقةٍ نستطيع فيها تحسين الحال، مثلما هي فاتحة لترقيات قادمة.. جئنا من "بهرز" التابعة للواء ديالى قبل عامين.. جئنا لنقيم هنا في قضاء السماوة. أتذكر أننا استيقظنا صباحاً وتحركنا بحقائبٍ حملها ثلاثة حمالين برفقتنا أعمامي الأربعة وخالتي، شقيقة أمي كمودعين صوب الفرات. هناك وجدنا زورقاً كبيراً يحمل اسم "الرحمة" يرسو في مرساه. كان متهيئاً للتحرك في مياه النهر للاتجاه جنوباً. ودّعنا أعمامي متمنين لنا سلامة الوصول.

على وجوههم طفت بهجة المركز الكبير الذي سيتسلمهُ أبي في حين انهالت الدموع من عيني خالتي راسمةً في مخيلتها ثقل الفراق وخائفة من مجهول قد تخبئه الأقدار. تحركَ الزورق ولوح لنا الجميع وارتفعت اكفنا لتلوح لهم شكراً ووداعاً؛ ووجدنا أنفسنا عائمين نطالع مشاهد الضفتين: بساتين نخيل كثيفة دكناء وأناس منهمكين في المزارع.. جواميس نازلة في الماء تطفىء حرارة أجسامها الضخمة المكدسة باللحم والشحم.. ضفاف تسوح عندها أغنام وماعز. مررنا بقرى وبيوت متناثرة. رأينا فتياناً بملابس رثّة ووجوه موحلة لفحتها حرارة الشمس؛ يلوِّحون لنا بأكفِّهم الصغيرة، وينادون: " خذونا معكم! ".. بنات يحملن الماء بجرارٍ فخارية من النهر ويصعدن باتجاه بيوتهن ثم يتوقفنَ ليبعثن بأنظارهنَّ صوبنا وكأنهنَّ يرددن ما فاه به الفتيان.. زوارق ترفع العلم التركي وفيه عدد من الجندرمة ببدلاتهم الكاكية والعمائم الاسطوانية يحملون البنادق على الأكتاف. تتهادى زوارقهم إثباتاً لوجود هيبة الدولة في كل مكان.. كنا نطالع، ونطالع . وحين نملَّ من التطلع ونتعب من مراقبة موجودات الضفتين نتجه إلى حوض الزورق فنبصر أكداس التمر المعبأ بخوص سعف النخيل، أشكالٍ اسطوانية تأخذ مكانا واسعاً، ومكاناً آخر لأكياس حنطة وشعير، وبضائع مصنوعة محلياً وبعضها مستورد من بلدان بعيدة شاهدنا منها أقمشة مرزومة في بالات، وصناديق قيل أنها تحوي بنّاً، وحزم حبال متفاوتة السُمك وبضائع أخرى غيَّبتها صناديق وأكياس تحتويها تنقل من مدينة لأخرى. وفي طرف الزورق البعيد أخدود بمثابة غرفة خصصت لراحة المسافرين؛ جلسنا عندها فتناولنا الغداء وفيها أيضا تناولنا عشاءنا وقضينا الليل نائمين وفي نفوسنا شوق لرؤية السماوة. قال أبي: "سيكون لنا بيتاً مستقلاً وسنلتقي بعائلات الموظفين. نقيم معهم علاقة محبة. نشترك في صحبة ودودة.". لكنَّه كان أظهر تخوفاً من أخبار سمعها قبل قبوله الوظيفة ومجيئهِ. "يقولون ان السماوة منبت مشاكل ونزاعات وأهلها في

عراك دائم . لا ينامون ويصحون إلا على أخبار الاحتراب والدماء.". غيرَ أنَّ أمّي كانت تبث عطر الطمأنينة في نفسه وتعده بإقامة علاقات طيبة مع الناس بحيث نكون في منأى عن الضرر... خمسة أيام صرفناها على ظهر الزورق قبل وصولنا السماوة. لم نتركه إلا عندما وصلنا الديوانية عصراً حيث هبطنا فدخلنا في استضافة قريب لأبي كان يسكن مدينة "الخالص"؛ ويوماً ما قبل عشرة أعوام دخل في شجار مع رجلٍ ينافسه في عمله؛ تفاقم الشجار إلى استخدام السلاح انتهى بطعنهِ طعنةَ موتٍ، فحُكِم عليه بالجلاء عن المدينة طوال حياته. لم نر من الديوانية شيئاً لأن التعب أخذ منّا مأخذاً كبيراً طوال ثلاثة أيام من السفر المائي فنمنا تلك الليلة دون أن نتعرف كثيراً على عائلة قريبنا.. صباح اليوم التالي نهضنا لنستقل الزورقَ ونسير مدة يومين. كانت السماوة مدينة نهرية أبصرنا على يميننا بيوتاً متزاحمة. قال لنا صاحب الزورق: "هذا هو الصوب الكبير، فيه الحكومة وعامة الناس . وهذا – وأشار إلى يساره – صوب القشلة أو الصوب الصغير كما يُسميه الناس؛ فيه بيوت الموظفين وحامية للدرك التركي. سنقف هناك وتنزلون. أرى أناساً ينتصبون في المرسى؛ لا بدَّ أن بعضهم بانتظاركم.

كانَ البيت المخصص لنا واحداً من مجموعة بيوت مُعدّة لموظفي الدولة. بيت يجاور بيوت القائمقام ومأمور الطابو ومدير البلدية ومفتي القضاء ومدير البريد والبرق وبعض بيوت ليهود آثروا السكن في هذا الجانب من المدينة. بيوت تتوسط بساتين كثيفة مجاورة للفرات بنيت من الطابوق بهندسة حديثة متشابهة حيث غرفتان تطلان على صالة واسعة تنفتح على مجاز يقود إلى حديقة. في حديقة بيتنا تنتصب ثلاث نخلات وبعض من شجيرات الرمان وشجرة تين يبزغ من بين أغصانها ثمر التين الأصفر الناضج. وجدنا أسرّةً مرتبة لها أفرشة نظيفة لكنها مستخدمة كما يبدو من قبل عائلة مدير المال التي كانت تشغل الدار قبلنا. ثمةَ دواليب متوزعة في الغرف، إضافة

إلى أخرى احتواها المطبخ. قضينا الليلة الأولى ضيوفاً عند عائلة المفتي. وفي اليوم التالي رحنا نرتب شؤون البيت ونستعد لحياتنا اليومية في حين أبدى أبي ارتياحه من العمل في السراي الذي يضم دوائر الحكومة متعرِّفاً على الموظفين مبدياً ارتياحه لشخص القائمقام (وصف أبي القائمقام بأنه شابٌّ طموح يسعى لترتيب شؤون قضاء قيل له قبل قدومه واستلام مسؤولية إدارته أنّه يعجُّ بالمشاكل والمتناقضات وعجز الكثير من المسؤولين في أدارته وفق تصّور تتمناه الحكومة وتسعى إليه.).

شرع أبي بالخروج لمطالعة سوق المدينة وحواريها؛ ويأتي ليحدثنا مبدياً مواعيدَ لإعلان موافقته على خروجِنا بمصاحبة عائلات جيراننا من الموظفين لكنه كان يسمح لنا بالخروج عصراً إلى النهر (النهر لا يبعد سوى أمتار عنّا) . نستمتع بجريان مائه الهادر. ندفع بأنظارنا إلى الصوب الكبير: بيوت مُطلة على النهر، نساء المدينة يأتين بقدور وصحون برونزية وملابس يغسلنها ثم يملأنَّ جراراً معدنية بالماء وينهضن عائدات إلى بيوتهن. كان شوقنا يزداد لرؤية المدينة والتفرج على سوقها والتعرف على ناسها؛ وقبل ذلك التعرف على عائلات الموظفين، جيراننا (جيراننا ما أن وصلهم خبر مجيئنا واستقرارنا حتى شرعوا يزوروننا مقدمين تحيات الاستقبال وموجهين الدعوات لزيارتهم. ولم تمض أيام حتى صرنا نعيش عائلات متحابة متجانسة). صرنا نخرج إلى سوق المدينة لابتياع ما نحتاجه من ملابس حيث عددٌ من القمّاشين عرفنا منهم داوود زلخا اليهودي وحسن درجال وآخرين. لكن هذين المحلّين يعرضان أنواعاً حديثة من أقمشة مستوردة من فرنسا وإنكلترا: "قطيفة" و"جرجيت" و"بوبلين" و"جوخ" و"زري". نتوقف عند دكاكين الصاغة (ثلاثة دكاكين). نطالع مصوغاتها معروضة وجدناها تتلاءم وذوق نساء المدينة: "قلائد" و"أقراط" و"خزامة" و"عران" و"أساور" و"خواتم" و"حجول". لفت انتباهنا محل يبيع توابل متنوعة وأعشاب نباتية تعالج المرضى، يؤتى أغلبها

من الصحراء القريبة. جواره عدد من محلات بيع العباءات الرجالية واليشاميغ والعِقل، أخرى محلات تعرض أزر وبسط محاكة من صوف الأغنام، وأخرى من وبر الجمال وقِرب ماء قبل أن البدو القادمين من البادية يبتاعونها. كان ثمة سوق للحدادين وآخر للصفارين لم ندخلهما مع أن لي رغبة وشوق لرؤيتهما ومشاهدة عمل الناس وهم يصنعون الأواني والصواني والقدور والأباريق النحاسية للبيوت والمساخن مثلما يصنعون الفؤوس والسلاسل والمناجل والمساحي ومسامير طويلة تعين الفلاحين في إصلاح عرباتهم الخشبية. كنا نرى نساءً يتحركنّ جمعاً باتجاه فرح هنا أو مأتم هناك. حين يشاهدننا يقفن يطالعننا بعيون مفتوحة متسعة. نسمع كلمات الإعجاب تتسكب من أفواههن المسترخية بفعل الدهشة: " بنات العصملّي نظيفات، حلوات! " فيما يبعث جلاس المقاهي أنظارهم صوبنا بتفحّصٍ ثم يشيحونها عائدين إلى أحاديث كانوا أوقفوها لدى مرورنا. وحين نعبر الجسر عائدات إلى بيوتنا في القشلة يخيَّل أننا تركنا وراءنا جزيرة نائية.))

جدّية الخطر جعلت الخوف يتغلغل بقوةٍ في قلبِ عبد الكريم شوكت، ومحاولاته إظهار قدرة السيطرة ورباطة الجأش أمام الزوجة والأولاد أُحبطت؛ فقد شاهدَ الجميع الصفرةَ صارخةً على وجهه، وارتعاش فاضح يعتري أصابعه، ورواح ومجيء ينمُّ عن فقدان سيطرة في اتخاذ قرار.

جاءهم صوت الجندرمة ينضح رجاءً، ويعرض حذراً:

– بقاؤكم ليس لصالحكم.. والتأخرُ هنا لا جدوى منه. اتركوا كل شيء وتعالوا.

لا مناصَ من الخضوع لأحكام القدر، والعامان اللذان صُرفا هنا سيكونان من عِداد الذكرى المؤلمة والقاسية. أما الآتيات القريبات من الأيام فمن مجاهيل الخوف الجاثم.. كيف ستنتهي المحنة؟ وما الذي سيحدث؟ ولماذا كل هذا الحيف يقع عليهم وهم ليسوا إلا موظفين يؤدون واجباً أوكِلَ إليهم؟

أحقاً سيتركون ما بنوه وما اشتروه وجمعوه ويخرجون صفر اليدين؟

طرقاتٌ على البابِ أعادت إليهم تحذيرات الجندرمة، فتحركَ الأبُ ليفتح البابَ هذه المرّة؛ كأن الشجاعة تفجّرت فيه اللحظة.

فتح الباب فإذا هو (حسوني اليابس) وخلفَهُ (جبير تقّال) وعدد من فتية وقفوا خارج الدار، تطفح عيونهم باحتدام وانتظار فعلٍ سيؤدون . انشرح الأب وانفتحت أساريره لمقدميهما. اندفعت أم وهيبة إليهما استنجاداً بهما.

– تفضَّلا.. جئتما في الوقت المناسب. إننا في ورطة ولن يقف غيركما إلى جانبنا، فأنتم أهلُ المدينة ونحن غرباء.

دخلا! مُلقين تحيةَ الود، مُظهرين التعاطفَ مع الواقعين في فخِّ القدر ومعلنين التأسي على ما يجري. غير أنهما أشارا بصوت الأمر إلى الفتية المنتظرين أن يدخلوا:

– تعالوا! هؤلاء أهلنا ومعارفنا.. انقلوا الأثاث وما تجدونه ضرورياً. لا تسببوا الأذى لهم.

اندفع الفتية كضباع تهجم على فريسة وجدتها لا طاقة لها على المقاومة؛ وراحوا يرفعون ما يقدرون عليه ويحملونه بخفةٍ إلى عربات خشبية أوقفوها خارجاً.

تأملت أمُّ وهيبة الرجلين! تاملتهما يقفان بكل هدوء قريباً من زوجها، يتابعان حركةَ الفتيةِ مُطالبين بالإسراع في أداء المهمة خشية هجوم مغيرين منافسين على بيوت الموظفين الأخرى.

– ماذا تفعلان؟!..

سؤالُ الحيرة خرج من فمها المعبر عن الاندهاش:

– كيف ترتضيان نهبَ ممتلكاتِنا وأنتما من معارفنا؟

تتجّه بوجهٍ ممتقعٍ وشفاهٍ يابسة إلى حسوني. حسوني كان يخاطب المنهمكين بأخذ المواد التي يجدونها نافعة فقط:

– ألم ينقذكَ أبو وهيبة من عذاب السجن بعدما سرقت بيت داوود اليهودي؟

يرد حسوني بكلماتِ ودٍّ، ويُظهر احتراماً كبيراً ينضح من عينين تقطران خشوعاً:

– نعم، يا أمَّ وهيبة انتم أصحابُ فضلٍ عليَّ وعلى عائلتي؛ ولكن إنْ لم آخذ أثاثَكم ومقتنياتكم هذه فسيأتي غيري لأخذها.

ضجَّ صدرُ المرأةِ غيظاً وطفح الألم في نظرات الأب.. اتَّجهت إلى جبير تقّال:

– وأنتَ يا جبير مَن رعى زوجتَك وأطفالك وأنقذهم من زمهرير الشتاء ؟ من اشترى لأطفالك ملابس العيد الماضي؟

تنحني نظرات جبير وتروح لائذة بالأرض:

– نعم.. ولكن ألا تجدوا أننا أولى بها من غيرنا؟

صرخت وقد نسيت أنها وزوجها وأولادها تحت رحمتهم:

– ولكن ألا تخافون الله وعذابه.

تلك اللحظة تمنَّت وهيبة حضور جعفر لترجوه منع حصول هذه السرقة وإيقاف انتهاك يجري في وضح النهار أمام مسروقين صاغرين.. لا بدَّ أنها فكّرت أن تهبَّ راكضةً خارج البيت، قاطعةً الشوارع، عابرةً الجسر، ومندفعةً في شوارع المدينة تسأل عن جعفر؛ مستنجدةً به؛ وظنّها أنّه لن يتوانى عن نجدتها، ولن يخذلها في أحرج وقتٍ في حياتها.

لم تمض سوى دقائق معدودات حتى فرغ البيت من أثاثه ومحتوياته وسط حزنٍ وأسى، غضب واحتدام يملأ قلوب الواقفين في حالة ذهول من سلوكيات أناس خلت قلوبهم من الرحمة، وتنصلوا من كل ما أمر به الله من صون لممتلكات العبد المسلم.

تساءلت أم وهيبة متمتمةً تخاطب الأبَ وتوجِّه أنظارَها الحائرة لابنتها

وهيبة:

– أيفعلها مسيحيٌ أو يهوديٌّ، فلماذا يرتكبها المُسلم؟

كان البيت قد أُفُرِّغَ تماماً ولم يتركوا لهم غير ملابس يرتدونها وحقيبة جهدت أم وهيبة في ملئها بحاجيات حسبتها ضرورية لهم.

وقف حسوني وجبير يودّعان العائلة ويعلنان أسفهما ويطلبان الغفران كأنَّهما لم يتسببّاً في جرح سيبقى يحكي سفِرَ أناسٍ يحملون ازدواجيةَ بداوةٍ تتصف بالشهامة والتعاطف في وقت تقر الغزو وانتهاك الحرمات... وقفا يتمنيان لأفراد العائلة السلامة والوصول إلى مدينتهم البعيدة بأمان وتضرعا لله أن لا يمسسهم ضر..

قليلاً وخرجا لإنجاز مهمة إغارة أخرى على بيت موظفِ آخر.

((تلك الساعة السابحة في صفاء خريف العام الأول من وصولنا كانت أمي على موعد مع أم وفيق زوجة ثامر الشيخ للذهاب إلى سوق المدينة لشراء أقمشةٍ حديثة نصنعها فساتين لعيد الأضحى الذي بقي عليه شهران. طلبت أمي الاستعداد للخروج لأن شريفة بنت أم وفيق ستكون معنا، وهناك سيكون بإمكاننا اختيار نوع القماش بذوقينا لا بأذواقهن مشيرةً إلى أنَّ زوجة القائمقام اشترت قماشاً نسائياً حديثاً من نوع "كريشة" إنكليزي الصنع قائلة أنّه من أفضل ما معروض في السوق.

خرجنا على إيقاعِ هواءٍ يسرقُ حفنةً من بردِ الفرات، نسير إلى جانبه. ثمة صبية يرمون بأجسامهم الصغيرة في الماء من تعلية بشكل لسان حجري عملوه بتصفيف حجر فوق آخر. يغوصون ويعومون، ثم يغوصون ويعومون فيما الجسر الخشبي الرابط جانبي المدينة مُستلقٍ على ماء النهر. كان الماء قد انخفض قليلاً قبل أيام بعد مد دافق هدد الضفتين وأوشك على افتضاضه لكنَّ هديراً ما زال يطلقه. أعربت أمي عن خشيتها عندما غدونا في منتصف الجسر إذْ بدا مثل قشّة طافية. " فقط ثبّتي عينيك في وسط الدرب.

– لا تنظري إلى جريان الماء وألا ستشعرين بالدوار ". كان هذا اقتراح أم وفيق لأمّي الخائفة.

عبورنا بما شابهُ من خوف جعلنا نشعر أن أرض الصوب الكبير أبعدت عنّا خطر انبثق في مخيلتنا أساسه الغرق والرحيل مع اندفاع الماء الصاخب. استقبلتنا بأذرعها الرؤومة فأدخلتنا في فم السوق المسقَّف. الناس في حركة تسوّق خفيفة والمحلات فاتحة أفواهها بانتظار مَن يرغب في الشراء. مررنا قريباً من مدخل سوق الصفارين الفرعي على يميننا فأرسلت بنظري إلى دكاكينه وتمنيت دخوله للاطلاع على ما يصنعه أصحابه وكيف يصنعون! لكنَّ تلك أمنية لا غير، لأنّ دخولنا يُعد من نافلة الفضول غير المقبول؛ لعلَّ أقله تساؤل مَن يشاهدوننا: ما الذي يفعلنه نساء وبنات العصملّي! يسُحنَّ ويتجولنَ بلا حسيبٍ أو رقيب؟..

لم يكن اليهودي داوود زلخا مَن أشارت عليه زوجة القائمقام كبزّاز يبيع الـ " كريشة " هو الذي وجدنا عنده قماشنا المطلوب؛ فقد اعتذر بأن ما لديه من هذا النوع قد بيعَ وأنّ لديه أنواع أخرى من بضاعة جديدة شرع ينشرها على امتداد تقاطع خشبي يفصله عن الزبائن محاولاً استمالتنا وإغرائنا بالشراء ، وحين عجز عن إيقاعنا في حبائل دهائه التعاملي أشار إلى بزّاز يقابله لديه ما جئنا لأجله.

تحركنا مستديرين نحو البزّاز الآخر فواجهتنا أقمشة تتدلى في عمق محلٍ آخر رُصفت أطوال القماش المتفاوتة الأنواع طَولاً فوق طَول. ومن بين ما تطلعنا شاهدنا القماش المراد.

ما أن وقفنا عندَ واجهة المحل حتى استقبلنا شابٌّ يقاربني العمر ينثر كلمات الترحيب ويرسم ابتسامة حييّة نقية صافية تقطر براءةً. شاب ذو وجهٍ حنطي. حين يتحرك تعكس حركته خفَّةَ مَن يجيد مهنته؛ وإذ يرد على سؤال فإنَّ ردّه يأتي راسماً دماثة خلق وحُسن قول. هتفَ الذي بين أضلعي: " هذا

مخلوق جاء من سحابات الحلم لينتصب هنا متقمصاً بائع قماش من أجل أن ترمينَ له ابتسامة تفوح بشذا الإعجاب، وتبوح بكلمات الانجذاب!..

فرش ثلاثة ألوان من النوع الذي طلبناه وتركنا نتحاور دون أن يتدخل من أجل تصريف بضاعته. استقر رأينُا راح المقص بين أصابعه يجري بيسر. اخترت لوناً تطغي عليه صبغة السماء واعتبرته يلائم بشرتي كوني بيضاء؛ وقد أشرقت نظراته وابتهجت ملامحه حين أعلنتُ بغيتي واخترتُ اللون السمائي. خيِّل لي أنّه يقول " أنا معجب به أيضاً "، وأنّه يلائمني وسأغدو به جميلةً كما يريد فيما اختارت شريفة لوناً قهوياً بناء على نصيحة أمها.. لفت انتباهي تدخل الأم في ذوق ابنتها على عكس أمّي التي اعتادت تَركي اختار كما أشاء.))

رشقةُ رصاصٍ لعلعَت فجأة في الشارع فوجد أبو وهيبة وعائلته أنفسهم محاصرين في بيتٍ فارغٍ خلا من الأثاث، تذكّر نصيحة الجندرمة بانَّ الوقت ليس بصالحهم. هرعَ يفتح الباب وسط رعب مشيع صار حقيقة ودق ناقوس الخطر الثقيل فشبّه لهم بأنهم سيموتون من الخوف وليس من رصاص سينفذ إلى البيت ويقضي عليهم. أبصر أبو وهيبة جندرمة متستِّراً خلف جذع شجرة نخيل. يطلق النار صوب مدخل الشارع الممتد من الجسر. صرخ:

– ماذا يحدث؟

– سرّاق قدموا للإغارة على البيوت. لماذا انتم هنا. ألم تذهبوا إلى بيت القائمقام.

في أول لحظة متاحة اندفعت العائلة المحاصرة. في بيت القائمقام وجدوا عائلات الموظفين جميعاً تجمّعوا، وقد غزاهم الرعب، فإذا النساء منهم يبكين والأطفال يصرخون، سرعان ما شاركهم أولاد أبي وهيبة الثلاث الصراخ فانهمرت دموعهم وهم يبصرون غيرهم ابتلت قمصانهم بالدموع وبدت وجوههم مترية لم يمسسها ماء؛ ذلك أن أمهاتهم لم يجدنَ فرصة استقرار

ليغسلنهم أو يطعمنهم فطور الصباح. شعر الجميع بمحنةٍ قاهرة ساقها القدر وتركهم أمام أناس كانوا بالأمس يعرضون مودتهم ويقدّمونَ خدماتهم وها هم يغيرون الآن ويطلقون الرصاص كأنَّهم أعداء بين ليلةٍ وضحاها.

لعلع الرصاص طوال الصباح، حتى الظهيرة!!

يغير المهاجمون للاستحواذ على ممتلكات الحكومة فيردهم عناصر الجندرمة والدرك بما يمتلكون من أسلحة وعتاد.

وهناك من بعيد؛ من جهة الجنوب كانت أصوات مدفعية الإنكليز تسمع فتشير إلى اقترابهم الفعلي.

(٤)

كان جعفر بعمر السبع عشرة عاماً عندما حدثَ ذلك السبي، وحصلَ ذلك الافتراق؛ وها هو الآن بعمر الستين يقف على مرمى بصر من مقر (اتحاد الشعب)، يشهد الانتهاك البشري لآراء أناس آمنوا بفكرةٍ ظنّوها المخلِّص لعذابات البشرية وحلموا الحلم الجميل للوصول إلى عالم تسوده العدالة وتكافؤ الفرص وسط واقع إنساني اخرق.

المحرضون على انتهاك المقر يقفون الآن قريباً منه. من عيونهم تتدفَّق رسائل الابتهاج لرؤية صبيةً وفتيان يحملون ما يستطيعون حمله كتعبير عن غزو تُقرُّه أعرافُ البداوة الكامنة في الطوايا، وتشجع عليه نوازعُ الموتورين التائقين للانتقام.

كان المقرُّ يحتل بناءً متواضعاً وسط سوق المدينة، بين عدد من محلات العطارة والمقاهي والمطاعم وقد احتفل قبل أشهر بعيد تأسيسه فنشر الأعلام الوطنية، ورفع الشعارات الأممية، مُبشِّراً الناس بعالمٍ أفضل تتحققُّ ابتداءاته من ولوجِ الباب العريض للمقر المفضي إلى ممر معتم نوعاً ما يقود إلى فناء أكثر عتمة، لا تلجُّهُ غير أشرطة ضوء تسمح بها نافذتان صغيرتان مطلتان

على زقاق خلفي يضجُّ بصراخ الصغار وعراك العائلات الغارقة في وحلِ الفقر؛ إضافة إلى ثلاثةِ مصابيح صفر تتدلى من سقف عُمل من "الميط" و"البواري" لا تبشِّر بالنور المشرق، المفترَض. إنه عالم جديد أبصر فيه الكثير من الشباب في مدينة لا أمل لها إلا في غيوم تأتي سائحة وسط سماء وحشتها، طائرة لتقول لهم هيا اعتلوني فأريكم ما لا تستطيع مخيلتكم الضئيلة رسمها على جدران التحقق.. عالم التحليق والتمني.. عالم الأصابع الباحثة عن آلةٍ يعزفون على أوتارها نغمتهم التائقة لنشيد النهار الرائق.. عالم يسمعون عنه أن أناسه تعيش الحرية والانعتاق بلا فقر ولا دجل.. النساء تصاحب الرجال، والرجال لا يسيرون إلا بمصاحبة النساء.. عالم رجاله يعشقون العمل كعشقهم للنساء، ونساؤه كالفراشات تهفهف في حقل عالم الرجال.. الاثنان يعملان سوياً في المعامل والحقول.. مرّةً شاهد الشباب المنضمّون لاتحاد الشعب فيلماً سوفيتياً عرض سيلاً من نساء أوزبكستان البلد الإسلامي الذي صار ضمن الاتحاد السوفيتي يخلعن العباءات والمخامر من على رؤوسهنَّ ويرمينها في نار أشعلت لغرض إعلان أن زمن الحجاب المقيد لحركة أجسادهن قد ولّى، وأن شمس الحرية الشيوعية قادمة لتشيع بنورها على مفازات العتمة وأخاديد الجهل. شاهد المتطلعون الشباب (وقد تفجرت في أعماقهم هزّة تدين واقعهم المشابه لواقع المجتمع الاوزبكي) عدداً من الفتيات ممّن أعلنَّ إشهار حريتهن ذبيحات أو طُعنَّ بخناجر قاتلة بكل وحشية من قبل أهليهن الرافضين لفعلٍ يترجمونه خروجاً عن الدين وتجنٍّ على أعراف توارثوها عن الأجداد.. يصاحب عرض الفيلم تعليقٌ باللغة العربية ولكن بلسان روسي مستشرق، يدين تصرفات المتخلفين، ويدعو إلى رفض أعرافهم باعتبارها سلوكيات همجية عفا عليها الزمن. وما الزمن الجديد والقادم إلا زمن الاشتراكية حيث الجميع يعملون وينتجون ويتحركون ويرقصون ويتعانقون ويتحابون تحت سماء واحدة لا وجود غيرها،، تلكم هي

سماء الشيوعية.. سماء الأمل.. سماء الشباب وتجديد الحياة.

أما جعفر فكانت وهيبة أملَه الوهاج، تمنّى نيله وحيازته. يراها عامل تغيير حياةٍ ابتغاها مختلفةً عن أقرانه، وهو روحٌ ترفرف للطيران خارج واقع ينشدُّ بأوتادِ الأعراف إلى ارضٍ كل ما عليها يُطفيء رغبة العيش النبيل. فحين تنتابك بواعث حياة تأتي من عالم الحلم الجميل لا بدَّ أن تفرد ذراعيك شوقاً لتلقّي ملائكة بيضاء لها أجنحة ريشية ناعمة الملمس تعلن ترحيبها بك ودعوتها لأن تتقبّل رفعك إلى تخوم جنة هيئت لتكون سكنك الدائم ومقرك المبتغى.. ملائكة تتحدث بلغتك فتسليك لحظات رفعك، وتغني لك وأنت عائم على محفات الجذل أغنيات تترى، لا تنتهي: أغنية بلحن أمومي منساب فيما أنت طفل رضيع تنام في مهد مخملي.. أغنية لها إيقاعٌ راقص ترتفع على تمايله حمّى فرحك لأنك تخطو فتسقط، تنهض فتقع؛ بواكير مشي ستقول لك الملائكة المتخصصة بهذه المهمة " لقد أصبحتَ صبيّاً! " بينما أغنيةٌ تغذيك بشهد النهوض ارتفاعاً فتجد نفسك فتى شاباً؛ قوام يتعالى طولاً. ينبت لك شاربان أعلى الفم، وتبزغ ابتداءات لحية في الذقن. عندها تجد مسارك مفتوحاً والدرب تحفّه حشود ورود ثملة بالعطر والألوان، ينتهي بفتاة تحمل صفات الجمال ورهافة الحس وعسل الكلام.

رحلة القلب السابحة في هُلام الغيب ما تخيَّل جعفر استحالتها واقعاً ساعة اقتحمت السوقَ أربعةُ نسوةٍ: امرأتان بعمر الأربعين وفتاتان تقاربنه السنين مؤكَّداً هما ابنتاهما. كان السوق يعيشُ حالةَ الركود والناس أنفارٌ قليلون بفعل عودة الريفيين الذين عادةً ما يأتون صباحاً فيضج السوق بالحركة والنشاط، حتى إذا تجاوز النهار انتصافه وزادت عليه ساعتان خلا، فلا تدبُّ الحركةُ من قبل أهل المدينة إلا بعد الساعة الخامسة وهي الفسحة الزمنية التي شاهد فيها جعفر الأربعة يتوجهنَّ لدكان البزاز داوود اليهودي. يقفنَ قليلاً ويدخلنَ الحديث القصير ثم يستدرنَ فيتوجهنَ نحوه. يقفنَ إزاءه وقد

رفعنَّ البوشيّات فاندلق ألق وجوههن وبان الجمال والبهاء والإشراق ووجد جعفر نفسه يتلقى تحيتهنَّ المائية العذبة.

لم تكن تحيةً تلك التي فاهت بها المرأتان الكبيرتان كلاماً والفتاتان ابتسامةً بل كانت نغمة جنائنية ستبثُّ البهجةَ والسرور والتحليق البهي في سماء جعفر العاطفية لأشهرٍ معدودات، ثم ستصبح نغمة حزنٍ وكمدٍ وأسى لأعوام طوال.. سألنه عن قماشٍ إنكليزي جديد من نوع الـ "كريشة " وصلهم حديثاً، استورده تجّار البصرة من الهند. راح جعفر يعرض عليهنَّ ثلاثةَ ألوان متفاوتة لنوعٍ واحد. انشغلت ثلاث منهنَّ بالنقاش والتحاور عن نوعيته وما هو اللون الذي يناسب هذه ولا يناسب تلك فيما الرابعة التي التفتت إليها أمُّها كما يبدو من تشابه الملامح لتسألها عن ذوقها، قائلة: " وأنتِ يا وهيبة؛ مَن مِن هذه الألوان تفضلين؟ ".. اسمها إذاً وهيبة هذه النخلة السامقة الرشيقة.. وهيبة هذه المستديرة الوجه بعينين وسيعتين سرقت حدقتاها لون التمر وتركت وجهِها يختطف بياض "القيمر" وخديها يحتويان حمرةَ التفاح وشفتيها تجمعان لونَ وردِ الرمّان!.. وهيبة مَن كانَ أصدقاؤه يشاهدونها في صيف العام الفائت أيام يعبرون الفرات سباحةً من "شِريعة حمّادي" إلى القشلة للارتماء على شريط الرمل الساخن أو أداء حركات رياضية وسط عدد كبير من فتية يرون في هذا الشريط ساحةَ مراحٍ وتسالي... أوه! نعم! نعم! كنا نشاهدُها مع صاحبةٍ لها أو أكثر بعيداً وهنَّ يتخذنَ مكاناً للتطلع إلى النهر ويبعثنَ بانظارِهنَّ باتجاه الجانب الكبير من المدينة. يحدث أحيانا أن يشاهدنَ مثلما نشاهد أمهاتنا يأتين لملء جرار الماء، وبحجّة الماء يشرعن في إطلاق نداء الترجي للخضر احد أولياء الله الذي غاب في ماء النهر لحين يؤذَن له بالعودة ليشيع العدل على عموم الأرض؛ فيشعلن الشموع ويدفعنَ بها بعدما يثبتنها على ألواح خشبية فتأخذ طريقَها مع مجرى النهر. ولقد لفتَ انتباهنا أنَّ بنات ونساء العصملي شرعنّ يقلدنَ أمهاتنا في عمل مواكب شمعية

يدفعنها إلى الماء فتحاكي تلك التي تتحدر في الضفة المقابلة من النهر فيأخذها التيار جنوباً.

قرأ في وجهِها المغموس بحليبٍ أبيض ناصع ابتسامةً وسيعة، ورأى في عينيها السارقتين لعيني مها بوحاً غريباً كأنَّها تبغي بثَّ شيء يشبه الإعجاب أو التمنّي؛ كأنها تروم قولَ كلامٍ من شفتين تخضّبهما حمرةُ وردِ الرمّان تكبّله سلاسلُ الموقف غير المحسوب والشَّده الذي طفا كغيمة تحملُ ماءَ الدهشةِ.. هل يرى هذا بحق، أم أنَّ مخيلته استثيرت الآن بحضور لم يتوقعه ومشهد هو من عِداد الحلم؟.. هل هي التي تُريد بعثَ رسالةَ الإعجاب له ولا تدري أنَّ رسائلَه كثيرةٌ ومُتراكمة لبثّها إليها؟.. نعم! ها هيَ؛ التي كنتُ أقفُ عن بُعدٍ بسروال السباحةِ لأطالعها فتتأملني من تلك المسافة التي تقدَّر بفسحةٍ رملية وممر يقود الخطى نحو النهر وشريط عشبي نما طبيعياً بفعل حنان النهر، ثم تنشغل عني في حركةِ الأمواج المنسابة أو الدخول في حديث مع رفيقات يجالسنها! ها هي مَن كنتُ أنظرُ إليها على أنّها نجمٌ باهر ينأى في سماوات الله وليس من حقّي النظر إليه إلا عن بعدٍ يتخطى ملايين الأمتار فيما الآن تتقلّه الشساعةِ إلى أشبارٍ ليس غير فأستطيعُ شمَّ أنفاسها، وأقرأ رقصَ شفتيها، وأغرقُ في رقراقِ عينيها العاجَّتين بمياه الابتهاج!

ذلك الوداع الموشّى بابتسامةِ انشراح، وتلك الخطى الرافلة على يناعة خميلة القلب الذي أفرد ذراعيه للاستقبال، وتلكم هجمات السرور على ما تبقى من ساعات يومه وهي تبتعد مع أمّها وابنة الجيران وأمها؛ كل ذلك رفع جعفر إلى مصافي الحلمِ الجميل، مُلقياً به في غابة بهجة ليس لها حدود، ونور بهي ينفتح على آفاقٍ من أنوار ثريا باهرة كأنَّه في جنَّة الفردوس؛ تلك التي يعدُ بها شيخ جامع حسّون كلما دعا الجلاس إلى الالتزام بتعاليم الدين والأخذ بقول الله.

حين غيَّبها عمقُ السوق استحال كل ما أمامه تأثيثاتٍ يومية تشغلُ

المكان: دكاكين تعرض محتوياتها، ومارّة يتفحصون، وزمن يحبو بطيئاً حتى لحظات مقدم الغروب قالت له المخيلةُ: هيّا! ركض يستعيد حضورَها الربيعي، وخطوَها الغزالي، ووجهَها الزليخي، ونظراتِها الملائكية، ووداعَها الذي يشبه انفضاض فمٍ من لثمِ خدٍّ مشمشي. ولم ينم تلك الليلة إلا على بهاء ابتسامة ذلك الوجه والفم الذي نده به أن تعالَ إلى فيوضِ العشق. ضع كفَّك بكفّي لننطلق إلى جنائن تنأى عن الأرض، هناك في رحاب الله وهنائه المستديم.

من يومها لم يعُد وجوده في السوق إلا انتظاراً لإطلالة طلعتها. ولم يترك ذلك الوقوف في عالم الحدث العابر. سأل أباه عن موظفي الحكومة وصولاً لمعلومةٍ تهديه إليها. وكان الردُّ تفصيلياً. فعرف أن هناك القائمقام على رأس الهرم الحكومي ومعه مأمور الطابو ومدير البلدية ومفتي القضاء ومدير المال ومدير البريد والبرق وكلهم يتخذون من السراي المطل على النهر في الصوب الكبير مقراً لعملهم. كما عرف أنهم آتون من مدن مختلفة. منهم مَن قَدِم من أقصى شمال العراق، ومنهم مَن جاء مِن بغداد وأطرافِها:

– أقربَهم لمدينتنا هو مديرُ البلدية بهجت الحسن. جاءنا من "المسيَّب". آنه كما يُقال سرّاً من واجهتنا، وهذا أمر غريب.

– ما الغرابة، يا أبي؟

– الترك لا يعينون موظفاً ينتمي لمذهبنا الشيعي؛ بل من السنّةِ فقط.

– كيف؟

– نحن شيعةُ العراق ابتلينا بتهمةِ انتمائنا لشيعة إيران. وهذه البلوى جاءتنا من العهد الصفوي. الصفويون بسطَوا حكمَهم على إيران، فحُسِبنا طرفاً ينتمي إليه. حُرمنا من التعليم والوظائف والوجاهة؛ ولولا أنني ألحقتُكَ عند الملا احمد لما عرفت القراءةَ والكتابة، ولأصبحتَ من العميان الضاربين في براري الجهل فلا يعرفون ماذا يجري في هذا العالم.

لعنَ الله الأتراك.. لعن الله الصفويين. تمتم جعفر في سره.

لم يكن يهمّه إن كان هو شيعياً أو هي سنية. ولم يكن يعرف ما الذي تعنيه مفردة شيعي وكلمة سني. هو يعرف انه ووهيبة وأهلهما جميعاً مسلمون. لا يرى علامةً تميزها عنه أو تفرقه عنها سوى أنه كان يعيش في زقاق ضيقٍ حسير ترابي الأرض وبيوت لا تتعدى مساحتها الثلاثين متراً مربعاً بغرف حسيرة تشبه أقنان الدجاج، مشيدةً بطابوق معمول من طين مفخور بصورةٍ سيئة، ورائحة أزبال وزنوخة مقززة منبعثة من مياه ملوثة تلفظها مجاري بيوت تمر بهيئة مجرى وسط الزقاق فيما هي وبقية عائلات الموظفين تسكن بيتاً فارهاً يضم غرفاً وسيعة بحديقةٍ تترجم زهو الطبيعة وتدعو للانتماء إلى عالمها البهيج.

حين استفهم الأب عن عبد الكريم شوكت قال عنه إنّه من بُهرز وهو أحدث موظف قدم إلى المدينة، وإنّ لديه زوجة عطوفة يقال أنها تهِبُ الفقراءَ الملابس، وتمنح المعوزات من النساء العطايا. كلماته أفعمت قلب جعفر بالزهو، وقرَّبت غيوم الوله في سماء شوقه لابنته وهيبة. ولم تدنُ رياح الشكِّ من رأس الأب؛ فقد مرَّ السؤال والجواب في دروب البراءة.

صار يبكِّر في إغلاقِ المحل وقتَ العصر وسطَ عتب أبيه في أنَّ وقتاً فائضاً يمكن استغلاله لعلَّ رزقاً خفيّاً يأتي . يترك السوقَ متجها صوب النهر. فلا يعير انتباهاً لسوق الحدادين على يمينه، ولا لسوق الصفارين على شماله. وحين يدنو من باب دائرة البريد والبرق يشعر بروحٍ خفي يدنو منه. ذلك أن أبا وهيبة كثيراً ما خرج أو دخل من هذا الباب حين يقفل عائداً من السوق وقاصداً مدخل السراي الرئيس.

مِن السياج الحجري الذي يطلُّ على النهر طفق جعفر يتابع حضورها. يبعثُ بنظراته عابرةً الفرات العريض إلى الشريط الرملي، باحثةً عنّها ومتأملةً جلوسها مع قريناتٍ لها كان يبصرهنَّ يجلسنَ عند شجيرات كالبتوس جيء

بها يوماً لتطرد البعوض كما قيل. لم يكن أحدٌ بقادرٍ على الدنو منهنَّ. (أولئك بنات " العصملي " النائيات عن عالمنا الغاطس في وحل فقر وتخلّف، واقتتال، وخرافات لا تنفك تتناسل وسط تصديق جماعي فيما الصوت المعارض يذهب في رياح الإهمال وأعاصير الاستهزاء.)

رآها أكثر من مرّةٍ عن بُعد، ولا يدري إن كانت رأته وعرفت سرَّ حضوره.. يتلقَّف درجات السلم الحجري هبوطاً إلى جرف النهر اختزالاً للمسافةِ. يرمي حجراً إلى الماء أو يغرف بحركةٍ خاطفة حفنةَ ماء لتصطاد من صغار سمك لاهث يتراقص قريباً من قدميه المحاذيتين للماء.

في واحدة من لحظات وقت عصر احد الأيام وجد جعفر أن لا جدوى من محاولاته السابقة. تملكته شجاعةَ فجأةً فدفعته إلى اتخاذ طريقه قُدماً مخلفاً السوق وراءه. خشب الجسر يتلقى ضربات نعليه الجلديين. أمامه جلبت المصادفة جبوّري وشلال يخطوان متعثرين بمظهريهما المثيرين للتفكّه. عقالاهما متهدلان من رأسيهما، وعباءتاهما تتدلى من كتفيهما فتكنس نهايتاهما أرضية الجسر . أنهما يتوجهان مبكِّرين صوب التياترو. التياترو لا يفتح أبوابه قبل أذان المغرب. لا بدَّ أنهما يحلمان بصوت الغناء العذب ستطلقه وفيّة أو حُسن خدمة تؤديها نجية. ولا شكَّ أن بهية ستتكدّر لحضورهما؛ فهي الأكثر غضباً حينما يتصرف احدهما بما يسيء إليها. كثيراً ما هددتهما بالشكوى لدى القائمقام كاشفةً أنهما يرشيان رجال الجندرمة ليغضوا النظر على سوء أفعالهما لذا تراهما لا يخشيان نتائج فعلهما، ولا يأبهان لتضرع زوجتيهما في أن يكونا كالرجال الملتزمين إكراماً لأبناءٍ صاروا على أعتاب المراهقة، ويُفتَرَض بالأب أن يكون لهم أنموذجَ يُحتذى.

خشي أن يستديرا فيلمحانه ويتسلل إليهما شكَّ توجُّهه مثلهما إلى التياترو. هذا يعني غضب أبيه عليه ساعة ينقلان إليه بحسن نية أو بقصد إيذاء خبر عبوره إلى الصوب الصغير ودخوله التياترو ووقوعه في حبائل واحدة من

غواياته. لذلك ما أن انتهى من عبور الجسر ووضع قدمه على أديم الدرب الذي ينحرف يساراً حتى عام في طراوة غيمة من الطمأنينة والارتياح، فلم يعد يراهما. كانا استمرا في سيرهما إلى أمام (هل كانا حقّاً يقصدان التياترو كما هي عادتهما أم سيواصلان السير، فيقفان بجوار التوراة اليهودي، ويتركان لعيونهما النظر والتطلّع إلى داخل المبنى بفضولٍ سيتوجّه إليهما الاتهام في ما بعد لمقتل يوسف بلبول اليهودي في بيته فجراً وافتراض أنهما كانا قبل يوم يتفرسان في عمق التوراة، ومؤكداً كانا يخططان لذلك الفعل المشين؟)

لم تسرقه رغبةُ النظر إلى البيوت المتهالكة في الصوب الكبير، تلك الممتدة بمحاذاة النهر فلا يبان فيها منتصباً سوى جامع حسون، بل الذي خطفه هو الاندفاع الجامح لتأمل بيوت تتراصف على جانبِيه ولا تبعد غير أمتار معدودات، هي عرض الشارع. بيوت لأناسٍ سكنوا هنا بناء على نداء الموظفين لأقاربهم أن يحضروا لهناءة العيش وبساطة الناس، ويسر الحصول على بيوتٍ أو مساحات من ارض يمكن تشييد البيوت الفخمة والمتألقة عليها. بيوتٌ صارت بمرور الأيام تتعالى عارضة سطوتها على الأنظار مؤجِّجة الإعجاب لدى الناظر، وحدائق في مقدمتها أعلنت عن تناسقها دافعةً إيّاه إلى سؤال " لماذا لا يوجد في صوبنا مثل هذه الحدائق، ومن أين يأتون بهذه الأنواع من الورود في الوقت الذي تفتقد إليه حدائق صوبنا؟

– الله يعطيك العافية، يا ابني!

سرقه صوت متكسِّر من فضاءِ سؤالِه الحائر فأعاده إلى حيث أبصر امرأةً عجوز يكشفها باب أحد هذه البيوت الملغَّزة.

التفتَ محاولاً التأكد إلى أين يتوجّه الرجاء.

– أنتَ!.. أنتَ يا ابني.. تعالَ!

كانَ وجهُ العجوزِ ابيض، بملامحٍ عفا عنها الجمال وترك محلَها تزاحمات

غضون.

– خذ هذه الصحون، يا ولدي. واطرق باب بيت أبي بهجت وسلمها إلى أم بهجت. قل لها أم ناطق تهديك السلام والشكر.

أيرفض مستعيناً بالاعتذار اللبِق أم ينهرها بقوله أنا لستُ خادماً حتى أنقل صحوناً وأوصل تحيات؟! أيقدم اعتذاراً بجهله أين يكون البيت؟ هل يدعي أنَّ طريقه لن يكون قريباً من البيت الذي يقصده وأنه متوجه صوب بساتين "الخزاعل" بمحاذاة النهر ولن ينعطف يميناً صوب بيوت الموظفين؟!

الرجاء الكيّس والوجه السمح، والملامح الوديعة، هي ما بددت انفعالاتٍ غضب شرعت تتوالد في الروح وجعلته يتلقى الصحون؛ قائلاً بمسحة الاحترام: حاضر.

وكلمة "حاضر" أثارت في نفسه رغوةَ نشوةٍ، وخلقت حالة ارتياح، ذلك أنَّ دخوله شارع بيت القائمقام سيكون بلا خشية..(فلكَ عذرُك؛ وبيدك المستمسكات).

ما أن وضع أولى الخطوات في الشارع وبعث النظر إلى البيوت وصار يقيس مسافة تكون بها قدمه على مقربة من باب وهيبة وحفّز العين لاكتشاف بيت أبي بهجت وأرسته عليه حتى انبثقت فكرة توالدت من كهف الدهاء. قال العقل المحتدم: نفّذ ولا تتردد.

سار حاملاً الصحون، وبدلاً من أن يقف عند عتبة بيت أبي بهجت ويطرق الباب واصل السير حتى أدرك باب عبد الكريم شوكت فتوقف. طرقه!.. صبي في الخامسة هو الذي فتح الباب، وقال: ماذا تريد؟ وصوت فتاة هو الذي تناهى من داخل البيت يستفهم: مَن؟!.. مَن تكلِّم يا نامق؟

التي أظهرها باب الصالة وأخرجها إلى الفناء الغارق في خثرة رطيبة كانت وهيبة!.. الوجه الذي بهتَ للحظة وراح يحدّق في ما يرى كان وجه وهيبه!.. الشفتان اللتان انفرجتا من البَهَت والذهول كانتا شفتا وهيبة!.. أما

القلب الذي طفق يخفق كعصفور ويطرق الضلوع فقلبِ جعفر!!.. والكفّان اللتان غدتا ترتعشان وتكادان تُسقِطان الصحون فكفّا جعفر.. والذي قال " مسّاكم الله بالخير " فمه. والذي لم يرد وبقي مترددّاً كان فم وهيبة.. أمّا التي ظهرت من خلف وهيبة وشرعت تتملاّه باهتمام فأمّ وهيبة؛ وهي التي بادرته بسؤال:

– ماذا تريد، يا ولدي؟

– ظننتُ أن هذا بيت أبي بهجت.. كنتُ في طريقي عندما كلّفتني العجوز التي اسمها أم ناطق بإيصالها إليهم. يبدو أني أخطأت البيت فعذراً.

– لا عليك.. سنتولى نحن إيصالها.. هاتها.

استدارت، متوجهةً إلى وهيبة:

– خذي منه الصحون، يا ابنتي.

تقدمت وهيبة لتتسلمها. وفي حركةِ التسلّم والتسليم كانت اكف الاثنين تتماس، فيحس جعفر بحرارةِ أصابعها وتحس هي بارتعاش أصابعه. اصطاد ابتسامةً خفية من وسط ألق العينين، وانفرجت الشفتان فقطف ورود معرفتها به، وسؤال أمها:

– أليس أنتَ القمّاش الذي ابتعنا منه قماش الكريشة؟

– نعم، صحيح!

كان السؤال بمثابة رصيد فرح قدّم لجعفر سرور أنها الأخرى لم تجهله، وكان جوابه عصفورَ جذل جابَ طرقات الروح بأجنحةٍ من هناء.

تلك الليلة كانت انعطافةٌ كبيرة ومؤثرة في مسار حياته العاطفية. أدرك عندها أنه مقبول من قبل وهيبة؛ ونظرات أمّها لم تكن بالمتعالية. تلك النظرات زرعت في أعماق جعفر شعورَ أنَّ هؤلاء الناس الذين لهم الحظوة الكبرى لدى الولاة العثمانيين لا يختلفون عن أهل المدينة، وأنَّ ملابس عصرية يرتدونها كأفنديّة: سترة وبنطلون وكشيدة أو فينة هي ما يميزهم عن

الناس هنا.. الناس هنا يلبسون الصاية والعباءة ويعتمرون الكوفية والعِقال. نساؤهم يلبسن العباءات الملساء الناعمة ويضعن على وجوههنَّ " بوشيّة" شفافّة تحجب عن الناظر مشاهدة ملامح الوجه وقسماته بينما نساء المدينة: أمهات وأخوات وبنات يتسترن بعباءات صوفية خشنة ويخفينَ وجوههن بطرفِ العباءة عن المارة في الطرقات أو حين يقدم إليهم زائر فلا تظهر سوى عين واحدة ينظرنَ بها. أما حُسن الخلق والدماثة والوداعة فوجدها جعفر صفات يتحلى بها الجانبان؛ وما الاختلاف إلا في كونهم متعلمين يحسنون مهارات القراءة والكتابة وإدارة الشؤون الحكومية في حين يجهل اغلب سكان المدينة هذه المهارات. (يرمي جعفر تبعات ذلك على فتاوى يصدرُها رجال دين متزمتين تدفع إلى كرهٍ العثمانيين الذين لا يجعلون علياً وليّاً عليهم ووجوب عدم التعلم عند مؤسسات الدولة كونها مؤسسات غير دينية ما ولّد أجيالاً تخوض في عَمى الجهل وتتعثر في مهاوي الظلام، يضاف لها ما لدى العثمانيين من بغض يقذفونه على الناس لأنهم شيعة موالون لإيران.)

في اليوم التالي صار جعفر يدخل حواراً مع النفس في أن يكون أفنديّاً فيصبح هندامه القادم القميص والسترة والبنطلون، ومعهما يعتمر الفينة ويلبس الحذاء الجلدي اللامع متخلياً عن العقال والكوفية والصاية والنعال ؟.. (ولكن هل أستطيع ذلك؟ ألا يغدو التغيير مثار ضحك وسخرية وازدراء لدى الناس؟.. أليس ترك تقاليد وأعراف الآباء والأجداد من نافلة الإساءة إليهم؟)..

طرح الأمر على أبيه فجاء الرد: "من يرتدي ملابس العصملية لا بد أن يكون منهم!.. ومن يبغي التمثّل بهم لا بدَّ أن يحصد ردود فعل المستهجنين الرافضين له! ". واستفهم رأيَ أمّه فكان جوابها: "أنتَ ما زلتَ شاباً في مقتبل العمر ولا أظنك تتحمّل نظرات لا تتقبل مثل هكذا مظهر يحصل من قبل أبنائها الصغار.. كيف ستصرف الأيام حين تقشل وأنتَ بينهم؟"

كلماتهم الودودة المُدافة بالعطف والتمنّي له بالصالح أثَّرت، ما دفعَه لمراجعة العزم، والتريث قليلاً حتى يرسو على قرارٍ نهائي. فأمّا أن يُبقي هندامه ويساير الناس في طراز هندامهم أو أن يصرَّ على التغيير فيتخلّى عن التقليد متقبِلاً التجديد.

صار يستيقظ صباحاً فيرتدي الصاية والعقال والكوفية ويقف أمام المرآة فيشاهد شاباً لا تحلو له هذه الملابس فلماذا لا يجرب لبس الملابس الأخرى.(فلتجرب خلع هذه الملابس ولترتدي الملابس الحضرية " قال الذي في المرآة، مضيفاً بعزم الشجعان: "لا تتردد.. نفِّذ ما انبثق في رأسِك، وتجاوز عقدةَ الخشية من الآخرين!"). في خضم التحاور الداخلي وتدارس الموقف على أرضية الموضوعية وجد جعفر في كلامه تطرفاً وإن كان على حقٍّ؛ فآثر اتخاذ لحظات قرارَ تطبيق الفكرة خطوةً فخطوة.

صباح اليوم التالي خرج مرتدياً الصاية والكوفية ومتخلياً عن العقال. قطع الأزقة ودخل السوق. ألقى التحية على جيرانه أصحاب الدكاكين وجاءه الرد ترحيباً. فتح الدكان ودخل في غمار العمل ولم يجد ما يشير إلى أنَّ أحداً انتبه لفعله. وفي المحل خلع الكوفية وبقي حاسر الرأس يتعامل مع مشترين لم يجدوا ما يشير لتغير مظهره وتجاوزه على عرفٍ سائد.

صرف بضعةَ أيامٍ يعتمد هكذا مظهر. وفي ظهيرة يوم خفتت فيها حركةُ المتبضعين وجد نفسه يخطو ويقف عند محل داود زلخا يسأله عن ثمن ذلك القميص، وأيضاً البنطلون.. تلك الفينة، وذلك الحذاء. أبتاع ما يتلائم وذوقه، ممنّياً النفس بالمظهر الذي يُرضي وهيبة وربما يبهرها.

وكان الانبهارُ المسبوقُ بالدهشةِ قد حدث في عيني ألام أولاً وهي تبصره يترجّل في حوش الدار أفندياً بكامل المظهر. يضرب بقدمه على بلاطات الفخار الأرضية كما لو كان موظفاً "عصملياً" يجيد إثارة الإعجاب في عيني الآخرين فيما أبدى أباه ابتهاجه وطفح السرور في عينيه ناسياً كلاماً تحذيريا

قاله عن احتمال توالد نظرة الناس السلبية نحوه، مبدياً أمنية أن يكون يوماً ما أفندياً حقّاً ويعمل لدى الأتراك، فيخاطبه جعفر مضيفاً: "وحتى مع الانكليز إن جاءوا.. لمَ لا، يا أبي؟

(٥)

كم من الأيام مرّت؟!

وكم من عنف اللحظات هدأت وتوارت؟ وكم كان عُظم التراجع والإقدام، أو الإقدام والتراجع قد ذوى شيئاً فأشياءً فوجد جعفر نفسه يدخل واقع حياة يومية تُنسيه مظهره القديم، وترسيه على مرفأ ملبس جديد يعني الحداثة، ويشير إلى التحضّر. لقد تجاوزَ الكثير من عيون أقرانه من سَكنة الزقاق وهي تطفح بأمواج السخرية، وأغلق مسمعيه عن عديدِ التجاوزات تُلقي بها الأفواه الرافضة إمّا غيظاً أو حسداً. وشكر بشيء من الامتنان كلَّ مَن أبدى إعجاباً وأظهر دهشةً لشجاعته في اتخاذ القرار وتنفيذه؛ كما نظر بعين الاعتزاز لأبيه وهو يرد كلمات استهجان الكبار ويصد غضبهم على فعله مثلما رأى أمّه تنثر الزهوَ من عينيها وترى فيه الابن المُرتجى. وكان من مبررات هذا التوجه رضا وهيبة وأمنية جرّ ودّها وإعجابها وحبها إلى منطقة حظّه آملاً أن يستيقظ فينطلق بكل جموحهِ لتحقيق مراداته. بقي أن ينتظر يوماً تقف فيه وهيبة أمامه، أو ينتصب هو قبالتها.. متى يطلُّ الهلالُ السماوي؛ وتتقدم ملائكةُ الجنان؟.. متى يحين الآن الكامن في قلب المجهول، ويغدوُ الغيبُ حاضراً يضمّه إلى دفائن ذكرياته السعيدة؟ هل سيفوه بتراكمات مشاعره ويسكب غيوم الحنين على ساحات تقبُّلِها ورِضاها؟.. هل سيجمعُ شلالات اللؤلؤ وهي تنهال من فرط إعجابها؟.. هل..؟ متى؟ وكيف؟

وكان إن تدفق الوردُ على فناء السوق، وعمّت رائحة القرنفل في الفضاء: تلك اللحظات الخريفية الطريّة، وذلك الألق المتسلل من وديان البهاء..

هتف القلبُ المتقلِّب على لظى الانتظار: ما هذا الهجوم الكاسح لفراشات الجذل؟ ولماذا انبعثت الخفقاتُ بهكذا مباغتة لم تُتح لي تدارك المشهد؟ وكيف تدع لعيني اغتراف إعصار الحضور فيسبب لي كلَّ هذا العَصف من القلقِ المُداف بالشوق، والفرحة المضمَّخة بالارتعاش؟

كانت هي!.. هي! وهيبة.. تتقدم فينفرج السوق وتتّسع مساحته، وتتضاءل الأصوات، ثم تصمت، ويغيب الناس ويتلاشون فلا تبقى إلا هي وأمّها تخطوان على إيقاع الاستقبال العذب، والبهجة المتراغية. توقفاً عند دكان هنا! وتحركاً إلى دكانٍ هناك. ولم يرسيا الرسو الطويل إلا عند عتبة محلّه.. ابتسامتان متشابهتان وتحيتان منغمتان، وموجات ود تقاطرت من الوجهين المتأنقين العذبين. بدتا إزاءه كما لو كانتا بعمرٍ واحد. (إيه جعفر.. هي الآن أمامك بكل ربيعها النضر، وصفاء سمائها الباهرة، وألق عينيها البحريين.. انثر أمامها عظم شوقك، وعميم لهفتك، وافتح مسارب القلب لتتجول فيه)

نثر أمامهما جديدَ ما عنده، وجميل ما نوى عرضه لاحقاً. تركهما يتيهان في تواليات الأسئلة، والتذوّق، والمقارنة، والاختيار وراح يحلّق في بهاء وجه وهيبة، ويعوم في فضاء دواخلها. تخيلها ترمي العباءة وتخلع الخمار من وجهها . حسبها تمد كفّاً للسلام والانطلاق. غاب محلقاً في سماوات السعادات المطلقة.. تركهما يختاران أكثر ممّا يريدان، وشجَّعهما على أخذ ما يمكن أن يبتاعاه بعد أن يضفرا برأي معارفهنَّ من النساء الجارات، نساء الموظفين اللاتي لا بدَّ أنهنَّ يتبادلنَ الآراء والأذواق في الاختيار.. اقترح:

– احملن ما ترغبنَ، وسآتيكم إلى البيت غداً صباحاً لاسترجاع ما تستثنين شراءه.

راق للأم الاقتراح، وتدفقت السعادة والشوق في نظرات وهيبة . اكتشفها تستحسن الفكرة، مصرَّةً على تطبيقها.

تلك الأيام كانت الأخبار تتوارد من جنوبِ البلاد تحكي عن قتال يدورُ على مشارف البصرة بين القوات الانكليزية الغازية، والقوات التركية المدافعة. وكان مَن يجيء مارّاً بالسماوة يشير إلى هولِ ما يمتلكُه الانكليز من أسلحة حديثة: مدافعَ، وطائرات، وبنادق، وتموين سريع، وتنظيم عسكري حاذق، وبناء جبهات قتالية متقنة تنزل بالأتراك فتكاً مطيحةً بهيبة السلطنة عبر الجموع الحاشدة المتهاوية في شباك الأسر ذليلة، خاوية، مهانة، في حين يأتي آخرون يقصّون كيف أن الأتراك صاروا يستعينون بالجِّن فينزِلون بالإنكليز بعثرةً وقتلاً، وليست سوى أيام حتى يُعلن النصر على الكافرين. غير أنّ هذه الأخبار سرعان مَن يأتي ليكذِّبها قائلاً: أن الانكليز تركوا البصرةَ وراءهم بعدما أسقطوها بأقلِّ الخسائر، وأنَّ المجاهدين القادمين من مختلف مدن العراق، الممنّين أنفسهم بالنصر على الأعداء اعتماداً على ارث الأولياء باتوا شَذراً مَذراً أمام صعود المنتصرين.. المنتصرون يتقدّمون باتجاه لواء المنتفك / الناصرية وصولاً إلى بغداد، غايتهم ومبتغاهم.

لم يشاهد جعفر مفردات خشيةٍ على وجه وهيبة وأمّها مما يحدث أو سيحدث ذلك أنَّ الموظفين يرون أنفسهم بعيدين عن ما يحصل أو سيحصل؛ إذ هم أدوات تسيّر أمور الناس لا غير، لكنَّ خوفَهم من احتمال ارتكاب بعض المتهورين من أبناء المدينة ممّن يعتقدون أن كل موظف هو عثماني متناسخ، يمثل الجور والاضطهاد والاستحواذ. كان قائمقام السماوة يدخل الطمأنينة إلى دواخل أتباعه ومَن بمعيَّته، مشيراً إلى أنّ شيخي الغربي والشرقي إلى جانبه وهما يلتقيانه يومياً في بيته ويعرضان الاستعداد للحفاظ على امن المدينة؛ كما أنَّ ولاء العشائر سيكون إلى جانبه، منطلقاً من أنهم يؤتمرون بأمر المرجعية الدينية في النجف وهذه تقف جهاراً إلى جانب الدولة العثمانية رافعة راية الإسلام.

ما أن استدارا حتى طفق يشيّعهما بالود، والقلب يكدّس ملامح وهيبة

وتعابيرها. تمثلت له صورةً تعبيرية تفصح عن جذل وانشراح.. تعابير لا يمكن للدواخل أن تخطىء تفسيرها.. إنّه الحب ينضح من عينيها الحوراوين، والمودّة رسائل تبثّها قصيرة خاطفة من حدقتيها المتألقتين. هذا يعني أنَّ الرد لا بدَّ منه.. ولكن كيف؟!..

تلك الليلة وعلى ضوء الفانوس الشحيح كان رأس القلم ينغمس في جوف المحبرة ليفيض عباراتٍ متهافتة تسكب بين حروفها عصّارة اللهفة، ما يلبث أن يمزِّق الورقة رامياً بها إلى زاويةِ الإهمال، ليعيد صياغة التحيّات، ويسبك جميل العبارات. ولم يخرج تلك الليلة إلا على ركن الغرفة تتكدَّس فيه الأوراق المدعوكة بحيث أدهشت الأم وأغرقتها في استفهام السبب والجدوى، وحصيلة سطرين أعاد قراءتهما عشرات المرات حتى حفظهما: ((عزيزتي وهيبة.. كم كان حجمُ سعادتي وأنا أشاهدك تتوجهين وأمّك ثم تقفان أمامي بكل بهائكما.. لقد تمنيت أن أرسمك. ارسم وجهك المفعم بالنور.. لكنني سأرسمُكِ حتماً؟

وهيبة! كنتُ انتظر تلك اللحظة التي اعتبرها ميلاد فرح دائم لي؟.. وأنتِ! كيف تشعرين؟))..

****

خبر انتصارات الانكليز استحال حقيقةً صارخة لا يحجبها غربال الإشاعات الملفَّقة ولا أ قوال يبثّها عملاء تركيا من أنَّ جيوش الجن تحارب مع جيش الإسلام. صارت أصواتُ المدافع الهادرة خيرَ جواب يحددّ الموقف جلياً ويفصح عن أسئلةٍ كانت تتردد على ألسنة الناس المأسورين بالشَده والمشوشين بالذهول: (أحقّاً ينتصر الأتراك على الانكليز؟!).. و (هل ثمّة جنٌّ يحاربون في صفوفهم حقّاً؟!).. و (هل فعلاً صار " غليوم "(*) مسلماً؟!).. إذا حدث ذلك مؤكّداً فان راية الإسلام ستبقى مرفرفةً .. هذا ما كان المنتفعون من الأتراك يشيعونه راسمين أحلاماً ورديّة متراغية. بفضل

السلطان في الأستانة وحكمته ودهائه سيدخل الإسلام أوربا منتصراً.. سيعيد أرضاً ضاعت في الأندلس ومفاتيح حضارة إسلامية سلَّمها عبد الله الصغير على طبق من خنوع للنصارى الأعداء.. سينتشر انتشاراً فاعلاً يجعل شعوب الأرض تعتنق دين الله وعندها سيجعل الله الأرض جنةً ما بعدها جنة ذلك أن جميع البشر سيغدون مسلمين وأنَّ أحب شيءٍ عند الله الإسلام.

(*) يتذكر جعفر حسن درجال أن ألمانيا طفقت منذ دخولها الحرب على الانكليز والفرنسيين استمالة الدولة العثمانية إلى جانبها – واستمالة العثمانيين يعني وقوف المسلمين معها. ولما كان (٧٠) مليون مسلم في الهند، و(١٦) مليون في مصر والسودان، و(٢٠) في باقي أفريقيا، وكل هؤلاء في مستعمرات يحكمها الانكليز إضافة إلى (٢٠) مليون مسلم في روسيا. وهي دولة تحارب ألمانيا – هذه الأعداد الهادرة من المسلمين يمكن أن تطيح بهيبة انكلترا بتدمير اقتصادها وعرقلة مشاريعها الحربية. ولما كان المسلمون يرزحون تحت وطأة الجهل والخرافة وانعدام التحليل الموضوعي للأحداث، والضعف السياسي، ومغلوب على أمرهم فقد انطلت عليهم إشاعة أنَّ (غليوم) قيصر روسيا أشهرَ إسلامه فأصبح اسمه (الحاج غليوم). بل استبدل اسمه فغدا (محمد وليم)، وأنَّ الشعب الألماني حذا حذو قيصره فأعلن مسلماً.

كانت طرقات جعفر على باب عبد الكريم شوكت في اليوم التالي لها ما يبررها.. وقوفه منتظراً مَنَ يوارب الباب ينتفي عنه الوجل. لا وجود للخشية تلك اللحظة ولا هاجس أنْ لا يحقق انتصاره على القدر فيخفق في إيصال ما كتب إليها.

لم تفاجأ بالورقة المطوية كفتيلة فانوس صغيرة، ولم يشعر بارتياح كما هو ارتياح مشاهدتها تبتسم له وهي تتسلّمها.. ها أنتَ ووهيبة وجهاً لوجه في فضاء الحديقة بين انشغالات عصافير تتطاير بين الأغصان، وصغار هُم أخوتها منهمكون بنشوة تغدقها عليهم الأرجوحة المتدلية من غصن شجرة كالبتوس متين تحلِّق في الهواء بحركةٍ ارتدادية منسّقة .. قال لها هَمساً:

– مؤكداً أنتِ التي أحياناً تأتين عصراً وتجلسين عند النهر مع صديقةٍ لك؟

عيناها المتوهجتان فرحاً سبقت دهشة السؤال المنسكب من بين الشفتين:

– كيف عرفت؟!

– أراك من صوبِنا.. قلبي يدفعني إلى غلق المحل والتوجه إلى النهر لأبصرك.

وكما لو كانت تبغي تأكيد حضورها اليومي كموعدٍ قادم بينهما راحت تقول:

– نعم كل يوم سأكون هناك.

(٦)

صارت لقاءاتهما يوميّة ولكن عن بُعد..

هي في ضفةِ النهر البعيدة وهو هنا في هذا الصوب الكبير.. تجلس وصديقة أو صديقتان لها من جاراتها يجلسن جوار ماء النهر، وفي أوقات غروب الخميس يشعلنَ الشموع على قطعةٍ خشبية يتركنها في انسيابية ماء النهر يأخذ بها جنوباً سعياً لمُرادٍ مطلوب أو أمنية لتحقيق رغبة؛ هل كانت رغبتها أن يقترنا سويةً ليعيشا حياة حب لا ينتهي؟

كان عبور الجسر باتجاه صوب القشلة لا يبدو غريباً.

يأخذه الدرب أماماً عبر سوق انتشرت على جانبيه دكاكين وأبواب بيوت وتياترو وكنيس يهودي وحركة ناس عاديةً خلال النهار – وصباحاً على وجه الدقّة – لاسيما وأنّه الفم الذي يستقبل الريفيين القادمين من التجمعات العشائرية التي تحترف الزراعة من الجانب الشمالي للسماوة. لكنَّ الغريب حين تتَّجه إليه عصراً حيث الحركةَ على اقلِّها، والمتسوقون الريفيون عادوا إلى قراهم ولم يبق فيه سوى أهل الصوب. ومَن تجده هناك من ساكني الصوب الكبير فذاهب لمهمّةٍ قصيرة استدعته ضرورةً. أما الأكثر غرابةً فهو اتّجاهك شمالاً حالما تعبر الجسر وفي وقت ما بعد الظهيرة. فذلك لا يبرر لك القدوم بحجة مراجعة القائمقام في بيته أو التوجّه إلى الحامية التركية المتّخذة موقعا خلف بيوت الموظفين. من هنا يصبح الشارع المحاذي للنهر والآخر المنعطف يميناً شبه محظور على الغرباء من غير أهله. فعلى جانبي الشارع ليس غير بيوت الموظفين يظهر واضحا بيت القائمقام يقف عند بابه عنصر من الجندرمة كحراسة أو بمثابة مُخبر للقائمقام حين يراجعه أحدٌ لطارىء. ومن يمر ذلك الأثناء يثير الانتباه إذ يجد نفسه وحيداً في درب لا يخرج ساكنيه كثيراً. ناقش جعفر كل هذه الأمور وهو يتَّخذ من كتلة حجر مرمرية محاذية للنهر مكانا للجلوس.

النهر على بعدِ أقدام، ووهيبة على مرمى نهر تجلس هناك مع رفيقةٍ لها، والوقت يدنو من لحظات الغروب.. جعفر يجلس صارفاً ما يربو على الساعة جالساً. يتأمل قلباً يخفق هناك ويتحسس قلباً يضجُّ هنا. يناشد الماء أن ينحسر ليُضئِّل لهما مسافة التباعد ويجعلهما أكثر قرباً. بل فكّر: لو لم يكن هذا النهر موجوداً لكنتُ الآن أجلس إلى جوارِها. أحدّثها بما أريد وأسمع منها ما تفوه؟

لحظات الغروب أثارت فيه الشجن.. سيلٌ من أسئلة تتهافت في الرأس تضرب جدار القلب المُعنّى. راح الشاب الولِه يرمي باللائمة على مجتمعٍ وأعرافٍ وأقدارٍ تساهم في حرمانهما من لقاء يرتضيانه لهما ويتمناه فيحرما منه قسراً، ويُبعَدا فرضاً!.. " هل أتخذُ القرار الذي لن يُقنِع أحداً حتى لو نثرت جبالاً من المبررات؟! أن انهض الآن وأسلك الطريق إليها، عابراً الجسر ومنتصباً أمامها؛ لا أخشى تتبّع الأنظار، ولا نار الاستنكار؟!.. أيكون ذلك من صالحي فأحقق فيه مبتغاي؟!..ألا يكون هذا فعلَ جنون، وضياعَ أمنية، وفقدانَ كنز؟."

يهمُّ بالنهوض..

لا!.. لا..!

في تلك اللحظة الفالتة من بقايا النهار والساقطة من كفِّ المغيب هطلت دمعتان ثقيلتان من عينيه.. سقطتا على رمال الشاطيء وهو يبصر وهيبة تنهض من هناك وتستحيل هي ورفيقتُها شبحين يخطوان فيغرقان في ظلال عتمة تلفتها البساتين الكثيفة المحيطة ببيوت الموظفين.. ويتواريان.

****

كم من الأيام مرّت كان فيها العقلُ يفرضُ سيطرتَه على خميلةِ العاطفة؟.. كم من الهواجس والانفعالات تبارت كي تصل تخوم الرأي الأخير؟.. كم هي المرَّات التي يتوارى فيها القلب مُخلِّفاً دواخله تتلظى لئلا

يطيح بهيبتكَ ويتركَكَ في ندمٍ وجزع؟ مَن ينقذك من هذا الهول الذي وصل حد الشعور بأنَّ الحال لا يجب أن يبقى هكذا؟ مَن يضمن بقاء وهيبة في الاحتراق اليومي تتلظّى بساعاته فلا يجعلها تُقر أنها علاقة حب ميتة في مهدها وفاشلة لا بارقة أمل في تواصلها؟ هي ابنة الموظف المرموق وأنت ابن بائع القماش المتواضع! هذا الهم الجديد الذي يتمثَّل جداراً اجتماعياً دفنتماه أنتما الاثنان ولم ترغبا في إثارته. أنتما أدرى أنّه سينبثق يوماً ليهدَّ صروحَ تعلقكما الروحي وأيامكما الوردية.. هذه الأسئلة وغيرها دفعت بجعفر إلى أن يتحرك يوماً فيعطي للخطى أمرَ السير إلى حيث كانت وهيبة تجلس وحدها عند النهر. يخطو بلا ارتباك ولا خشية مستشعراً أنّها ما جلست بمفردها إلا لكونِها دعوةً له أن يحضر فيلتقيا على انفراد.

رأته من مكانها يتحرك في الشارع الموازي للنهر متَّجهاً إلى الجسر. يعبره فيكون في صوبهم يترجَّل على أرضية الطريق المؤدي إليها. يبصرها تنهض من مَجلسها المُحاذي للماء لتتّخذ مكاناً ظليلاً بين شجرتي كالبتوس يحجبها عن الأعين. حين أبصرته يتقدَّم ويغدو قريباً منها ابتسمت.. أومأت له أن يقترب ضماناً للاختفاء.

هربت مؤشراتُ الصدق، وتقدَّمت لحظاتُ الدهشة. تلاشت أشرعةُ الخوف وبانت مرافىءُ الطمأنينة . انبثقت الأسئلةُ تتهافت على نواصي الروح: " هل أنا حقاً مع وهيبة، وبانفراد؟ هل مَن أقفُ أمامها هي، هي؟!.. هل مَن تقف أمامي الهالة النورانية الباهرة التي أبصرها كل يوم من بعيد فتستحيل فضاءَ حلمٍ عذبٍ ودُنى مفعمة بالرواء؟!

مدَّت له كفّاً، فدفعَ لها بالروح.. عاجلته بالشغف، فأرداها باللهفة:

– وهيبة! أنتِ جنتي التي في هذه المدينة، وناري الذي في القلب!

– جعفر! يا منيتي في دنياي، ويومي الذي أعيش.

– آآآآآآ وهيبة!

– آآآآآآآآآآ جعفر!

مَن يصدق أنهما يلتقيان؟ ومن يقول أنَّ القدر معهما، وأنَّ بواعثَ قدوم الحظ تتراءى بكل جموحِها لتكون بصفّهما؟!

كان لقاءً خطفته يدُ الحظِّ من كفِّ القدر!

كانَ نوراً تجذَّرت فيه كلُّ بواطن النجوم سافحةً جذوتها إنارةً لدرب لهفتهما في ليل المجاهيل..

قالت:

– ستكون هذه الليلة اهناً ليلةٍ في حياتي! لن أنم لئلاً تهرب من عيني!

قال:

– وأنا سأجعلها ليلةَ عيدي الأبدي! وعلى عكسِ تصميمكِ سأنامُ مبكراً لانطلق في حلمٍ طويل، طويل يأخذُ الليلَ بأكملِه فارحلُ بك إلى جزرِ الأمنيات المتحقّقة لأعيش وإياكِ بلا حذرٍ، ولا فراق!

– آآآآآآآآآآ جعفر!

– آآآآآآآآآآآآآ وهيبة!

لا يدريان كيف نسيا عالماً يحيطهما.. لم يدركا لماذا كانا في عميم شوقٍ جعلهما ينسيان نفسيهما فيتماس جسداهما ويروحُ فمه يسرقَ قبلةً من شفتين وجدتا في شجاعته رغبةً للاستطالة، فكانت قبلةً طويلة ختم فيها القدرُ حكايةَ حب عرفا وإيّاه مبتداها ولم يدرك إلا هو منتهاها.. تلك قبلة سوف لا تتكرر أبداً.

وافترقا على أنْ يحقِّق جعفر مروراً من أمام بيت وهيبة يومي الاثنين والجمعة من كل أسبوع.. في وقتٍ حددّاه عصراً حيثُ الشارع آنذاك يعجُّ بالحركة، وحيث القائمقام يجلس في حديقةِ منزله يستقبل زواراً ومراجعين لهم أعمال مستعجلة، عندها ينتفي الشك من مرور أحد.

****

ضحى احد أيام العشرة الثالثة من شهر أيار والعام ١٩١٥ كان شاكر حسّان يرابط في مقهى (عطيه) حاملاً في رأسه أخباراً وجد فيها أهمية ينبغي سكبها في مسامع صديقيه وارد السلمان ومزعل العباس.. كان في لهفةٍ لحضورهما. لهفة لا يطيق أن تموت في جوفه. ساعة الضحى توشك على الانقضاء. لا أثر لوارد ولا خطى لمزعل. في العادة كانا يسبقانه في الجلوس، فما بالهما اليوم.. سأل عنهما عطيه لحظة قدَّم له قدح اليانسون فلم يكن جواب الرجل غير الإبهام.. وحين كرر استفهاماته انفجر متسائلاً: ماذا عندك يا شاكر، قل؟.. هل من جديد؟".. كان على وشك أن يفوه بما يحتدم في القلب وما يلوب على طرف اللسان عندما قدِمَ وارد السلمان يحث الخطى كأنه فقدَ لحظات هنائه بغيابه عن المقهى:

– أتعبوني هؤلاء العمال. تركت لهم حرية شراء الخضار وطلبت منهم أن ينقلوا حصتنا من اللحم ويجهزوا ما اعتادوا عليه. حركة القطارات نشطة. تنقل الدرك والمتطوعين إلى الشعيبة. بيعُنا تحسن هذه الأيام. الحرب قادمة وقد تستمر. لذلك أفكر بمال اجمعه لتفادي مجاعةً قد تحصل.

كان وارد السلمان يمتلك كشكاً في محطة قطار السماوة يقدِّم من خلاله أكلات سريعة من (التكّه) و (الفشافيش) و(الكباب) للمسافرين بالقطارات القادمة من بغداد والبصرة والتي تقف في السماوة كمحطة انطلاق لوقت قصير، لتنطلق بعدها من جديد كلّ إلى وجهته، فينزل الركاب لشراء السندويشات أو تناولها وقوفاً عند الكشك حين يتأخر أحد القطارين عن الوصول.. قطارا الركاب يأتيان بوقتين في اليوم. ثمة قطاران يصلان في منتصف النهار محملين بالركاب وآخران في منتصف الليل. لذا ترى وارد السلمان يمتلك فراغاً واسعاً من الوقت يصرفه في المقهى ومتابعة أخبار الوطن.. كان وارد السلمان قارئاً نهماً للصحف القادمة من بغداد، وحين يسمع بصحيفة هنا أو هناك قادمة من لبنان أو سوريا أو مصر يدفع ثلاث

إضعاف سعرها من اجل قراءتها. يقرأ، منطلقاً من أن مطالعة مثل هكذا صحف يوسع من معرفته ويجعله على علم بما يدور في تلك البلدان وما يحصل.

– اجلس يا وارد، لدي خبر مهول.. همس الحسّان في أذنه.

– ارتشف قهوتك أولاً.

دفع السلمان سائل القهوة الأسود بعدما لاعب الفنجان الذي قدمه إليه عطية إلى فمه. تبعه عطية بفنجان آخر. ثم كفَّ عن تقديم الثالث بإشارة من السلمان عن اكتفائه.

– هل من جديد.. قل ما عندك.

– الأتراك يتدهورون.. نطق الحسان.. أمس زارني ابن خالتي قادماً من بغداد وسافر فجر هذا اليوم إلى البصرة. أخبرني أن نور الدين بك الوالي الجديد على العراق أعطيت له قيادة الجيش كذلك. انه النفير العام سيجعله يفعل ما يشاء. أول شيء ارتكبه هو إيقاف إصدار الصحف ونفي رؤساء تحريرها.. يعني أننا بعد يومين لن نرَ صحف الصباح والرقيب وصدى بابل والرياض وكذلك مَجلتي لغة العرب والرياحين.

– كيف؟!.. هتف السلمان، ناطّاً من مكانه.

– لا تصرخ!.. هذا كلام سرّي لا يجب أن يسمعه الجالسون..

مال على أذن السلمان ليسمعه:

– الأكثر من ذلك اصدر أمراً بنفي انستانس ماري الكرملي وعبد الحسين الأزري وداود صليوه إلى الأناضول. الموصل ستكون من نصيب عبد اللطيف ثنيان وإبراهيم صالح شكر.

– لكنك استثنيت صحيفة الزهور.

– لن تغلق لأن رئيسها محمد رشيد الصفار من رجالات الوالي.. ألا يصح قول مزعل العباس أن هذا الرجل لا يمكن إلا أن يكون عميلاً تركياً؟

ذهب السلمان في خيالاته بعيداً.. خُيِّل إليه أن التُرك لن يتركوا هذا الشعب المُبتلى إلا أرضاً بلا بشر. أنهم كالجراد الأكول، فاتك وماحق. لن يتخلوا عن جورٍ توارثوه لسحق الناس هنا.. راح يتمتم " ما هذه البلوى!.. ما هذا الانسحاق؟"

لم يمر يومان حتى تناهى إلى المسامع خبر توقف إصدار الصحف وإشاعات تقول أن الوالي الجديد أمر بنفي مصدريها.

أخذ مجيء جعفر لمشاهدة وهيبة يتكرر على موعد اتفقا عليه. يتبادلان النظرات والابتسامات.. يعبر الجسر. تتلقف قدماه امتداد الشارع وصولاً إليها.. يراها منتظرة خلف الباب نصف المفتوح.. تتشرب روحه بعبيرِ روحِها السحري.. تراه هي فتتيهُ جذلاً.. تومىء له: " أنت هنا! " مشيرةً إلى قلبِها.. يرفعُ كفَّه فيضع أصابعه على صدغيه. تعرف هي أنها في الرأس تجول، وعلى الذاكرة تطبع وجودها الحيي.

مرةً أبصره القائمقام من كرسيه في حديقته آن كان باب بيته مشرعاً فأطالَ النظر. وأخرى شاهده وهو عائد من رؤيتها. مرُّ جعفر من أمامِه فأبصره، تفرَّس به باهتمام كأنّه يتساءل مَن يكون. يترجم جعفر فضول الرجل لمعرفته فيحث الخطى لئلا يثير شكوكه فينال عقاباً ويفقد أملاً. وثالثة توقف يتأمل ذلك الفتى الذي يرتدي السترة والبنطلون ويخطو بحذاءٍ جلدي لميع. لمحه جعفر يهمُّ بإيقافه ليرمي عليه سؤال التعرف فمنح قدميه السعة، وجعل يتحرك كما لو كان في مهمة عمل تتطلب العجلة. ورابعة تجرأ جعفر بالدنو من وهيبة فرمى أمام بيتها قصاصةَ ورق كتبَ فيها استحالة مجيئه في الموعد موعزاً السبب لمشاهدة القائمقام له أكثر من مرة، طالباً أن يكون لقاؤهما كما في السابق، من بعيد، عبر النهر وفي نفس الوقت.

تكررت اللقاءات، لكنهما لم يعودا يحسبانها الطريقة الفضلى للتواصل بعد أن التقيا عن قرب وشمَّ أحدهما أنفاس الآخر وختما ميثاقَ حبِّهما بختم تلك

القبلة الروحية.

"نعم.. كان طلباً خارقاً كالسهم طعنني في خاصرة تعلقي به "راحت وهيبة تتمتم!" كيف يطالبني جعفر أن نعود لنلتقي من بعيد؟.. وكيف لنا أن نعود إلى الوراء بعدما تقدّمنا كثيراً في مضمار حبنا؟"..

"نعم.. طفق الجزع يراودني، يا وهيبة، شاعراً أنَّ قيوداً تُحكِم طوقَها حولَ معصمي روحينا التائقين للقاء الأبدي. وشعرت بعد ذلك بالوله والولع المتفاقمين في نفسي برغبة أن أصارح أهلي، فليس صحيحاً أن نبقى نحرق مضاربَ الروح صمتاً وسريّةً وخشية."

قرر جعفر إنهاءَ مسيرةِ العذاب والقلق..

وصمم على إيقاف نزف الأعماق!..

أعماق استمرت تهرق دمَ العشق والعذاب.

لحظات الغروب تهدر تاركة وراءها شمسَ النهار بأكمله تذوي حمراء ترسم محنة الشاب مؤججة أفكاراً شرعت تأخذ لون الرماد وهو يعود من رؤية وهيبة وقد ظهرت وحيدةً عند الضفة البعيدة، حتى إذا رأته وتأكدت من مشاهدته إيّاها عادت راجعةً إلى البيت كإشارة لإثارة هاجس أنها ليست بارتياح تبدو به كل يوم بصحبة صديقتها.

دخل البيت، ومباشرةً توجه إلى أمّه. كانت تعدُّ طعام العشاء في زاوية اتخذت منها مطبخاً.

_ أمي؛ لديَّ حديث أطرحه عليك.

لم تُبدِ اهتماماً يستحق ما جاء ليفشيه على مسمعها، لكنها استمرت صاغية:

_ أريد أن أكمل نصف ديني، يا أمي.. أريد أن أتزوج.

استدارت تاركةً سكيناً كانت تقطّع به بصلاً لتمزجه مع اللحم المفروم أمامها لعمل وجبة كباب وقد تهللَّ وجهُها، وتنامت بواكيرُ دهشةٍ وفرح

سكبتهما عيناها اللتان اتسعتا:

– بهجتي التي انتظر، يا جعفر. ويوم سعدي الذي أريد!!.. أحقّاً ترغب بالزواج؟!

– مؤكداً، يا أمّي.

– سأخطب لك أجمل بنات السماوة وأنقاهن، إذاً!

– لا، لدي الفتاة التي ارغب.

– اختصرت الطريق، ولم يبقَ إلا أن تُعلمني لأهبَّ غداً للتحدث مع أهلها.

– هي ليست من حيّنا.. هي وهيبة.

– وهيبة مَن؟!... وراحت تبحث في ذاكرتها عن فتاةٍ بهذا الاسم.

– بنتُ مَن وهيبة، يا ولدي؟!

– بنتُ عبد الكريم شوكت.. مدير المال.

لا يفقه جعفر لماذا وكيف هجمت الصفرةُ على وجه أمّه فعمّه الشحوب؛ ولا يعرف كيف سقطت في هوّة الذهول واعترتها الحيرة؟.. ابتسمت فجأةً ثم ضحكت بخفوت كما لو شعرت أنه يمازحها ويلاطفها بغية إخراجها من انهماكها في العمل.

ومثل مَن يريد أن يستمر في مواصلةِ فعل المزحةِ والملاطفة راحت تسأله خلوّاً من الجدية، تراجعاً عن الصرامة:

– ما الذي ذكّرك بعبد الكريم شوكت، وكيف عرفت أنَّ له بنتاً اسمها وهيبة؟

– لا أعرف الرجل، لكني أعرف ابنته وهيبة، وأحبُّها.

ولكي يعطي لكلامه واقعيةً وتصديقاً:

– وهي تُحبُّني.

عادت قسماتُ الجديّة تتجسَّد بقوةٍ على وجهها. تركت السكين، وراحت

تتفرَّس في وجهه. (أمجنون ولدي هذا؟!.. إنّه يتحدث بثقة تفشيها ملامحه. يقول كلاماً لا يريد أن يسحبه أو يقلبه إلى مزاح. إنَّ وهيبة هذه لا بد أن تكون حقيقة، وأنَّ ولدي سائرٌ في طريق الأشواك، ويحتاج إلى من يُخرجه من هذا العذاب.. ثم أنّه قفز إلى مدير المال وابنته! أولئك أناس ليسوا من طينتنا ولا من مذهبنا.. كيف لنا نحن الشيعة أن نقبل في عائلتنا سنيّةً لا تقدّس " علي " ولا تبكي على " الحسين "؟! كيف نقبل أن يمتزجُ دمُها بدمِنا؟.. و كيف لوالدِها السنّي أن يعطي ابنته لشيعي يراه بعيداً عنه في مذهبِه، وخارجاً عن دينه؟!)

_ لا، يا ولدي أنتَ مجنون. وإذا كانت هي تحبكَ فعلا كما تزعم فمجنونة أيضاً.

رشقت دواخلَه بأحجارِ الاستهانةِ، وألقت به في هوّة الذهول.

صباح اليوم التالي أُنبئ جعفر بوجهِ أبيه ممتقعاً وعينيه جاحظتين. بدا أنّه لم ينم ليله، وحصد جعفر نظرات الأب تعكس شيئاً ليس لصالحه. هو يعرف أباه حين يغضب أو تشغله مسألة يحسبها ثقيلةً لا يطيق حملها. لذلك ما أن تناولا فطور الصباح واتكآ متقابلين ليرتشفا فناجين القهوة حتى انطلق:

– أعلمتني أمُّك يا جعفر بما قلته لها. ووجدتني يا ولدي في أمرٍ لا يصدق. وإذا صدّقته فلن يكون بالنتائج التي تريد أو نريد جميعاً. الأمر تراه يسيراً لديك وربما تراه هي يسيرا أيضاً. لكن ذلك غير ما تريان. أنت دخلت أرضاً غريبة، وهي كذلك..

توقف قليلاً لئلا تبان في عينه دفقةُ غضب:

– ما جرى بينكما أمرً محظور. وإن ظهر للناس فالويل لنا، خصوصاً وأنَّ أعداءنا الشرقيين يتحينون خبراً مثل هذا ليشيعوه في المدينة ويجعلوا منه وسيلة للوصول إلى الحكومة فيظهرون أمام القائمقام وموظفيه على أنهم الملتزمون فيما يرمون علينا نحن الغربيين الأفعال الشائنة. أفعال ليس أقلُّها

حبّكَ لهذه الفتاة التي لا تفقه أهميةَ سمعةِ والدها.

استدار ليتحدث عن ضعف العائلة إزاء الحكومة ورموزها وكيف ستبطش به وبهم جميعاً إن تنامى خبر هذا الحب لواحدة من بناتهم.

– لن يتوانون عن شنقك يا ولدي!.. كيف لي مشاهدة رأسك معلقاً على احد أعمدة فوانيس إضاءة الشارع؟ الأتراك لا ينظرون إلينا كشيعة إلا على أننا رعاع وخارجون عن سنة الله والرسول محمد.

أيُّ حزنٍ هذا الذي يهبط على قلبه الآن فيحدث انقباضاً ساحقاً؟!.. أيُّ ألمٍ ينهش أمعاءه حتى تجعله ينكمش مستحيلاً مخلوقاً يوشك على التلاشي؟!.. أيُّ ضياعٍ وجد نفسه تُرمى في أتونه الهائج.. إنَّ معجزات السماء كلها لن تنقذه من هذا الهول. لم يعهد أباه بهكذا جزع.. لم يبصره بهكذا خوف.

غارقاً في بحر المرارة وجد كيانه. أسماك قرش الكآبةِ تتلقفه نهمةً: تفتك به وتمزقه، تشظّيه وتنثره نثاراً من بكاء، ودموع، واختناق، وغربة، واكتئاب وقتَ كان الناس في حمّى انشغالهم باقتراب الانكليز ووشوك مهاجمة المدينة.

النزعات العصبية إلى التمسك بالدين والجهاد، وخشية حصول مجاعة قد تسحق الناس وتدفعهم إلى الموت في الطرقات وعلى الأرصفة هي ما يشغل الجميع، هنا في المدينة.. تتناقل الأخبار ما جرى في مدينة الموصل شمال البلاد من مجاعات ومِحن وصلت حد اندفاع الناس لاصطياد القطط وافتراس الكلاب وجعلها غذاءً يقلل غائلة الجوع فيما جعفر منشغل بمحنته، غائراً في نفقٍ دخله ووهيبة، ولا يدريان كيف يخرجان منه، ولا النتائج التي ستتمخض عن الخروج.

كانت خاتمة كلام الأب تحذيراً بأن لا يتجرأ ولده فيُبدي أيّةَ نأمة تشير إلى تعلُّقه أو حبّه بابنة الغرباء. فالذي سيحصل جراء مخالفته لأمره فعلٌ لا تُحمد ابتداءاته ولا الانتهاءات.

بدا كلام حسن درجال لابنه منطقياً، لكنَّ القلب استحال جمرةً متوهجةً لن يطفئها إلا الموت، فهل سيفكر جعفر بالموت انتحاراً؟.. ذلك ما أبعده تماماً لأنه في النتيجة سيخسر مالكةَ الروح وحائزة القلب.. ولأنه لا يبغي فقدانها تجاوز على طلب أبيه وظلَّ ما أن تهرب الشمس وتبدأ العتمة تتسلل إلى السوق يساعدها السقف الجاثم عليه بأعمدته الخشبية وصفائحه المعدنية حتى يقفلُ المحل ويخطو مسرعاً صوب النهر، تاركاً السراي على يمينه ومنحدراً يساراً إلى جرف النهر حيث شمسه الباهرة تنتظره في الضفة الأخرى.

يبثها الألم والجزع واللوعة، ويتأسى على مصيرٍ مجهول تكبله أصفاد لا فكاك منها فيروح يدخل دوّامة التساؤلات العقيمة: لماذا لم أكن ابن موظف حتى يصبح التقارب ممكنا والتزاوج حتمياً، أو لماذا لم تكن هي من بنات حارتنا حتى يغدو ضمُّها لعائلتنا يسيراً؟

(٧)

كان ارتداء جعفر للبنطلون والقميص قرَّبه من ساسون ابن داود زلخا الموازي له بالعمر. يجده يقف في دكّان أبيه في أوقات متقطعة حين يأتي إلى السماوة زائراً لأهله. كان يرى في ساسون شاباً عصرياً يرتدي أجمل وأبهى الملابس الإفرنجية فيدهش لها وتحدوه رغبة أن يلتقيه ويصاحبه. بَعثه أبوه إلى بغداد حين كان فتيا لا يتجاوز الثالثة عشرة ليدرس العلوم في (التوراة) هناك؟ كانت تلك التوراة مدرسة تعطي احدث ما وصلت إليه العلوم والدراسات. نَمت علاقته بساسون يومَ شاهده بملابس تشبه ملابسه الحضرية فدنا منه. لحظتها كان جعفر منهمكاً في تجهيز نساء ريفيات بأقمشة ابتعنها ثياباً لعرس احدى بناتهنَّ ويجيب على تهافت أسئلة كنَّ يرشقنها في وجهه رجاءً عن خيّاطة نسائية في المدينة يثق بها لتصمم للعروس ثيابَها ومتطلبات

غرفة نوم العروسين. رسم ابتسامةً عريضة أردفها بتحية ودودة، مفشياً رسالةَ إعجاب مَشوبة بتقدير على شجاعةٍ تحلّى بها جعفر فجعله بهذا المظهر الحضري:

– أفندي، يا جعفر!.. قالها بانفتاح

– حتى أتجاوزك بالحضارة، يا ساسون!.. رد جعفر مداعباً.

اعتادا وهما صغيران أن يلتقيا حين يغلق أبوه المحل وينادي على والد ساسون ليغلق محله أيضاً فيخطوان سويةً وقد دنا وقت الغروب. يتقدمهما الابنان، داخلين في أحاديث عن البيع والشراء بينما يدخل جعفر وساسون أحاديث الصبا... حدّثه ساسون مرّةً عن عدد من صور تأتي كدعاية تحتويها (أطَوال الأقمشة) وكيف كان يجمعها ويلصقها على جانب من حائط بيتهم مُشكِّلة معرضاً جميلاً يقف إزاءه كل يوم فيتيه في عوالمه الجميلة.. وعد جعفر يوماً باصطحابه إلى بيته فأوفى. هناك استقبلته أمّه بثوب بنّي يشبه لحاء الشجر وخمار أزرق موشّى بنقاط صفر تشبه قطرات المطر. كانت في كلماتها مودّةٌ وحنان وفي قلبها عطفٌ وترحاب. سألته عن حال أمّه وأخواته وقالت: " أننا نحبكم ونحترمكم.. انتم أناس مستورون"؛ ثم تركتهما متحركةً إلى ابنتها (موشه).. هذه موشه يا جعفر؛ بجمالها المهيمن على لحظة التطلّع، وخفتها التي تشبه خفّة غزال في حركته ونفوره.. أينَ حمدان الناصر (*) ليسكبَ أو يسبكَ عذيب شعره مرّة أخرى؟!.. كانت موشه تكبر ساسون بخمسة أعوام. توقفت عن عملها وهي تبصر جعفر يدخل البيت لأول مرة. راحت تطالعه مرتدياً ثوباً نظيفاً. لم يكن نظيفاً بمعنى مترفاً ومتأنقاً بل مقبولاً لدى الناظرين مَن يولون للنظافة اهتماماً. ذلك أنَّ مَن كان بعمره لا تراه إلا شاحبَ الوجه، له بشرة صفراء وثوب موحل، نادراً ما يلبس خفّا.

(*) توجه حمدان الناصر إلى بيت اليهودي داود زلخا عندما لم يجده في دكانه لإتمام

عمل يخصه.. وعرف عن الناصر أنه شاعر فطري يقول الشعر سريعاً فتتناقله الألسن.. طرق الباب فواربته ابنته "موشه" بكف سحرها. ذلك أحدث هزّة في قلب الناصر، ولم يخرج سؤاله: "هل أبو ساسون هنا؟" إلا متكسراً؛ ردت عليه موشه ببساطة ردَّ اللباقة: "لا؛ خرج". وأغلقت الباب.. مشى الناصر خطوات فألجمته خطواته بناء على أوامر من قلبه الذي ارتجَّ وعينيه اللتين لم تشبعا. فعاد يطرق الباب. وعادت موشه تواربه.. على قسماتها تعلو ابتسامة تدين بلاهةً، وتعبّر عن استغراب. فيتيه الناصر هياماً، ويغرق ذهولاً.. يسألها سؤالاً لم يشبع إجابةً: " إلى أين خرج؟ "... بشيء من نفور ترد: "خرج إلى السوق."، وأطبقت الباب... غير أن الناصر لم يشبع دواخله بقوام هذه اليهودية التي تخيلها تفتض شرنقة الخيال لتتجسد واقعاً، فمشى خطوات قبل أن يعود مجدداً ليطرق الباب للمرة الثالثة... وللمرة الثالثة تفتح موشه الباب فتبصر الرجل منتصباً كما لو كان كتلة بلادة. تنهره بلهجتها اليهودية الغاضبة: "بقة شتغيد ويقف هوني؟!".

هذا المشهد الذي قد يبدو غريباً وغير مألوف استحال أبوذيةً انطلقت من فم الناصر لحظة استوقفه صحبه في السوق حائرين وهم يلمحون ذهولاً يتسيد ملامحه، ويكتشفوا عينيه تتيهان في شرود، فلم يجب على استفهامهم الحائر بغير:

صبر أيوب كيف اصبر منيهود
على الخشف الطلع دالع منيهود
خزرني وصد علي مزور منيهود
بقه شتغيد ويقف هوني..

أبوذيه حفظوها من أول انسكابها من شفتيه. راحوا يرددونها كحكاية من حكايات الوله.

الخشف: الغزال الجميل خزرني: تطلع إليَّ باهتمام مزور: نافر ومرتد
بقه: فاتحة كلام شتغيد: ماذا تريد
ويقف: واقف هوني: هنا

ساقه ساسون إلى جدار خلفي لغرفةٍ كانت نافذتها تطل على شريط من حديقة زرعوها بشجيرات الآس ذات الأوراق القصيرة داكنة الخضرة. كان جداراً مليئاً بصورٍ متنوعة لفتيات يقفن بملابس هفهافة وبوجوه تطفح بهاءً وقد ارتدين فساتين باهرة خُتمت بأختام كتبت بحروف إفرنجية غريبة. وهناك صور لزروع يانعة تحفل بعائلات مجتمعة في جلسةِ متعةٍ وحبور مرتديةً

ملابس بهية تشع بالألق تشير إلى رصانة الشركة التي صنعتها فجعلت هؤلاء الناس يرتدونها فيبدون في أبهى حلّة وأجمل منظر. كان الفيء المشيع في شريط الحديقة يخلق خثرة باردة وجواً لطيفاً تغرق فيه الصور الملصوقة على الجدار. " ياه! " هتف جعفر مندهشاً. حسد ساسون على ذوقه. ضحِكَ الفتى اليهودي كما لو كان حصدَ جميلَ فعلِهِ:

– أتعرف يا جعفر.. وقت طويل اصرفه هنا، مرتمياً على العشب أتأمل الصور. اترك عيني تطوفان من واحدة لأخرى. احلم أن أعيش مع هذه النساء أو أصاحب تلك العائلات. أريد أن أعيش مثلما يعيش هؤلاء الناس. لا يجب قضاء الحياة كلها في مدينة صغيرة كالسماوة. نحن هنا في مقبرة.

طفق يحدثه عن أقرباء له يعيشون في لندن وباريس، وأبعد من ذلك أيضاً! "هناك في بولندا وروسيا يلبسون افخر الملابس ويتسلون بأجمل الألعاب ويسافرون سفرات كلها جذل وانطلاق!"..

يتنهد، ثم يسرح بخياله، ويعود ليقول:

– "أريد أن أكونَ مثلهم!".

– هل ما زالت الصور كما هي؟ سأله جعفر بعدما انتهى من تجهيز القرويات.

أطلق ضحكةً أردفها باستفهام:

– ألا زلتَ تتذكرها؟!..

– لقد غارت في ذاكرتي. وقد صرفتُ أوقات طويلة ارسمها على الورق. لقد أحببتها كثيراً.

– حقّاً؟!..أأنت، يا جعفر؟ قالها باندهاش، وأضاف:

– ما زالت ملتصقة. لكنَّ ألوانها بهتت وزال رونق الوجوه.

صمت قليلاً، طالع قسمات تأثر جعفر؛ ثم قال:

– هل ستزورني يوماً لتشاهدها، علّكَ تعيد ألوانها الهاربة برسوم جديدة...

وضحك.

– توقع طرقاتي على بابكم، فلا تندهش... قالها جعفر ضاحكاً.

لم تمر أيام حتى توجه جعفر إليهم بملابسه الحضرية عابراً الجسر ومخلفاً التياترو؛ مخلفاً وراءه التوراة.. طرق الباب الصاجي العريض متوقفاً عند عتبة التي تخفي وراءها مَجازاً أرضيته مربعات موزائيك مزخرفة بمثلثات ومكعبات تشكل كياناً هندسيا يقود إلى فناء الدار.

ما كان ساسون مَن فتح الباب إنما أمّه . تهللَّ وجهُها وقد رمت عليه الأعوام امتلاءً وسمنة. دعته للدخول مرحِّبةً بينما وجهت نداءً لساسون كي يستقبله. لم تكن هناك موشه. موشه تزوجت في البصرة. قيل أن زوجها اصطحبها إلى الشام لتعيش معه حيث تطلّب عملُه في التجارة أن يكون هناك على الدوام.

لم يدخل جعفر غرفة الاستقبال إنما طالبَ ساسون بمشاهدة صور الحائط في الحديقة. كان اشترط أن تكون أولى خطوات زيارته تبدأ من الصور.

كانت الصور بهتت فعلاً. بعضُها ظلَّ ورقاً ملتصقاً زالت منه فتنة النساء وبهاء وجوه الفتيات. جفت الحدائق العائمة في فضاء اليناعة والاخضرار. أبصرَ ساسون ملامح الأسف على وجه جعفر فقال يخفف من أساه:

– بهتت صحيح، لكنها مُشرقة هُنا!.. وأشار إلى رأسه، "أليس كذلك؟"

في غرفة الاستقبال وبعدما شربا عصير مشمش عملته أم ساسون شرع يحدث جعفر عن رغبة عارمة لا توصف في اغتراف علوم يتلقاها في (توراة) بغداد وحاجته إلى تلقّي اكبرَ قدرٍ من المعرفة، لذلك قال أنه يخطط للسفر إلى لندن للدراسة هناك؛ فهناك يستطيع طالب العلم أن ينهل وأن يحرق المراحل حين يُشاهَد أنه مصمم وقادر على ذلك.

– حدثني عنك.

بعد ترددٍ جعفر وإلحاح ساسون أفشى له عن علاقته بوهيبة وحبه الجارف لها. أعلمه أن الحبَّ متبادل بينهما، وأنّ لقاءاتٍ خائفة تتم:

– أنت تعرف يا صديقي أنا شيعي وهي سنيّة.. أهلها متطرفون وأهلي كذلك. وهذه معضلة كيف أتجاوزها.. إننا دين واحد فرَّقته الآراء الجاهلة فرمت إسقاطاتها الظلامية على الأجيال.

– عوائق لا مبرر لها، يا جعفر.. أفهمك وافهم معاناتك.. المذاهب تفرق الأمم.

لم يستشف ساسون ما يشير إلى بارقة أمل تسقي جعفر شهد الطمأنينة وتشعره سائراً في طريقٍ مُعبَّد. ولم يسمع من الصديق كلمةً توحي بأن القدر سيكون معه في المدى المنظور. فقط تساءل:

– ألم يكن بمقدورك الوقوع في غرام فتاة من مذهبِك؟..

– هكذا فعلت الأيام.. قبلها لم أكُن أفكر بأيةِ واحدة ولم يخطر بذهني أني سأقع في شباك العشق حتى جاءت وهيبة.

((يموتون ويخلفون لنا ضغائنَهم – تمتم في دفين جزعه – يرحلون وليس لنا إلا أن نستقبل سجالاتهم المحتدمة في نفوسهم، يتلقفها الرابضون على صخرة الانتفاع سعياً لرجاءٍ جاءٍ يبغونه، وهيمنة جاثمة يفرضونها؛ وعلى عقول البسطاء تقبّلها بينما يُخرسون – بما يمتلكون من وسائل الترهيب – أصوات العقلاء الرافضين الضغائن، العاشقين الحياة، النادهين الشمس أن تعالي نغترف ضحكتك وبهاءك والضياء..

فكّر في سرّه أنَّ مكّةَ في عصر الرسول لم تكن إلا بيوتات لا تتعدى أصابع اليد. الناس فيها محكومون – كمحصلة طبيعية – بنظام قروي ترتفع في سمائه ضرورة صرف العيش على تقارب والحياة على عدم شجار.. يسمع أن عليّاً تزوج بنت أبي بكر، ويقرأ أنَّ عمراً كثيراً ما ردد: "لولا علي لهلك عمر" فمن أين تولد الأحقاد؟!.. وكيف لرموزٍ عاشوا مع النبي أن

يحملوا كل تلك التنافرات؟!..

يبحث عن مسببات هذا التباعد والتنائي؛ ذلك التوتر والتناقض فلا يجد غير تقادم الأعوام والعقود تكشف له طوايا النفوس الكارهة لتواد أولئك الصحابة. نفوس أرادت أن تعتاش على الضغائن واختلاق مسببات التنافر رافعة في الوقت نفسه سيف القهر.. ذاك يرى أنَّ عليّاً أحق بالخلافة بعد الرسول، والثاني وجد أن الشورى المبنية على رأي أخذ الأصوات مأخذ الاهتمام هي ما يجب الأخذ به.. الأول نظر إليها على أنها مؤامرة مدبَّرة أو كلمة حق أريد بها باطل وما هي إلا قناع للورع وما وراء القناع كان الدهاء وفعل الاستحواذ قفزاً على أراء المجموع، والثاني تشبث بمبدأ الشورى وبررَّ إقرار المبدأ بوقتٍ قياسي سريع حفاظاً على لمِّ وحدة المسلمين بعد وفاة الرسول خشية من التشتت والفرقة وضياع الوحدة... وبين هذا وذاك ضاعت الأجيال المتعاقبة. تاهت على ترنيمة الحقد المتراكم واختلاف الأسباب عاماً بعد عام، وعقداً بعد عقد، وقرناً بعد قرن. تبددت حياتُهم بين ذاك المنزوي في كهوف حجرية يجمع له أتباع يزرع في نفوسهم بذور تصديق ما جرى لتنهض أشجار الحكايات المتداخلة بين صدق وتلفيق مستحيلةً خطّاً مساريّاً يغدو مذهباً تفرض أبجدياته على الأجيال القادمة من ربقة الجهل، وذاك اللاهث وراء الحياة اليسيرة المترفة اعتماداً على حاكم جائر وسلطة دموية، انطلاقاً من رأي أطيعوا أولي الأمر فهم شفعاؤكم في العالم الآخر، عليهم تقع التبعات إن جاءت من باب السلب، وإليهم تؤوب الحسنات إن هُم أوصلوا الرأي إلى محطة الإيجاب.))

أسابيع قليلة مرّت قضاها وساسون يتبادلان الأحاديث والآراء. يخطوان باتجاه بيت وهيبة علّها تطل من الباب الرئيس فيبصرها ساسون. لمَّا خاب رجاؤه قاد ه إلى ضفة النهر. ومن هناك:

– ألا ترى تلك الفتيات في الضفة الثانية. تلك وهيبة تجلس مع

صديقتها. إنها التي على اليمين. ها هي تنهض الآن. سترمي حجراً إلى النهر. هذه دلالة أنها أبصرتني، وأننا سنتبادل التحيات من بعيد ونبعث بروحينا ليتعانقا سويّةً.

– هذه لوعة ومعاناة، يا جعفر! الله معك.

وسافر ساسون سفراً سريعاً ومفاجئاً على أمل أن يعود لزيارة أهله فيلتقيه جعفر مجددّاً ليحدثه عن اتساع لظى القلب ومديات اليأس التي تكبر، طالباً ما يخفف حرقة القلب من نصيحةٍ وحسن رأي. لكنه غاب طويلاً!.. قيل أنَّ أباه أوعز له بالتوجّه إلى لندن بعد أنْ شهد أنَّ مستقبل البلد سينتفي منه الاستقرار، وأنَّ الأيام القادمة تنبئ بأعاصير قد تؤدي إلى ما لا يتمنون فأمره بسرعة الخروج من العراق.

****

شعر جعفر أنَّ غياب ساسون أربكَ يومه وجعله يُحس بفقدٍ كبير لصديق يبثّه فحوى المحنة ويأتمنه على سرٍّ دفين. ((افتقدته حقّاً.. أين سأبثُّ فصول محنتي، وكيف أتلقى النصح.. لقد بات انشغالي بوهيبة يتفاقم ولهفتي تتعاظم.. تنامى شعور في أعماقي سأخسرها. فكل شيء غدا ضد تيار أمنيتي: أبي، وأمّي، والأيام!.. طفقت الأيام تنقل لنا أخبار تحكي قرب احتلال الإنكليز للمدينة، وتسري شائعات عن حصول فوضى إن ضعفت سلطة الحكومة. صار بالإمكان مشاهدة بريق الدهاء وتحيُّن الفرص الذهبية في عيون الكثيرين ممن يضمرون أشياء تقتصُّ من الأتراك المغتصبين للحريات والعيش الرغيد.

أفكر بها فأجزع!

أتحاور مع خيالها فأبكي!

أوجّه قلمي ليتيه تخطيطاً برسم وجهها.. تساعدني الورقة البيضاء لكراسة اقتنيتها لتجمع فحوى دواخلي كتابةً بالرسم. وجه وهيبة مبتسماً، ووجهها

متأمِلاً، وآخر غارقاً في السهوم والشرود، وآخر بدموع تسيل على الوجنتين. وآخر ينضح بالشغف كما لو كان يتضرع أن لا أبتعد عنها.. أقرر أن أهديها رسماً من هذه الرسومات لتعطي رأيها فيه وتبقيه لديها هدية منّي، وذكرى.

أهمُّ بلقائِها حتى لو تسببت بالضررِ.. أهم فأتراجع.

يجعلني العجزُ أهيمُ بلا هدى! فأنا هنا؛ وهي هناك! لا يبعدني عنها غير مسافةِ خطى تقطعها لأضمّها إلى صدري وأطبع قبلةً أخرى أو أرتمي عليها لأرتوي من منهل القُبل.))

يعبر الجسر ويفكّر بالانحراف يساراً إليها فتتصالب قدماه.. يبصر رأس امرأةً يشاهدها تطلُّ برأسِها من حائِط سطح التياترو، تتابع حركةَ الناس في الصوب الكبير.. أنها بهية.. نعم هي بهية ((نعم! كلما ضاق صدري صعدت إلى سطح التياترو فاطلُّ من على الجدار. أطالع السراي الذي أمامي عبر النهر. أرى الجندرمة واقفاً في الباب ببندقيته الشنايدر. أفكر ماذا سيحصل له غداً هذا الذي لا يعرف مصيرَه.. أتأمَّل الناس الرائحين الغادين فأتساءل عمّا سيفعلونه حين يشعرون أنَّ الترك باتوا في خواءٍ وأنَّ سلطتهم غدت لا تؤثر على قِطٍّ نافرٍ لهم ورافضٍ لأوامرهم؟.. أرى هذا الشاب الذي يلبس ملابس العصمليين كأنّه واحدٌ من أبنائهم وهو ليس إلا ابن حسن درجال القمّاش. لقد وقفت عنده واشتريت قماشاً لحفلة الشهر الماضي. كانت نجيّة بصحبتي. وعندما شاهدته بملبسه الجديد عقبت أنّه فتى يبدو كما لو كان لا ينتمي لهذه المدينة التي تتهيَّب من ارتداء الملابس الحضرية. قوامه الممشوق وجمال ملامحه جعلني أطيل الوقوف عنده أسأله عن هذا القماش أو ذاك وهو بكل دماثة الخلق يجيب ويعرض القماش أمامي وأنا بعين الإعجاب أسائل نجيّة عن رأيها فترد بلسان الغواية أنّه يناسبني عندما يكون روّاد التياترو بمثل بن حسن درجال فأطلق ضحكةً مبتورة، يرد عليها بحمرة خجل تطفح على خدَّيه السمراوين. خجلُه يضفي قسماتٍ جميلةً على وجهه

الجميل.. أشاهده الآن يخطو عابراً إلى صوبنا.. إلى أين يتّجه؟.. أوه؛ ها هو يعود كأنّه سمع سؤال أعماقي فاستثنى المواصلة.))

****

الأيام تتسارع، والسماوة مدينةٌ تقف على أعتاب مجهول لا أحد يدرك هل سيكون لصالحها أم ضدّها. الرصاص يُسمع بوضوح والناس غدت تتحسَّب مُستقبلاً لا تريد لـه القدوم خشية من العواقب السيئة المحمّلة بالمفاجآت المؤلمة، فجهدوا يفرغون بضاعةَ السوق من حبوبٍ وسَمن وتمرٍ، وما لديهم من مال يحرزوه في وقتٍ يتهيئون لحرب الأعداء كما يشيعون، ويستقبلون مجاهدين قادمين من مدن الشمال باتجاه الجنوب؛ ثم آخرين هاربين من الجنوب وهم يحملون أخبار خسائر الأتراك وهزائمهم، وسقوط المدن تباعاً بيد الانكليز المتحركين بكل مقدرة، وسيطرة، وإتقان.

لعله القدر رأف بجعفر احد الأيام فجعلَ جموعاً من المسلحين يتقدمهم فارض العلوان وجابر الدخيل يتحركون صوبَ بيت القائمقام لإعلان وقوف المدينة إلى جانب الحكومة ضد الانكليز. الانكليز غدو على المشارف وبات الجميع يسمعون هدير مدافعهم تدك مواقع الأتراك في قرية الخضر القريبة وفي نيتها التوجّه لاحتلال السماوة. وصلات شعرية يرددها المتظاهرون تتحدّى القادم وتنادي على الجنّة. ذلك ما دفع جعفر إلى اللحاق بهم. اكتشفها فرصة قد لا تتكرر لمشاهدة وهيبة عن قرب. فالذي يجري جنوب المدينة يُنذر بالخطر ويخفي مجاهيل ومفاجآت قد تطيح بآمالهما وتطفيء حلمهما الجميل.

مَن يضمن الغد!!!

أبصر القائمقام عند باب بيته كأنّه كان على علمٍ بحضور المسلحين يرفع يده ملوِّحاً علامة التحية والاتحاد. وحين تكاثف الجمع أمام البيت وانطلق بعضُ المسلحين يدورون بحلقةٍ تصاحبها الإشعار الحماسية مرددين "نرضي

الله، ونتنومس بيها".

على جانبي القائمقام وقف فارض العلوان وجابر الدخيل يشدون من أزر المسلحين ويدفعونهم إلى مواصلة الحماس وإظهار التأييد وإعلان المصير الواحد قفزت إلى ذاكرة جعفر صورة جدته جوخة وقهقهتها التي تشبه قأقأة دجاجة وكلماتها التي تشير إلى عدم تصديق ما يجري.. المشهد يعكس تصميماً على الجهاد، لكنَّ الجهادَ بعيدٌ من قلوب المحتشدين. اليوم تراهم مع القائمقام والحكومة وغداً يصبح من اليسر انقلابهم فتكون الحكومة والقائمقام أعداء يجب الفتك بهم ونهبهم بلا رأفة.

طرد نوازع التقييم واستدار يرسي نظراته على باب وهيبة. لم يكن يبعد سوى أمتار عنها. كان الباب موصداً لحظة شرعت بعض نسوة الموظفين يفتحن الأبواب لمتابعة التظاهرة المسلحة والرجال الأشداء الذين سيحمون المدينة ويكسرون شوكة الانكليز إن تجرَّأوا واقتربوا من السور.

لا يدري جعفر كيف سمع الله دعاءه فسمح لأم وهيبة أن تفتح الباب لتشاهد ما يجري، وتمنح ابنتها التي ظهرت من خلفها فسحةً كي تنظر أيضا فتبصره.. تتفرج قسمات وجهها. يهاجمها الفرح بينما يداهمه الذهول.

لم تُطل ألأم النظر فعادت داخلةً البيت، تتبعها وهيبة بعدما أغلقتا الباب.. غمره الذهول عندما اختفت وساوره قلق أن تكون أمها غير راضية على وقوفهما.

ومثلما وقف القدر من قبل في لحظات حرجه فرأف به وأنقذه من ظمأ القلق وسقاه شهد اللقاء عاد من جديد ليقدّم خدماته بلا مقابل (وهي آخر رأفةٍ جعلها خاتمة في حياةٍ أرادها جعفر غيثاً من سعادة يهطلُ على أرض وهيبة لتخضرَّ وتينع وتزهر في فضاء الألق والبهاء واندهاش العيون الناظرة لحبيبين يعيشان حبور الأيام). وجد بعض المتظاهرين وقد أرهقهم التعب فأحسوا بالعطش واستداروا يبحثون عن ماءٍ يُطفىء ظمأهم فلم يجدوا غير

الأبواب يطرقونها ويطلبون مبتغاهم. وحتماً كان بيت عبد الكريم شوكت احدها. فتح صبيٌ الباب فعرفه: أخوها. دخل؛ ثم عاد يحمل إناءً فخارياً مليء بالماء، تلقفه العطاشى فراحوا يكرعون. وتقدم هو يُمنّي النفس بمشاهدة وهيبة. ويبدو أنها وجدت الموقف غير المتوقع فظهرت خلف الصبي كما لو كانت موقنةً أنَّ جعفر سيقترب. ومن بين لحظات التوقّف عند الباب وانشغال الضامئين بشرب الماء سنحت فرصة إلقاء التحية والسؤال عن الحال. سلمها أحدى رسوماته لوجهها الدافق بالبراءة فيما تسلَّم هو بلحظةٍ خاطفة قصاصةً من يدها.

معرفة فحوى القصاصة هو الذي دفعه إلى ترك التظاهرة والتحرك خارجاً من الشارع والضوضاء وخشية هجوم ظلام سيحرمه من القراءة إذ بدأت سحابات الغروب تهبط والضوء يهرب.. وعلى امتداد الطريق المحاذي للنهر، وذهابا عائداً للبيت افرد القصاصة المطوية متفجراً باللهفة:

((حياتي جعفر.. لا أريد أن أزعجك بالأخبار فقد أعلَمنا أبي أنَّ الأيام القادمة ستكون مُخيفة .. وأبي قلقٌ جداً علينا.. ماذا افعل؟.. أنا خائفة من الفراق!.. سأموت إنْ افترقنا مُجبَرين.)).

(٨)

تواردت ألأخبار وشاعت عن قرب دخول الانكليز السماوة بقواتهم؛ وتسربت إشاعة أنهم استطاعوا كسبَ عددٍ غير قليل من الموالين يزودونهم بالمعلومات ويبثّونهم أخبارا تشي بان المدينة في شغف انتظارها لوصولهم، إذ سيدخلون مُرحَّباً بهم. الناس في توقٍ لمشاهدة ما يصنعه الانكليز لتغيير واقع حال مدينتهم التي سامها الأتراك سوء العذاب؛ فأذلوا أهلها، وأطاحوا بهيبتها، وأكلوا ثروتها، ولوثوا هواءها، وتركوها عجفاء، ناحلة، عليلة. أبدى المتعلمون ومن لديهم هامشاً من المعرفة والتنوير رغبةً في قدوم الانكليز متأملين زوال

الكابوس العثماني الثقيل والممل. كابوس جثم على حياتهم عقوداً طويلة وحرم أبناء بلدِهم متعة التعلّم ونهل نور الثقافة. فقد مرّت على البلاد أحداثٌ مهولةٌ وكوارث لا تصدَّق. مات الناس آلافاً، وسُرِق المال جهراً. بعثرت الثروات أكداسا ولم يحرك ولاتُهم ساكنا بل كانت اللامبالاة لما تعانيه المدن والقرى من سوء أحوال صحيّة ومعيشية هوية لهذا الكابوس.

وفي المقابل بثَّ الموالون للوجود العثماني إشاعات تقول أن الانكليز أول ما سيفعلون هو تهديم المساجد وإزاحة الناس بالقوة عن دينهم الإسلامي المحمَّدي سيدفعونهم إلى اعتناق الديانة النصرانية قسراً. وسيُصدِرون أوامرهم بجعل المرأة ترمي خمارها فتخرج إلى الشوارع والطرقات والسوق كاشفة الوجه، حاسرة الرأس تشارك الرجل جلوسه في المقهى وارتياد التياترو بلا خشية ولا خوف. سيمنعون ختان الذكور ويجعلونهم مثل ذكور المسيحيين بلا ختان. سيجعلون الناس يتخلّون عن رسول الله محمد فيحملون الصلبان قلائد في أعناقهم خاسرين الدنيا والآخرة، فتضيع الجنَّة الموعودة، والوِلدان المخلدون، وسواقي العسل التي لا تنضب. رجال الدين وقفوا إلى جانب هذه الرؤية بشيء من القلق وتجسيم الرعب. تنادوا للوقوف بوجه السرطان القادم. تراصف معهم بعض من المشايخ مُخمِّنين الذي سيحدث وفق رؤية رجال الدين انتهاءً لحياتهم في الدنيا والآخرة. استحال سوقُ السماوة وشوارُعها وأزقتها مراكز تجمعات وإعلان خشية من قدوم الكفّار في حين رأى بعضهم في الانكليز مخلِّصاً بعثه الله ليعيد للإسلام مساره الصحيح بعدما أُثقل بآراء متطرفة وخزعبلات لا يرضى عنها دين سماوي ولا يقبلها عقل ناضج. المتنورون الراغبون بتغيير الحال وجدوا أنفسهم قلّةً ليس من الكياسة إعلان تجمعٍ لهم وإشهار آرائهم بصوتٍ مرتفع. إذ سيغدون كفاراً بفتوى يصدرها رجلُ دينٍ حانق، وسيُنبذون من المجتمع ويُنظر إليهم على أنهم ممقوتون ليس من الإيمان اللقاء بهم والتحدث معهم، فآثروا الصمت أو الهمس بين مَن يخطون

على ارض الحياد، مُجاهرين بين اقرأنهم أنَّ مدينةً تعوم في مستنقع البداوة وتتنفس هواء الجهل لمن الاستحالة تغييرها، ومن العسر الدخول مع رجالاتها في حديث التحضّر والنظر إلى المستقبل على انه المنقذ لها والانشداد إلى الماضي على أنه انشداد إلى البؤس والتخلّف. إن الماضي لدى هذه الرجالات بمثابة ارثٍ مقدَّس حتى لو كان على حساب هنائها، والحاضر لابد أن يوظَّف لخدمة الماضي؛ أما المستقبل فزمن التطير منه والخشية من دنوّه. من هنا كانت النصائح تنهال على فارض العلوان في أن لا يندفع في مجاهرته برغبةِ قدوم الانكليز أو إظهار بغضِه السافر للأتراك لأنَّ الناس هنا لا أمان لهم. وإذا كان البعض منهم يقف إلى جانبه فلفائدة ذاتية يرجونها من القادمين وليس لنفع يعم على الجميع. لقد تنصلوا عن إمامهم "علي" حالما خسر معركة "صفين" ووجدوا أنَّ حلمَهم في غزو الشام وحيازة الغنائم استحال قبضَ ريح فراحوا يقدّمون الأعذار في محاربة معاوية حتى صرخ بهم جزعاً "لقد ملأتم صدري قيحا". وكان فارض العلوان يُبعد فكرةَ لقاء الانكليز قبل أن تفوه الأفواه المُحبّة بالنصائح، ويرفض التوجّه إليهم بالترحيب. لن يقبل دعوات سينثرونها أمامه بحجّة بناء علاقة تشاركية في الود والوئام والسلام . كان يرى فيهم كفّاراً لا يرون إلا منفعتهم، ولا يشغل بالهم إلا ما جاءوا لأجله وخططوا للوصول إليه. ولم يأبه لأخبار وردت إليه همساً، والتي مضمونها " أنَّ جابر الدخيل بعث رجلاً من اتباعه بالخفاء ليتَّصل بالانكليز المرابطين جنوب المدينة حاملاً رسالة يُبدي فيها استعداده للتعاون معهم كونهم أناس متحضرين يريدون للمدينة والبلاد الخير العميم ويمنحونه الحرية المُفتقدة، كذلك لتخليصِهم من الأتراك الذين يستهينون بالعرب فيطلقون على الكلب الأسود اسم "عرب" نكايةً وتحقيراً ". وأشارت الأفواه الناقلة للخبر الدفين أنَّ الانكليز رحبّوا به وراحوا يعزفون على وتر حرية الإنسان وحقه في العيش بكرامة، قائلين أنَّهم يبدون احترامهم لمَن يمد لهم يدَ الود، وسيقدمون

المساعدات بلا حدود."وزادوا في القول" أن الرجل عاد بصندوق مليء بليرات الذهب كعربون صداقة وعمل، وأنَّ جابر الدخيل التمعت عيناه من بريق المعدن الأصفر، وأعلن أمام المبعوث عدم تصديقه أنَّ هؤلاء القادمين يتمتعون بكل هذا القدر من الكرم. فجاءه صوت المبعوث: "لقد قالوا ابلِغ شيخكم أنَّ ما نقدمه الآن قليل ولينتظر الآتي.. "امتلأ بالدهشة لسماع حلاوة الكلمات، وسال لعاب رغبته في ملاقاتهم والتحدث إليهم وجهاً لوجه. نهض الذي في طُرقات دواخله رافعاً صوتَ الجذل: سأكون لهم أوفى رجل واخلص صديق."

حين سمع فارض العلوان هذا الخبر تفجّر غيظه، وشعرَ أن الدخيل يمارس لعبة الانتفاع كعادته في حيان الفرص أو تكرس الأحداث. إنّه لم يفكّر يوماً بمصلحة الناس المحيطين به بقدر ما هي مصلحته التي تعلوا. أمّا ناسُه فلا يرمي لهم غير الفُتاة كما لو كانوا كلاباً. إنَّ ذلك ليس من شيم المسلمين المؤمنين، وأنَّ التعاون مع العدو وتنفيذ أوامره أو حتى مهادنته يدفع بالمتواطىء إلى النار السعير، خاسراً فردوس الجنة. ومن اجل الإطاحة بسمعة الدخيل أوعز العلوان لرجالاته دخول السوق وارتياد المقاهي لبث الخبر وتهويل الأمر خصوصاً وأنَّ الدخيل استبق الاحتمالات بتوزيع هدايا لأتباعه ومنح المساعدات والصدقات بنفسه إلى المحتاجين والفقراء وخصوصاً مَن يسكنون الحي الغربي الذي يديره غريمه، إظهاراً لسماحته ومحبته للجميع دون استثناء.

ذلك الصباح التمّوزي وطِئت قدما الدخيل السوق يتقدَّم عدداً من الأتباع، متورّد الوجه. عيناه تنضحان ذكاءً ودهاءاً ؛ تحيات عاطرة وكسب ود؛ ودفين غيظ، وانشراح ظاهر، وتقبّل مثير، وتقييم حال.. كان طويل القامة، يستقر العقال الاسطواني الغليظ على رأسه والكوفية المرقطة نظيفة وناصعة فيما العباءة النازلة من كتفيه العريضين تبدو أكثر بهاءً، والصاية التي تحتها

رمادية اللون تترجم دواخله المعبرة عن مقدرته المكينة على تسيير أتباعه وأبناء طرفه. يلقي التحيات فيهب إليه أصحاب الدكاكين لردّها بالكلام المعسول المنمَّق سعياً لكسب رضاه وعدم إثارة دواخله الغضبى المتوارية خلف السحنة السمحة الغامرة وجهه.

ذلك الحضور إلى السوق، ونثر التحيات والابتسامات، وإظهار السماحة والتواضع يُعيد جلسة الأمس مساءً في مجلس فارض العلوان حيث عدد غير قليل من أتباعه ممّن يحتاجون رأيه أو يستأنس هو بآرائهم في قضايا تتطلَّب أكثر من تصوّر؛ تجمعهم أرض فُرشت بالسجاد على أرضية حديقة وسيعة تحيطها شجيرات الرمان والتين وأشجار السدر والتوت الوارفة والرجل القصير سرحان خادم المجلس بقامته النحيفة يوزع القهوة في الفناجين القلبية اللميعة. واصل الجالسون حديثاً كانوا ابتدأوا به. وخلاصة الحديث أن الدخيل ينوي كسب أكثر عدد من الناس إلى صفّه، لذا فهو يخطط للتحرك والتجوال في سوق المدينة وشوارعها؛ وهو لا يكتفي بضم أتباعه إليه إنما ينوي التحرّك على الغربيين لكسب ودّهم وإقناعهم بالوقوف معه في المستقبل من اجل مدينة ظلّت تنام تحت أغطية الإهمال والتجني، ويموت أبناؤها لأقل نازلة أو لأتفه عداوة غير مجدية.

– إنّه يرتدي جلباب الدهاء يا شيخ فارض. وظني أن ما سيفعله هو من باب الانتفاع الشخصي يضرب به عصفورين بحجر. يكسب رضا المحتل الكافر وفي نفس الوقت يُظهر حبّه وعطفه للمدينة.

قالها مسافر شقيق الشيخ فارض مستعيناً على خمسين عاماً من خبرة العمر. كان مسافر يصغر شقيقه بخمسة أعوام لكن ملامحه ورصانته يوحيان للناظر بأنه يكبر شقيقه.

أعلن معظم الجالسين تأييده، ما أشعره بحسن رأي طرحه. عدّل من جلسته على البساط الصوفي ذي المخمل المصنوع من خيوط ملونة صنعتها

امهر امرأة في صناعة البسط والأزر في محلة الغربي، ويسحب وسائد صوفية إعانته على الاتكاء بالوضع المريح لحظة أشار بإيماءةٍ إلى سرحان الجالس عن بعد في زاوية الحديقة خلف الدِّلال المنتصبة على نار من جمر لاهث ليخدمه بفنجان قهوة. نهض الرجل حاملاً دلّة وفناجين. شرع يسقي الجُلاس في حديث سيأخذ وقتاً تتداخل فيه الآراء وتتضارب، تُثثر الاحتمالات وتتحدد النتائج. وفي كل هذا وذاك يكون الدخيل ونواياه هو المحور. وحتى لو جُرَّ الكلام المتبادل إلى موضوع آخر فإنّه يعود مجدداً إلى موضوعة الدخيل، فقد غدا الهاجس الكبير لدى العلوان يؤججّه المحيطون، مشعلين نار النديّة بنتف أخبار ينقلونها إليه، مُسبغين عليها ألوان التهويل والتفخيم لتصل إلى مسمعه وكأنها أخبار ستطيح بهيبته وتدفع بغريمه إلى تسيّد المدينة كلّها.

بانَ الدخيل، بالتحرك الذي وصفوه، أكثر إدراكا لواقع الحال وأبعد نظراً من العلوان في التعامل مع الوقائع. فالذي يسعى للتواصل مع الحياة بنظرة تفاؤلية وينظر للمستقبل على أنّه آتٍ لا بد من استقباله وتهيئة مستلزمات هذا الاستقبال من اجل تحقيق نجاح يجعله محط ثقة واعتزاز بنظر المحيطين الأقربين، والأبعدين كذلك. ومَن يبقى منشدّاً للثوابت والأعراف ويجد في ما تراكم على كاهله من إرثٍ لا يتوافق وسير الحياة الناحي صوب زمن قد لا يطيق الوقوف مع ماضٍ تجاوزته اللحظات فكيف بإرثٍ يغوص ويغور في الحقب الثقيلة المتهالكة؟

كذلك ظهرَ أنّ تحركات رجال العلوان في بثٍّ ما يطيح بهيبةِ الدخيل لا تؤدي الفعل المطلوب، فقد ملَّ الناس حُكماً جاثماً على صدورهم، ووجد فقراء المدينة في الدخيل عوناً في الضائقة الضاربة بهم. فـ(ربّيات) تسلّموها منه رغم قلّتها خير من عزّةٍ ظلوا يحتفظون بها ويعملون على صيانتها فلم تجرّهم سوى إلى الفقر والجهل وتمادي الولاة..

إزاء هذين الموقفين كانت كفّة الدخيل ترجح في أن يكون التأثير له في القادمات من الأيام بينما سيضعف دور العلوان ولن يكون الند المؤثّر والغريم الكبير للدخيل.

وكان القائمقام يتحرك لجمع الغريمين معاً متَّخِذاً حديقة بيته مكاناً للقاء..

هناك أظهر الاثنان تواصلهما معه وأبديا استعداداً لتلقّي وتقبّل أوامره دفاعاً عن مدينة غدا الانكليز على مشارفها. وإثباتاً لحسن النيّة راحا يتباريان في تجميع الاتباع والقيام بتظاهرات حاشدة تنطلق من الحيّين متَّجهين إلى بيته عابرةً الجسر ومتخذة الشارع المحاذي للنهر درباً للاستعراض.. الرجال يحملون البنادق والسيوف والخناجر و"المكاوير" مرددّين هتافات تطالب بالجهاد والاستشهاد والفوز بالجنة.. تجمّع المتظاهرون وراحوا يدورون على إيقاع "هوسات" يرددونها والقائمقام يساوره شعور أنَّ الناس في قمّة وعيهم لخطبٍ يلمَّ بالمدينة وأوج شعورهم بالمواطنة. إذاً لن يتركوها تسقط بيد الانكليز. يُدقِّق في عيون الواقفين على جانبيه، الشيخين فارض وجابر. يبصرها عيوناً تتوهج، باثّة الزهو، معلنةً أن رجالهما الأشداء سيرفعون مقام الحكومة ويُدخلون الطمأنينةَ إلى قلبه. هو إذاً لن يفشل في الدفاع عن المدينة، ولن تكون المدينة لقمة سائغة في أفواه المحتلين.

من هنا صرفَ الوقتَ الطويل يحيّ المتظاهرين ويشدُّ من أزرهم مثلما يشدّون من عضده فكان إن استمرت التظاهرات حتى منتصف الليل انتهى بأن استدار إلى الشيخين يدعوهما إلى التوجّه سويةً نحو السراي. هناك اجتمع بهم وبقائد جندرمته وقائد الدرك معلناً أنَّ الأمر خطير ومن دون أن يكون هناكَ دفاعاً جاداً ومستميتاً فإنَّ مستقبل المدينة سيكون على كف عفريت، وأنَّ الضرر سيؤذي الناس فالحروب لن تكون نزهة على الإطلاق.

كرر الشيخان تعهدهما فأهاب بهما بعد أن شكرهما وقدم الثناء على مواقفهما التاريخية أن يتقدما صفوف أتباعهما حين يشتعل أوار المعركة

ليكونا الأنموذج الصادق. وبدورهما أبديا قسماً أن يدافعا ورجالهما حتى آخر قطرة دمٍ فهما يرومان الجنّة بكل شغفِهما ولا يريدان دخولَها إلا وهما شهداء ليكونا في علّيين.

ودَّعهما عند باب السراي ولم يحسب أنَّ آخر أسرار الحكومة صارت بيد الشيخين! ولم يستقرىء نوازع بداوة كانت انبثقت في دواخلهما فأعادتهما إلى حيث البدوي السلاّب النَّهاب الكامن في داخلهما.

توجَّه قائدا الجندرمة والدرك نحو معسكريهما.

صعد هو إلى مكتبه فأسرَّ لقائد حرس السراي أنه متعبٌ ويروم نوماً هادئاً...

ارتمى على سريره وقد أنهكته ليلةٌ حشد الإجهاد فيها جيوشَه ليهاجم جسدَه ويرميه بلا حراك، حتى أنه لم يفكر ماذا سيفعل غداً، ولم يُعر همّاً لاطلاقات كانت تخترق سكون الليل قادمةً من الجنوب حيث الانكليز يواصلون تحركهم، ذلك أن المدينة صامدة برجالاتها المسلحين، وعزم شيوخها المتعهدين.

****

لم ينم الرجل غيرَ ساعات حتى جاء قائدُ حرسِ السراي ينقرُ على بابِهِ هامساً وجِلاً، وبصوتٍ خفيض:

– بيك.. بيك! "إنهم ينهبون مخزن التموين.

كان ذلك في لحظات الفجر الفضي الداكن لليوم الخامس من تموز من العام ١٩١٧.

وفي ساعات ما بعد الظهيرة في واحدة من صفحات تحمُّل المسؤولية وامتحان قدرة الرجال أوعز وسط عويل النساء ومحنة الرجال وقسوة الحصار المفروض عليهم إلى أحد رجالاته التسلل إلى الشيخين يرجوهما فكَّ الحصار، وسحب المهاجمين من أتباعهما، والسماح للموظفين وعائلاتهم بالخروج من

المدينة مُعيباً عليهما موقفهما غير المبالي بما يحدث للعائلات والموظفين الذين كانوا يخدمون المدينة.

لم تمض ساعتان حتى جاء الرد أنَّ زورقاً كبيراً هو الآن يرسو في النهر وبإمكان الجميع اتخاذه والرحيل من المدينة بأمانٍ ويسر، وبلا خشية.. سحبت الصدور أنفاس الارتياح وهدأ صراخ الأطفال؛ وتهيأ الجميع للتحرك بعد حوار دار بينه وبين موظفيه خشي بعضهم أن يكون هذا فخّاً وضع للإيقاع بهم وبعائلاتهم، لكن الرأي النهائي استقر على ضرورة الخروج إذ ليس من الصالح المبيت في هذا المكان لئلا تجري إغارة ليلية عليهم فيقضونَ جميعاً.

تحركت جموع العائلات خارجاً من بيت القائمقام مشياً وهم يحملون ما قدروا عليه من ملابس وإغراض ضرورية. تحركوا قاطعين الشارع المطل على النهر. ولم يكن الزورق هناك بل شاهدوه في الضفة الأخرى. هذا يعني عليهم عبور الجسر والسير قليلاً ثم الصعود إليه والانطلاق شمالاً باتجاه الرميثة.

أصواتُ مدفعية الإنكليز تُسمع بوضوح، والعائلات تتحرك بمشاعر ارتياح يشوبها الخوف من المجهول. في الحشد كانت وهيبة أكثر الذين يشعرون بالألم ويلومون القدر على فعلته، متمنيةً شيئاً واحداً أرادته أن يحصل طالما أصبح خروجُهم عن المدينة أمراً واقعاً. لذلك ما أن عبروا الجسر وشاهدوا جموع سكان المدينة يقفون هناك لمتابعة مشهد السبي حتى حفّزت العينين للبحث بين الوجوه.. (لا بدَّ أن أراكَ!.. أدري انكَ غير قادر على إيقاف هذا السيل من التجنّي لكنّي أدري أيضاً أنكَ لن تخذلني فتتوارى هذه اللحظة.).. لقد نسيَت المحنةَ بكل عُظمها وهولها وصار همُّها الوحيد أن ترى الحبيب. لا تُريد مبارحةَ المدينة وفي قلبها غصّةٌ لا يبددُّها الزمن أبداً.. لا تريد أن تغادر بلا وداع.. بل تريد أنْ تبعث برسالةِ نظر على الأقل، قائلةً: سنلتقي! سنلتقي، وستبقى روحي تهفهف بأجنحةِ

الشوق إليك!".. تُريد أن تتلقّى من عينيه رسالةَ العهد في أنْ لا ينساها. تريد أن تَسمعه يقول: "وهيبة.. كنتِ الأمل في هذه المدينة وستكونين الأمنية الساعي بكل جهدي ونزوعي ومشاعري وتهالكاتي وضياعي بعدِك لحيازتها.. سنلتقي، يا وهيبة.. نعم سنلتقي!".

حشدٌ كبيرٌ من الرجال والنساء والأطفال يخرجون من السوق والأزقة يلتقون في حشدٍ لمشاهدة مَظهر السبي والانتهاك غير الإنساني. مسحوقُ الطحين الذي نهبوه صباحاً ما يزال يعفّر وجوهَ الكثيرِ منهم.. الغريب أنَّ الدموعَ راحت تسيح من عيون المتطلعين واندفع الكثير منهم يفوه بكلمات الاعتذار ودعوات الصفح مُقدمين أعذاراً بأنهم ليسوا المتسببين في ما حدثَ بينما نظرات الطعينة لا تني تتابع الوجوه والقوامات. لم يكن يشغلها غير أنْ تشاهد الجريح الصاغر بينها.

ولم يكن هو ببعيد!

"يا إلهي!".. يصرخَ في داخله صرخةَ الجزع والألم وقلّة الحيلة.

يبصرُها الآن بين حشدِ العائلات المُتحركة بخوفٍ ورِيبةٍ ممّا قد يحصل، لكنّه لا يروم الظهور بينهم لئلا يُحسَب أحد السارقين والمهاجمين ممّن تسببوا في جُرحهم وإيلامِهم.

ظلَّ متوارياً، مُبصراً العينين الحزينتين المرتعبتين مشغولتين في البحث عنّه. أصابه سهمُ الجزع فأوشك أن يرديه قتيلاً. تبحث عنه فيتلاشى خجلاً. قلبُه يخفقُ كما عصفور يبغي الانفلات إلى فناء البوح ليرتمي على القلب الرهيف الذي لا يبعد سوى أمتارٍ من اللهفةٍ ليعانقه ويعتذر عمّا يجري. يتمنّى لو امتلكَ زمام الروح لاندفع أمامَ الجمع السائر والمتوقف وأفتضَّ زحمةَ الحشد ليوقِف عقاربَ الزمن مُعلنا أنه يحب هذه الفتاة التي تعمل قبضةُ التجني على اختطافِها منه ورميها في غياهبِ المجهول..

لم يستطع الصمود..

لم يحتمل التواري.

(لن أترك للقدرِ تحقيقَ ضغينته؛ ولا لفخاخِ الغدر النيلَ من حبي.) رفع قامته، وتحرَّك ليكون في مواجهةِ الجموع. تلك اللحظة الفالتة من عنق قارورة القدر الرمادي طارت عينا وهيبة تبلغانه عُظمَ اللهفة. وتبصر الشفتين تنفرجان فتقولان: آآآه جعفر.. جعفر!"..

كان عليه التحرُّك اندفاعاً، مخترقاً العوائقَ البشرية والعيون ليحتضنها ويطبع قبلاتِ حبّه الذبيح غير آبهٍ لنظرات الآخرين.

كان عليه الاعتذار من أبيها وأمّها وإعلان حبّه الطاهر لابنتِهم.

كان من الأولى أن لا يتركها تعوم على موج التيه مُبحرةً بنظرات كسيرة، وكان الأجدر أن يصرخ بأهلِّ مدينته أنهم بفعلتهم هذه يغتالون حبّه ويهتكون مشاعره.. لكن كل هذا لم يحدث. فقد مرَّت قافلة السبي، واندفعت بعيداً باتجاه مرسى الزوارق. كان الجميع قد صعد... وتحرّك الزورق مبتعداً. لم يشعر احدٌ من ركابه بالأسف على المغادرةِ باستثناء وهيبة، أحسَّت لأولِ مرّةٍ أنها بحاجة إلى أنْ يفيض دمعُ عينيها، وأنْ تنتحب كما الثكالى. ولقد شاهدتها الأم وأبصرها الأب. لم يدركا سبب البكاء الحقيقي، بل ظنّا أنَّ الموقف بما يحفل من تجنّي هو ما جعل البنت تفجِّر الدموع فانطلقا معها في نوبةِ بكاءٍ مرير، انظم إليهم الصغار الثلاثة وسط حيرة أفراد العائلات ودهشتهم. أمّا هو فقد خلّف وراءه جموع المودعين الملوثة وجوههم بالطحين بعد غياب الزورق في انعطافة النهر وكثافة البساتين وتحرك صوبَ السلم الحجري المؤدي نزولاً إلى جرف النهر.. هناك جلس على قطعة حجر مرمرية وراح يبكي خسارةَ حبيبةٍ خطفتها يدُ الأقدار عنوةً من بين أصابعِ أمنياتِه.

تتقاطر دموعُهُ وتتساقط في مياهِ النهر!

تتقاطر.. فتمتزجُ به.

تمتزج به.. فتضيع.

الفصل الثاني

كَم من زمنٍ طويل نحتاجه قبل أن تنتشر موجات الطمأنينة
من مركز ألفتنا لتصل نهايات العالم.

غوستاف باشلار

جماليات المكان

وهكذا فأنا مركبٌ ضائع تحت شعر الخلجان
مقذوف بالإعصار في أثير لا طير فيه.

آرثر رامبو

إنَّ ما هو مُضنٍ هو وحده الذي يمكن
أنْ يغدو ممتعاً.

توماس مان

جبل السحر

(١)

نهضت بهيّة على إيقاعِ نهوضها اليومي المعتاد في التياترو تاركةً وفيّة ونجيّة راحلتين في زورق أنسام الفجر حيث أواخر أيام آب من العام ١٩١٩ تشي بقدومِ موجات البرد تنده عليها أُخريات ساعات الليل، فقد مرَّ صيفٌ لاهب لم تعهده المدينة منذ أعوام غائرة كأنّه جاء ليكون رديفاً لسخونة الأحداث التي مرّت بها، إذ عمّت الفوضى حالما هرب آخر جندي تركي وانكفأ المجاهدون الذين تقاطروا جنوباً عبر أشهرٍ طوالٍ لنصرة الأتراك كأخوةٍ في الدين، وأثبتت الوقائع أنَّ البقاء والهيمنة لمن يمتلك المقدرة ويستخدم العقل، أما الضعيف المنتظِر قوىً خارقة ستأتي يوماً لتقف إلى جانبه انكفأ ذليلاً، حسيراً، مهزوماً.

تلقفت قدميها درجاتُ السلَّم فأوصلتها إلى الحوش (الحوش يشيع فيه نور الصباح). اتجّهت لغسل وجهها ثم التهيؤ لإعداد الفطور لها ولرفيقتيها والشروع كعادتهنَّ اليومية بإعداد متطلبات التياترو الذي تركه زبائنُه ليلاً حيث غسلُ دِلال القهوة والفناجين وأقداح تقديم اليانسون والبَلَنكو والصودا يشمِمنَ فيها رائحةَ خمرة لرواد يتناولونها خارج التياترو ويدخلون متمسِّكين بتعليمات جبار الغاوي (الغاوي مالك التياترو لا يُجيز للمخمور الدخول تلافياً للفوضى وإبقاءً على حسن سمعة المكان)، كذلك غسل أراجيل تركها المدخنون وهم يرحلون على أنغام الرَّبابة والطبلة وتهادي أجسادهنَّ وصوت العازف وهو يحاول جعل أداءه مُحبباً للجميع تنافساً مع زميلين له لا يقلاّن مهارةً عنه في رحلة تمتع يمتزج فيها إشباع النظر من جسد أنثوي مع امتلاء السمع بأنغام تثير في الروح رياح اللهفة وإثارة المكامن على حبيب غاب أو أيام ضاعت، أو انتظار لأمل سيأتي، أو نصب شراك لإيقاع بغزال نافر لا يرتضي السقوط في شباك الصيّاد المتلصص. رأت أن أرضية التياترو تحتاج

إلى جهد مضاعف لكنسها وتنظيفها فقد زاد عدد الرواد، وزادت مصروفات باتت تُنفق في التياترو منذ قدِمَ الانكليز وانكفأ الأتراك. أموال كسب الكثيرون منها في لعبة التأثير والحرب الإعلامية المبنية على ترويج الإشاعات ونقل الأخبار. فصار بالإمكان مشاهدة الكثيرين ممّن كانوا حُفاة عُراة استحالوا ذوي مظهر مثير للانتباه يجلسون في المقاهي بمباهاة وألق. يشربون الأراجيل لعديد المرات يومياً ويحتسون فناجين القهوة المهيَّلة بلا عدٍّ؛ وصارت نساؤهم تدخل السوق لتبتاع ما تريد لهنَّ ولأبنائهن من فخار الأقمشة وجميل الملابس، فقد أنفقت الأكف العثمانية الخفية الكثير لمثل هؤلاء من اجل حصول الفوضى بناءً على تأليب الشكوى وتأجيج مشاعر الإحباط، وإيصال الناس إلى رأي يقول لو كنّا على أيام زمن الترك لكان أفضل واهنأ وما كنا نعيش هذا التخبط وعدم الاستقرار، مع أقوال تتداول في المقاهي والجلسات تشير إلى أن الترك سيعودون وأنَّ الانكليز لا يبقون على ارض ليست لهم، وأنهم منهزمون لا محالة؛ في حين يستفيد آخرون من أموالٍ يصرفها الانكليز لتثبيت مراكزهم ونشر الأخبار القائلة أنهم باقون وما بقاؤهم إلا لنصرة هذا الشعب المسكين. شعبٌ أطاح الترك بهيبته تحت ستار الدين وها هم الانكليز يأتون ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ويطردوا الأعداء إلى غير رجعة. يفتحون الأبواب للجميع بلا خشية ولا خوف. ومن له شكوى أو حاجة فما عليه سوى أنْ يذهب لمضيف الشيخ الدخيل وعرض حاجته أو الإدلاء بشكواه، ولن يخرج إلا وقد حُلّت مشكلته ولبّيت حاجته.

وما أن أنهت واجبها اليومي حتى نادت على رفيقتيها كي تنهضا. ولم تجد الاثنتان بدّاً من النهوض رغم رغبتهنَ في الاستمرار بالرقاد بعدما أتعبتهما وصلات الخدمة والغناء والجهود المضاعفة، ومشاكسات الرواد خصوصاً أولئك الذين يدخلون مخمورين وقد زاد عددُهم اثر افتتاح محلين لبيع المشروبات الكحولية بجوار التياترو حيث يكرع أغلبهم قبل الدخول

أقداح "العرق" المُستحلَب يؤتى به من مدينة الموصل شمال العراق ليباع هنا من قبل رجلين مسيحيين قدِما على نصيحة مترجم عراقي من الموصل أسمه (إلياس) كان يصاحب القائد "تومسن" ويترجم حوارات تحصل بينه وبين الموظفين أو المواطنين. كانت الخمرة قبل قدوم المسيحيين تُصنّع خفية من قبل أشخاص لا يجودون بها على غيرهم. أولئك هم الذين لهم حظوة في المدينة كونهم يعيشون تحت ظلال الحكومة الوارفة فلا احد يستطيع الاحتجاج عليهم أو يرفع صوته لمنعهم لذلك كان تداول الاحتجاج يتم همساً في وقت كان المتعطش لتناول ذلك الشراب السحري يُمنّي نفسه بقدح يكرعه أو رائحة يشمها تشيع في دواخله روح الخدر اللذيذ.

عندما دخل جبار الغاوي التياترو ظهراً ألفاها نظيفةً مُرتبة الترتيب الذي يرضيه فاستقبلته نجيّة بالترحاب وقد تهلل وجهُها، منتظرةً كلمات الثناء يغدقها عليها وعلى رفيقتيها؛ ذلك أنَّ التياترو صار يدرّ عليه ربحاً وفيراً وأموالاً كثيرة جعلت منه شخصاً يُستقبَل بعين الترحاب وصار مَن يقدّم لهم اهتماماً في التياترو يُظهرون تقديراً زائداً حين يلتقونه في السوق أو في الطرقات.

لم يندّه عليهن كعادته اليومية ويغدق كلماته الودود؛ بل طلب من وفيّة إعداد أرجيلته الخاصة وأومأ إلى نجية أن تتبعه إلى غرفته (يتخذ الغاوي من الغرفةِ مجلساً لزوارٍ يكنُّ لهم احتراماً مميّزاً). هناك خلع عقاله والكوفية تخفيفاً لحرارة شمس آب الساخنة المتسللة إلى يافوخه وترك غطاء الرأس القطني الأبيض يخفي مساحة صلعٍ واسعة. جلس خلف منضدته الخشبية اللامعة المصنوعة من ساج هندي لا يوجد منها في المدينة غير التي في غرفة القائمقام. وقفت المرأة الأربعينية أمامه وجِلةً إذ تهجَّست أمراً غير اعتيادي، وخمّنت شيئاً يثير التوجّس. وبدلاً من أن تسأله عن ما شرع يتسلل إلى وجهه من كدرٍ وغيظٍ راحت تنهال عليه بكلمات التقدير والامتنان لما

يقدّمه لهنَّ من احترام وثناء.

– نجية! أنت تعرفين أن التياترو ما قام واستمر إلا لأننا نحافظ على عهدٍ قطعناه مع أنفسنا في أن لا نسبب الضرر لأهل المدينة؛ والمدينة كما تلمسين لم يسبب أهلها لنا أذى منذ افتتحناه قبل خمسة أعوام بشعارٍ حفرناه في دواخلنا: مَن يريد دخول التياترو مَرحباً به، ومَن لا يرغب فليس لنا عليه شيء.

– لم أفهم، يا أبا ستّار!.. جاء اندهاش نجية يسبق ارتعاش أصابعها التي لحظها الرجل الغاضب.

– بهيّة!

– ما بها؟!

– تجنّت في غواية جعفر ابن حسن درجال. جاءني مَن يُسرَّ لي بذلك. هذا شاب لم يتجاوز العشرين، وبهيّة بأعوامها الثلاثين ستتسبب بفضيحة لا قدرة لنا على تحمل تبعاتها.. إن عَرفَ أبوه بسلوكها مع ابنه سندخل في نفق لا نهاية له. وسكّان محلّة الغربي سيهبّون علينا ويدمّرون كل شيء.

حاولت نجية تقليل احتدام الغيظ المتنامي مع كل كلمةٍ يقولُها الغاوي، مشيرةً إلى أن ما سمعه لا يعدو أن يكون كلاماً يُراد به تهديم روابط الألفة داخل التياترو، وأنَّ جعفر لم يأتِ غير مرات معدودات كان فيها شخصاً استغربنَ وجوده نظراً لصغر سنّه.. ساعتها تعهدت أنها ستتحقق وتتابع حركات بهيّة مثلما تلاحق نظرات الشاب؛ مؤكّدةً أنّه كان يجلس لوقتٍ قصير ثم يتحرك خارجاً دون ما يشير لسلوكٍ يثير الشك.

((للحق أقول أنَّ الشاب دخل التياترو لأول مرّة بعد أشهر من انتشار الفوضى وقدوم الانكليز. يتخذ مكاناً قصياً كأنّه يسعى للتواري عن الأعين. وحين يقدّم له العامل القهوة الحلوّة يطلب استبدالها بمرّة يقول أنها تفتح مغاليق دماغه رغم مرارتها وفي بعض المرّات يطلب قنينة صودا أو سيفون.

في البدء اعتبرناه متكبّراً لأنّه يدخل ببدلةٍ حضرية لا يرتديها إلا الموظفون أو أبناؤهم فلا ينطق بشيء.. قالت عنه وفيّة انّه يتباهى بملبسه الأنيق ويتعالى على أبناء مدينته. وقالت بهيّة: هذا شاب رمت به أمواج صاخبة في داخله إلى شاطىء التياترو!.. ولم تزد على ذلك. لم نكتشف شِباك صيدِها إلا عندما سحبت مرّةً ستار نافذة الغرفة المطلة على فناء المقهى وتخوته فأبصرته في مجلسه اليومي ساهماً. رأيتها تهز الستارة للفت انتباهه. حتى إذا خرج من سهومٍ كان يتيه فيه سقطت عيناه على ابتسامةِ وجهِها العريضة فصعقه بريقُ تلك الابتسامة وطفق يحدّق فيها. تلك اللحظة انسحبت هي تاركةً الستارة تلعب دور الجدار العازل لصيد ابتسامة أخرى أو ابتسامات ستجعله يرابط في التياترو فلا يرغب بمبارحتها.

في الأيام التالية بدا أنه وقع في شباكِ صيدِها، وبدت أنها أحبته، فلم تعد تولي أهميةً للروّاد صارفةً ساعات ليلها سارحةً غائبة في عالم عشقِها له.. وفي يوم أسرَّت لي بحبّها الحقيقي: فرحها بحضوره، ولوعتها بغيابه، اكتشفتُ أنَّ حبّها له يفوق ما كان يفكّر به تجاهها. كشفت لي أنه كثير الشرود. وفي حالاتٍ يذهب ساهماً فيتمتم بكلمات لا تفهمها . يتحدث كأنّه يكلِّم فتاةً غيرها. وحين سألتها عن بواكير علاقتها به وكيف توالدت لدرجةٍ وصلت حدَّ الشغف راحت تقص وتفيض:

– بعد مغادرة الموظفين وعائلاتهم المدينة وغب مرور أسابيع أبصرته يوماً يعبر الجسر متجهاً إلى صوبنا.. يمدني التطلع من حائط السطح بانشراحٍ روحي الباحثة عمّن يسقيها عَذب الوداد والعشق الصادق؛ الجسر يمنحني مشهداً جميلاً يغريني بالنظر إلى عابريه ومتابعة حركة الناس هناك في الصوب الكبير.. كنتُ أبصر القائمقام في عبوره إلى السراي وعودته منه فأتمنى لو كان المؤمل لي والمرتجى. لكن مَن يقفز من وادٍ إلى قمّة جبل، ومَن لا ترشقه كفُّ الواقع بالاستهانة والسخرية حين يفكر بمطربةٍ تعيش في

تياترو تروم امتلاكَ قلبِ موظف في اعلى رأس السلطة؟!.... أبصرتُه يكرر عبورَه فلا يدخل الشارع باتجاه التوراة اليهودي ليواصل طريقه نحو البساتين بل ينحرف يساراً صوب بيوت الموظفين الخالية من أهلها.. تكرارُ حضورِه أثار فيّ سؤال الفضول.. يأتي مُهندما بالسترة والبنطلون ويخطو كأنه أحد موظفي الحكومة. بعد وقت يعود فأراه من مكاني يجر الخطى تعباً كأنّه عاد من عمل تطلَّبَ جهداً وفيراً. في منتصف الجسر يلتفت ليبعث بنظره صوب الشارع الذي يقود إلى بيوت الموظفين ثم يواصل خطوه المنهك المبعثر."

"وحين شاهدته على احد تخوت التياترو طارت طيور البهجة في قلبي وامتلأ فضاء روحي بالدهش.. لم اصدق وأنا أزيح ستارة نافذة الغرفة أنّه هو. يمسك جريدة "العرب" التي يؤتى بها من بغداد. أسمع زبائن التياترو يتحدثون عن فنّه الساحر في إجادة الرسم . وأسمع أنه رسم منظراً طبيعياً(*) على جدار داخل مقهى برهوم في سوق الحدادين، وأن ذلك المنظر جعل عدد الرواد يزداد رغبةً في الجلوس؛ وأنَّ لديه كراسةُ رسمٍ (**) صبَّ فيها رسوماً لوجوهٍ، ودروبٍ، ومناظرَ طبيعية."

(*) كان المنظر لبيت من بيوت الصين ذي السقوف القوسية المنحنية للداخل والحادة من الأعلى ربما شاهده في الصور الملتصقة في " أطوال " الأقمشة المستوردة من الصين. بيت يطل على بحيرةٍ ماؤها ازرق صافٍ تعوم عليه ثلاث بجعات بيض وعلى ضفاف البحيرة البعيدة تحتشد أشجار سرو داكنة الخضرة في وقت كانت فيه لحظات الغروب تشيع والقمر ينضح لونه الفضي في محاولة تعويض ضوء الشمس المتلاشي منسحباً خلف الأشجار. وهناك عند ممر يشكل شرفة البيت الرئيسية ويطل على ماء البحيرة ثمة فتاةٍ تجلس ساهمة لا يدري المشاهد هل تنظر إلى الماء بتفحّصٍ أم أنَّ شيئاً ما يسرقها من رومانسية المكان فيأخذها بعيداً!. جاءت فكرة رسم هذا المنظر عندما تعرّف عليه إلياس مترجم القائد تومسن فشاهد لديه كرّاساً ضمَّ رسوماً لوجوه رجالية متميزة حفرت في بعضها

أزاميل الأعوام على تقاسيمها فأظهرتها نماذج لشيوخ افنوا العمر في كدٍّ وتعبٍ وإنهاك فيما أخرى لشبابٍ يتبارى الألق على القسمات والعيون تتدفق إشراقاً، تطلعاً لحياة يُراد لها أن تكون بهيجة ممتعة. وفي صفحاتٍ أخر رسوماتٍ لوجوه أنثوية فاتنة حوت عديد الصفحات وجها واحداً لفتاة ولكن بأوضاع مختلفة. قال له: أنت رسّام باهر وتخطيطاتك تنم عن امتلاكك موهبة متميزة. ثم أبدى نصيحةً له أن يرسم المَشاهد الطبيعية، تلك التي تشغل بال فناني أوربا تلك الأيام. وراح يردد له أسماء الرسامين واهتماماتهم بالمشاهد المستلة من الطبيعة وتأثير الضوء على فضاء اللوحة ومحتوياتها. فكان منظر المقهى باكورةَ عمله بناء على فحوى النصيحة. يومها اندهش المترجم وصار زبونا منتظماً في المقهى لا لشيء إلا ليتيه في عالمها الجميل وثراء فحواها المثير

(**) هامش كراسة الرسم:

(١) الصفحة الأولى:

ثمة مشهد يصور الفرات والضفة الأخرى.. ضفة الصوب الآخر / القشلة، صف بيوت يحيطها نخيل باسق، وأدناه أشجار متكاثفة. على حافة الطريق الذي يفصله عن النهر جدار يعلو بنصف قامة إنسان تراصفت فيه أحجار مرمرية بيضاء، يهطل من فوقها ظل لشجيرات كالبتوس ناهضة توّاً.. ثلاث كتل سوداء يبدو أنها كتل بشرية أنثوية تتخذ من ضفة النهر وضوحاً فتبدو كنساء يجلسن في حديث مع مخلوقات أعماق الماء.. هل كانت إحداها لوهيبة؟!

(٢) الصفحة الثانية

سوق المدينة من المدخل المواجه للنهر.. على اليمين مقهى جبر.. تخوت واهنة وجلاس خاملين بعقلهم الغليظة ويشاميغهم البيضاء المرقطة الموحلة وجبر بعشريناته العمرية يلفُّ حاملاً دلّة البن وفنجاناً بين التخوت تلبية لرغبة مَن نادوا عليه ليسقيهم.. وعلى اليسار مبنى السراي وبابه الخشبي المرتفع والمشرع على مصراعيه يقف عنده عنصر من الجندرمة بطربوش منتصب وشاربين بارزين يقطعان وجهه عرضياً بينما كتفه الأيمن يحمل بندقية عتيقة بالية.. فم السوق دخولاً يعرض على يمينه مكتب الشيخ محمد خلف منضدة وقد انحنى ليكمل كتابة عريضة لرجل يقعي كأنه يقص مظلوميته لعرضها على مسؤولٍ سيراجعه ويتضرع إليه. على اليسار مدخل دائرة البريد ودكته العريضة وقد همَ رجلٌ يرتدي بدلة عصملية بالسترة والبنطلون والفينة. عمق فم السوق يتوه في خثرة دكينة إلا من بصيص ضوء يهطل من أحد ثقوب سقف السوق المعدني فيرسم أشباحاً لمتسوقين ومداخل دكاكين

مضببَّة.

(٣) الصفحة الثالثة

يبدو أن قلم الرسام تبارى في رسم حدّاد يمسك مقبضاً مكيناً.. راح يتحكم بنظرات الرجل الحداد فجعله متجهم القسمات. يظهر على يمين السندان الحامل لقطعة الحديد المُعالَجة نارٌ لاهبة يؤججها صبي شاحب- بثوب مخطط بانت عليه تمزّقات عديدة ومحاولات رتق لم تنفع – منهمك بمنفاخ يمسك قبضتيه فيحركهما انفتاحاً وانغلاقا. وعلى يسار الرجل هناك سلاسل تتدلى من مقدمة الدكان وفؤوس تتكىء على الجدار بانتظار مَن يبتاعها أو لعلّها صُنعت لزبائن طلبوها على أمل أن يعودوا لاستلامها.

ما يلفت الانتباه في اللوحة تركيز الرسام على قطرات عرق كانت تتساقط من وجه الحداد لحظة انحنائه وبقصدية واضحة من الرسام في جعلها بحجم أكبر من المعتاد، وبغزارة أكثر ممّا تُحتَمَل.

"وفي ساعةِ عصر ربيعي والروّاد لمّا يزدادوا بعد أبصرته يدخل التياترو. كان الرواد ثلاثة أنفار أو أربعة. تحيّنتها فرصةً لا تعوَّض في التحدّث إليه والتعرّف عليه عن قُرب. وقفتُ أمام المرآة لأتفحصَّ مظهري إن كانت له قدرةُ التأثير عليه، ثم اندفعتُ خارجةً. فوجئت بانشغاله بمطالعة الجريدة. بدا كأنه لم يتبيّن وقفتي أمامه فناديت على العامل من اجل تلبية طلبه. تلك اللحظة رفع عينيه من اسطرَ الجريدة وراح يطالعني.. أطلقتُ عليه سؤالاً اتسعت له عيناه:

– سمعنا أنّكَ رسام، والناسُ يتحدثون عن فنّك؛ أريدُكَ أن ترسمني.

توقّفَ مندهشاً.. وفاه بما لا يدريه استهانةً أم جِدّاً:

– أرسمكِ.. ولكن بشرطٍ، أتقبلينه؟

وقبل أن أستفهِمه عن هذا الشرط نادت عليَّ وفيّة.. ولحظةَ عدتُ لم أجده. كان قد خرج تاركاً الجريدة على التخت وقدح الشاي نصف مملوء."

(٢)

مع انحرافِ الزورق مُقلّ الموظفين وعائلاتهم وغيابه في انعطافة الفرات عمّت السماوة الفوضى، فلم يظلُّ مكانٌ تابعٌ للحكومة إلا واستبيح ونُهب كلُّ ما فيه فعادت المدينة عقوداً مديدة إلى الوراء وعمّت فكرة كينونة الحيّين "الغربي" و"الشرقي" تكرِّس هيمنة "العلوان" و"الدخيل". مُجدداً لاذت الناس أكثر فأكثر بخيمة التكتّل الجمعي حيازةً للقدرة على مواصلة العيش بحماية جماعية يديرها الشيخان لا بحماية فردية ستكون قشّة في مدٍّ مائي هادر. ولأنَّ المُلمّات تتبدّى اختباراً صارخاً لمقدرة التواصل العيشي اليومي فقد كان أصحاب الدكاكين أكثر الناس خشيةً من حصولِ الفوضى وأشدَّ تحركاً لتكريس بروز هذا التكتل تحت راية شيخ تُطيعه الجموع. تأتي تلك الخشية من حرصهم على ممتلكاتهم وبضاعة ستُنهب برمشةِ جفن عندما يتفاقم السوء في نفوس البعض. سيهجمون على دكاكين السوق كما هجموا على مخزن التموين ودوائر الحكومة ومعسكر الدرك وبيوت الموظفين سارقين كلَّ شيءٍ. ويوم دخل الانكليز بقواتهم وجال القائد تومسن في السوق المسقف وسار على كورنيش النهر متطلعاً بفراسةٍ لاختيار موقعٍ له يذكِّره بنهر (التايمز) الذي يمر بمدينته لندن سحبت الصدور أنفاس الارتياح، وشعر أصحاب الدكاكين ومعهم معظمُ سكان المدينة أن هؤلاء الرجال المتحضرين لن يتركوا الوضع سائباً ولم يأتوا ليخرجوا بعدما عبروا المحيطات والبحور وقطعوا الفيافي ودفعوا جنوداً لهم ضحايا في معارك طويلة دامت أعواماً ابتدأت العام ١٩١٤.

كان أكثر الناسِ سعادةً لدخول الانكليز المدينة هو جابر الدخيل. إذ بمجيئهم مالت الكفّة لصالحه؛ هو الذي أبدى يوما ما رغبته في التعاون معهم في حين تراجعت وجاهةُ العلوان. الذي أدهش الناس هو عدم إنزال العقاب في العلوان رغم وقوفه ضدهم ومحاربته رجالهم، حتى وقتل الكثير

منهم في المعركة الحاسمة التي جرت عند شاطىء الفرات المواجه لبستان محمد علي يوم كان العنفُ هادراً أبلى رجالات الحي الغربي بلاءً زرع الجزع في نفس القائد تومسن ومساعديه. وحسب الناس بسقوط المدينة أنّه سينتقم من العلوان وأتباعه شر انتقام. لم يحصل ذلك على الإطلاق. بل تُرِكَ يدير دفّة الحي الغربي كما كان من قبل لكنه لم يمنحه وجاهة منحها لغريمه.

ولأنَّ الريح مالت صوب الدخيل مال الناس نحوه أيضاً. يؤمون مضيفه فيحتشدون فيه. يستأنسون بآرائه ويأخذون مشورته ويتقبلون النصائح، وهو الأعلم أنَّ هذا لم يكن ليحصل لولا قوة أسبغها عليه "تومسن" . ومن جانبه لم ينم تومسن ليلته الأولى إلا في بيته دلالة الوثوق بتابعٍ لهم قدّم مساعدات ومعلومات استخبارية غاية في الأهمية أفادتهم في دخولهم السريع للمدينة. والأكثر من ذلك تلك الحفاوة والاستقبال المَهيبين لم يشهدهما في مدينةٍ أخرى. لقد استقبلته المدينة بالترحاب والتهليل فيما النساء أطلقن الزغاريد ابتهاجاً بالقدوم.

نعم! صار مضيف الدخيل قبلةَ يتجّهون إليها أو خيمة يستظلّون بها، وراح الكثير من سكان الطرف الغربي أتباع العلوان يزورون الدخيل مظهرين الموالاة له وشكره على نّعمٍ حققها للمدينة أقلها حالة الهدوء العميم. فلم تحدث فوضى كبيرة ولم تطل مثلما حدثت في المنتفك / الناصرية والديوانية يوم دخلهما الانكليز فألفوهما بلا سلطة تفرض وجودها، بل فوضى عارمة سُرقت فيها المحلات وانتهكت الممتلكات. والدخيل يعد الرؤوس المحتشدة في مضيفه ويمسح بعين المتفرّس نظراتهم. يمرر كفّه على لحيته، يمسّدها وهو يتمتم نصف بيت شعر لا يدري أين سمعه: "إذا الريحُ مالت، مال حيثُ تميلُ". شعور بالزهو والامتلاء يتفاقم في سماء الروح. لقد حقَّق انتصاراً على غريمه. ولم يعد الغريم ذا بالٍ بنظره.

أكثرُ الناس فرحاً أيضاً كان وارد السلمان وشاكر حسّان. اعتبر هذان

المتحمسان للتحرير وركوب زورق الحضارة دخولَ الانكليز انتصاراً لأفكارهم وتصديقاً لتصوراتهم لذا راحوا يتبارون في التحدث في أي مكانٍ يجلسون: في المقاهي، في الدواوين، عند عطّار يبتاعون منه أو بائع خضار يسألونه عن نوعٍ لا يوجد ضمن معروضاته. تحدثوا بلسان البهجة عن انتهاء الكابوس وقدوم شمس التحضّر. وكان تصرفهما هذا عفوياً لا تستخدمه جهةٌ ما أو تديره عيون خلف الأستار. كانا ينظران إلى العالم فيجدانه يتقدم والعراق يتراجع. شعوب تنهض من حضيض العتمة لتعدو راكضة باتجاه النور. كانا دائماً يصرخان "لماذا يبقى شعب العراق غارقاً في عتمة التخلف وغيهب الضياع. لماذا لا نصبح مثل هؤلاء؟ لماذا لا نقتفي أثرهم طالما هم يتطورون ونحن نراهم بعين العقل أنهم على صواب؟ ما الذي جعلنا على ضلالة في حين نوهم أنفسنا أننا على صواب؟ "

كانا يعزفان الكلام مفعماً بالأمل وبعفوية نقاء يجيش في قلبيهما وصدق قول يرددانه كلحنٍ أثير، داعين أن ينتهز الشيعة الذين يشكّلون الأغلبية في البلاد فرصتَهم لنيل حقوقِهم بعدما تقصّد الأتراك إذلالَهم فعملوا على هضمها لا لشيء إلا لأنهم شيعةٌ حُسبوا موالين للصفويين العجم فضاعت منهم فرصَ التوظيف وشَغلِ مناصب إدارة الحكم في مدنهم. كانوا يتساءلون: لماذا يدير شؤوننا موظفون ينتمون للمذهب السنّي بينما كلنا مواطنون تحت خيمة هذا الوطن البريء؟!!

(٣)

بمجيء الإنكليز حصلت متغيراتٌ كثيرة.

ولم يكن هذا بالأمر الغريب.. فقد رثوا لحال المدينة مثلما فوجئوا ببؤسٍ لم يتوقعونه من بلدٍ قرأوا عنه الكثير فأخذوا من قوانين الشريعة الإنسانية الأولى التي وضعها حمورابي قبل أربعة آلاف عام ليوظفونها في مسيرة حياة قادتهم إلى العظمة والمجد. عاشوا اطّلاعاً على رفاهية عهد الرشيد وليالي بغداد المضاءة حتى الصباح حالمينَ بها وخالقين عوالمَ للرفاهية، والتقدم، والعيش الرغيد: خمسون سفينة تجوب دجلة ليلاً رقص وطرب وانطلاق. مائتان وخمسون مغنياً يطربون أهل بغداد مُنمِّين الذوق الرفيع لعشق الموسيقى وبهجة الغناء. ستون حمّاماً تتوزع شوارع وأسواق وأحياء بغداد ترفع لواء (النظافة من الإيمان) فيعيش العامّة على بساط الترف ويحلقون على أجنحة السرور. لذلك شرعوا ومنذ خطوتهم الأولى في التغيير إلى نثر الحرية مطراً لكي يخرج الناس من قوقعة الظلام ويلفظوا الجهل.

أول فعلٍ أدّوه هو أن عينوا "جاووش بلدية" كمنصبٍ جديد من أهالي المدينة. ضاعفوا راتبه كي يضاعف جهده لجعل السوق أكثر نظافة. يمنع أصحاب المحلات من رمي مخلفات بضائعهم في عرض السوق؛ يأمر بائعي الخضر جمع خضارهم التالفة في مكان ريثما ينقلها عامل القُمامة ليرميها خارج سور المدينة. زادوا عليه واجب التفتيش في الأزقة لمنع ربات البيوت من رمي القمامة خارج البيوت عشوائياً وتبليغ الأمهات بعدم ترك أطفالِهنَّ يتغوطون في الأزقة.(الأزقة ضيّقة، نتنة؛ بيوتاتها تبث من الداخل روائح وخمة تدفعها زوايا المطابخ وعتمة الغرف الضيّقة فيما تتبارى روائح العَفن نافذة من سواقي فضلات البيوت، سواقٍ تنتشر وسط الأزقة. تجري وتلتقي لتصنع سواقٍ أكبر تقود إلى قنوات تصب دفينة في الفرات.. هناك حيث تتسكب غزارة جيفتها في مجرى النهر... النهر رحيم على السماوة:

مكابر، صاغر. يتلقى فضلاتها فلا يشكو، ويحتمل امتصاص جريانه مأخوذ من جسده المائي الرائق فلا يتذمَّر.. يأخذون من نقائه، ويرمون عليه ملوثاتهم.)

بمجيء الانكليز توجهت الحكومة لكسر جدار أن يكون موظفو الدولة من السنّة فقط فراحت تصدر تعيينات لمن يمتلك مؤهلات تثبت بمرور الأيام الكفوئين وتلغي توظيف المتلكئين، وصارت المدينة تشهد وجوهاً من شبابها ورجالاتها يتسلمون الأعمال الوظيفية مثلما تدفقت البضائع الأوربية على المدينة وانتهى تداول الليرة العثمانية لصالح " الروبية " الهندية وأجزائها جاء بها الجيش البريطاني لتكون عملة رسمية. صار الناس يبصرون قدوم أشخاص من البصرة يحملون نماذج من بضائع كعيّنات يمكن تزويد أصحاب الدكاكين بكل ما يودون ويرغبون. لقد غدت تلك المدينة الجنوبية الواقعة عند فم الخليج موقعاً تجاريا ترسو عندها السفن حاملة ما يشير إلى تغيير الحال ونقل العراق من بلد كان فيه بقرةً حلوب جائعةً إلى بلدٍ يعجُّ بتجارةٍ رائجة وأناس يستيقظون صباحاً ليبصروا تغييراً حاصلاً. مشاهد الانتعاش يمكن رؤيتها. بات الناس يرون دكاكين تعرض ما كان يُسمع عنه في الكلام حُلماً أو تخيُّلاً.. يومها وجد حسن درجال نفسه قادراً على شراء بضاعة تأتيه من لندن مباشرة حيث الصناديق الخشبية المحتوات بأطوال الأقمشة يُنزلها الحمّالون عند باب دكّانه وقد كتب عليها اسمه باللغة الانكليزية مرسلة من انكلترا ومكتوب عليها ميناء البصرة . وسَّع داوود زلخا دكّانه بشراء دكان شايع الشاهر روّاف عباءات الرجال وصانع الـ "عِقل" المستديرة والمقصَّبة. دكان صغير تركه الرجل بعدما كبر ولازم البيت ولم يكن له ولد يتولّى المهنة من بعده. صار دكان داود زلخا أكبر دكان في السوق، وصار يعرض البضائع المستوردة المشيرة إلى الحداثة حيث العباءات والصايات واليشاميغ والعِقِل الرجالية، وجناح استحدثه نتيجة متطلبات الحاجة لبيع البنطلونات

والقمصان والأحذية والأربطة والبدلات الحضرية الكاملة بينما توجّه يوسف بلبول اليهودي إلى شراء جلود الأغنام وأصوافها بغية إرسالها إلى البصرة منقولةً بالزوارق النهرية.. زوارق انتعشت حركتها وبدأ الناس يبصرون العديد منها رائحة غادية، ومن هناك تُصدّر إلى وكالة صناعة أصواف انكليزية قيل أنه تعاقد معها وتعهد بتزويدها بأطنان من الجلود والأصواف، عاقداً الصفقات مع العديدين من الذين لا عمل لهم ويشكون البطالة طالباً من بعضِهم السفر في مواسم جزِّ الصوف إلى البادية حيث البدو الرُّحَّل بأغنامهم الوفيرة، في حين أَرسلَ آخرين إلى قرى الرميثة والخضر والأرياف المحيطة لجمع جلود الأغنام والأبقار الذبيحة وشراء الأصواف. بدا أنَّ المدينة تسير نحو آفاق نور أريد له أن يدحر الظلمة. بدأ الناس يتمتعون بأيام هانئة هادئة. بالإمكان رؤية البدو يدخلون المدينة عبر سورها الجنوبي بعدما كانوا يلوذون هاربين في الصحراء والبوادي النائية خشية وقوعهم في قبضة الأتراك ومصادرة جِمالهم وأغنامهم بحجة دفع مستحقاتهم من ضرائب لم يدفعونها، وصارت المناخة ذات الأرض الواسعة المفتوحة على السماء تعجُّ بالجِمال المنتصبة أو المقعية تجتر ساعات بقائها وإلى جانبها جُمعت أكياس الخيش الممتلئة ببعر هذه الجمال بانتظار بيعها على الناس وخصوصاً أصحاب المقاهي الذين يستخدمونها ناراً بديلا عن الفحم إضافةً إلى أنها تبث رائحةً زكية يكون مصدرها زهور شذية تقضمها الجمال في الصحراء فتأتي في بعرها فتستقبلها صدور الجُلاس بارتياح وسرور. وفي يوم استيقظ الناسُ على بضعة عمال وعربة يجرها حصان تحمل أعمدةً خشبية طويلة. بين كل عشرين متراً كان العمال يُنزلون عمودا، يطرحونه أرضاً ثم يتوجه آخرون لحفر حفرة تهبط لمترين في الأرض. ثم في اليوم التالي تُنصب هذه الأعمدة فتبدو كأعواد مشانق مهيأة لتعليق جناة ارتكبوا معصية تستحق التعليق شنقاً. حقّا حسبوها ذلك عندما راح الموتورون من بقايا الموالين للترك يشيعونها.

سبق هذا حديث جرى في ديوان العلوان يوم أسرَّ كريم مَدلول إلى الجلاس:

_ استدعاني مترجم تومسن وعرض عليَّ شراء أرض من بستاني الواقعة على النهر، عارضاً مبلغاً مغرياً يعادل سعر الأرض المعهود بخمسة أضعاف، ما دعاني إلى عدم الرفض."

وحين توالدت علامات الاستفهام على وجوه المستمعين عدّلَ من جلسته، وقال:

– أعلمني المترجم أنَّ المستر تومسن اختار هذا المكان لأنَّ الانكليز يبغون نصب محطة قال عنها أنها ستولد الكهرباء. وقال أن السماوة ستشهد نوراً يأتيها عبر الأسلاك ليغذي مصابيح تشبه قطرات المطر الثقيلة. لن ترون الفوانيس بعد اليوم.

– ومن يضمن لك أنَّ الانكليز لا يكيدون لنا كيداً من خلال أرضك التي يشترونها؟.. جاءه استفهام من زاوية المجلس.

_ وكيف تبيع أرضك لكفّار يأكلون الخنزير؟.. قفز عجوز كانت عيناه تقذفان شرر الغيظ.

وكان على وشك أن تنهال عليه الأسئلة المشككة عندما قاطعهم:

– في البدء ساورني شعور أنَّ هؤلاء الغرباء قد يستخفّون بعقلي أو أنهم فعلاً يكيدون كيداً، وما عرضهم إلا لنية شيطانية يبغون تحقيقَها. لكني عندما اشترطت عليهم شرط رفضي بيع الأرض إن هم غير صادقين وافقوا بكل رضا. بل وزدت عليهم شرط أن يعمل أبنائي الثلاثة في المشروع فوافقوا على واحدٍ فقط متعللين أن العمال الذين يشتغلون في المشروع يمتلكون من خبرة ودراية لا يستطيع الإنسان العادي امتلاكها.

نُصبت الأعمدة، ومُدت الأسلاك. ومع النصب والمد سرت الأقاويل المشككة وتبارت الخيالات المهوِّلة، وصار الانكليز بعين الناس أبناء حرام يتعاملون بالسحر ويستخدمون الشعوذة سعياً للسيطرة على عقول الناس.

– "إنهم يتعاملون مع الشيطان في سبيل تحقيق مآربهم " قالها احدهم حانقاً.

– "وأكثر من ذلك يكتبون التمائم ويحلون الطلاسم فيعرفون ما في أنفسنا ويقرؤون ما يتخفى وراء العيون." قال آخر؛ فيما عقّب ثالث:

– "سمعت أنهم يجلبون الطناطل ويبثونها في الأزقة والدروب لتخيفنا ".

– "نعم، نعم! "..أيّده رابع متوافقاً، مضيفاً " لقد نشروا السعالى بهياكلها المهولة أيضاً. وكل ليلة نسمع فحيحها عند النهر كأنها تنده بنا أن نرمي لها صغارنا لتلتهمهم.

الخيالات تتنامى تترى، والأوهام خبز يومي يلوكونه مُضافاً له بهارات تهويل وتضخيم وسط تقبّل المستمعين المتحفّزين لسماع المزيد. خيالات تأتي بها ساعات الفراغ. خيالات تقول لها الأذهان الجائعة للاغتراف: زيدي!.. زيدي! "... خيالات مقبولة، وأخرى من عِداد عدم التصديق لكنها تدخل بلا اعتراض. خيال للعين تتقدم رائية ما هو أمامها من هياكل تتمثّل بأحجام وأشكال هلامية لا تمت لهياكل البشر وأحجامهم . تطوف العين عليها جائسة تحولاتها المستمرة دون تشبث بهيكل ثابت أو بحجم كامل. خيال للسمع يترجم الأصوات غريبةً كأنها آتية من أغوار سحيقة تحكي عالماً غريباً يلفّه غموض مهوِّم وتسري فيه تموِّجات ذهول. خيال للأصابع تروح تمر على الأجسام الخرافية المنبثقة من قلب الغياب، تتحدث معها بلغة اللمس فتحكي لها عن تضاريس وجغرافية لا تمت لعالم الأحياء.. خيالات، أوهام، أكاذيب، خزعبلات.. والجميع ينصت، والجميع يقبل، ويصدِّق. والسلمان يقف ليواجه، ويصيح ليذكّر "يا ناس! هؤلاء أناس تجاوزونا بالتفكير، واكتشفوا أن الحياة عمل وكفاح".. يؤيده شاكر حسّان، هاتفاً: ما لكم لا تحكِّمون العقل ولا تعتمدون على ما هو واضح وجلي للعين؟.. إذا تركتم الخيال يهيمن عليكم فأنكم تقتلون العقل. والعقل أثمن هبة منحها الله للإنسان وميزه عن باقي

المخلوقات.

لم تُجدِ دفاعات السلمان ومحاولات تنوير عقول الناس المجبولة على التشكيك بكل غريب ورفض كل ما هو جديد. ولم تنفع أقوال حسّان ومعه بعض من عقلاء المدينة المردّين برجاء : دعونا ننتظر!.. ازرعوا في قلوبكم الصبر فان جاءتنا الكهرباء فهم الناس الصادقون، وإن جاء عكس ذلك نتناهض لطردهم من مدينتنا بكل ما لدينا من إصرار وإرادة.

ولكن هل جاءتهم الكهرباء وتحسسوا متعة حضورها في بيوتهم والأزقة.. هل تريثوا؟.. هل احتضنوا غيمة التعقل والانتظار؟.. هل رجحت كفّة الواقع على كفة التخيّلات؟

لم يحدث ذلك قط!!.. فما أن مرّت بضعة أشهر حتى اندلعت فوضى لا تطاق.

ابتدأت بحادثةِ إلقاء القبض على شعلان أبو الجون، وامتدت لتأخذ نارها بالانتشار على هدي رفض المحتل وعودة البلاد إلى أهلها، فسالت دماء وزهقت أرواح، وجُهضت أفكار، وتوقفت عجلة نقل الشعب المسحوق إلى مرافىء الطمأنينة، وانقلب قطار النقل السريع المار بمحطة العراق والذاهب إلى مدن الحضارة.

من يومها طفق وارد السلمان يعيش كابوساً رمادياً ويمارس حزناً تفصيلياً. يرى آماله تتهدم وتطلعاته تتقوض ومستقبل مدينته يتهاوى ويضيع مجدداً.. وفي لحظة من لحظات اليأس ساوره شعور أنَّ تيار رفض القادم قد نجح وتحققت بواكير العودة إلى الوراء؛ وأنَّ الانكليز وجدوا أنفسهم يخسرون أكثر ممّا يحققون من فائدةٍ لهم ولشعبٍ استبيح قروناً ودُمرت مقدراته وأوغل التخلّف في النفوس عميقاً فآثروا الانسحاب تاركين أتباعاً لهم يستلمون مقاليد إدارة دفّة البلاد بعدما وجدوا إنَّ مَن فكروا بإنقاذهم من دهماء سلطة الأتراك لن يدركوا معنى حريتهم، فأعادوا السلطة إلى أتباع الأتراك . ومن تلك

اللحظة سيسجّل التاريخُ خسرانَ حُلمٍ لن يعود.

وفي جلسةٍ له مع صديقٍ يأتمنه صرّح وعيناه تدمعان بأن حلم المدينة الحقيقي تهدم مُعيداً مشهد انكفائها وتلعثمها، قائلاً:

"هذه مدينة الفوضى الصغيرة المولودة من رحم الفوضى الكبير. قلبت صفحةَ الترك واستقبلت عهدَ الإنكليز. تركت مهاوي الظلام بانتظار فضاء الغيب الإنكليزي وكنّا نعتقدها صحت من نومِ الجهل الأبدي.. هذه المدينة الرعناء لم ترضَ لها عهداً جديداً فراحت تفرد ذراعيها لأفكار الموات مرّةً أخرى. سارت بعقلٍ ليس عقلها الحقيقي فكُتب عليها أن تتيه هي ومن معها من مدن البلاد عقوداً لا يعلمها غير الله.." يصمت قليلاً، ثم يطلق كلام التحدّي المقرون بسؤال اللوعة: " أيتها المدينة السارقة ارثها من طباع البداوة هل تتوجهين برغبةِ مَن يُحب الحياة أم تُبقين العبثَ ديدناً لمسيرتكِ القادمة؟!"

في خضم الفوضى استعاد العلوان مكانته الاجتماعية في وقت خبا نجم الدخيل نوعاً ما..

لكن هل يستسلم الدخيل لظرف تبارى ليكون ضدّه؟ وهل يطيع أياماً جاءت لتقول أنها ليست معه بكل فورانها الهائج وعواطفها المتجيّشة؟ وهل يترك غريمه يتسيّد المدينة بحجة أنّه يحارب الانكليز المحتلين وأنه لم يكن معهم في وقت من الأوقات؟..

أثبت الحال عكس ذلك.

جمع رجالاته واستشار مُقربين لم يُضعف من مكانتهم عندما كان في قِمّة مجدِه وعلوّه. خاطب الجميع قائلاً أنه واحد منهم وعزتّهم من عزته، فإذا بان ضعيفاً أمام أهل الغربي وشيخهم العلوان فلا تُكتب لهم عزّة ولن تبقى لهم كرامة.

وجاءت الأيام التالية لتواجه حنكته ومقدرته على إدارة دفّة الحي الشرقي وتثبت نجاح تصميم خطَّط له ونفّذه. ساعدته في ذلك الفوضى التي ضربت

كل شارعٍ وزقاق مثلما ساعدته الأخبار الواردة من أن العشائر المحيطة بالسماوة تتهيأ لغزوها واستباحتها ونهب ما تختزنه محلاتها. آنذاك وجدَ نفسه بمصاحبة العلوان الذي بعث إليه برسول يطالبه بنسيان الخلافات؛ فجلسا يخططان للمواجهة الصعبة. مواجهةٌ وجدها الاثنان تعلو على مصالحهما الذاتية المتنافرة مُستنهضين الرجال ومتحركين في جولات مشتركة لمشاهدة سور المدينة وصلابته وقدرة ملازمة الرجال المسلحين عنده لصد الخطر الداهم.

ومثلما واجهوا حملةَ الوهابيين يوماً وهزموهم قرروا الاتحاد مرة أخرى وتحقيق هزيمة العشائر المتربّصة. فكان لهم ما أرادوا. إذ توقفت دهاءات العشائر يوم وجدوا سور المدينة محصّناً وما وراء السور وحدةً متماسكة لن يقدروا على تفتيتها ولن يحققوا استباحةً حلموا بنجازتها.

(٤)

آه.. وهيبة!

كان جُرحُكِ زورقَ عَذابٍ يتلاطم في بحرٍ متاهاتي. يخرج من القلب الطعين ويعود إلى القلب الذبيح.

فراقُك كان خِنجراً أوغل في لحم أيامي فمزّقها، فبعثرها، فتركها نثاراً!

لم تكن قبلةً تلك التي شهدت عليها شجرةُ الكالبتوس المنتصبة هناك، وأنا الجالس الآن هنا قبالتها بل كانت ميثاق عهد أن لا أنساك، وشفتان كانتا تناديني بعظم لهفتكِ وتضرعكِ: لا تنساني يا جعفر. فأول شيءٍ فعلته غب غيابك عنّي هو أن حفرت على ساعدي الأيسر، الأقرب من القلب هذه العبارة الصادرة من ثنايا روحك المعطرة بالطهر.

أخرج من منعطفات الأزقة المتداخلة فلا أحس بخطاي تضرب الأرض المترية بل أشعر أنني غيمة مدلهمّة بالألم والضجر سائحة لا تبغي الاستقرار

إلا عند المكان الذي كنتُ أبصرك فيه جالسة تلتقطين حجراً فترميه إلى ماء النهر فتدلني الحركة إلى أنكِ أبصرتني، وأنك تتحاورين معي بالنظرات رغم بعدها الظاهر ونأيها الماثل.

كيف أنتِ؟.. وأينَ؟

هل وصلتم مدينتكم بأمان أم استباحتكم جموعُ الغوغاء وعصابات السرقة؟

المدينةُ عندنا فوضى وضياع، يا وهيبة. لا أمنَ ولا أمان .. هُم في هاجسِ الخوف من المستقبل وأنا في محنة الخشية من ضياعك. هُم يعيشون على إيقاع حضور المفاجآت وأنا أعيش على نغمة ذكرياتنا الحميمة..

أستعيد تلك النظرة المتضرعة المنسكبةً من عينيك وأنتِ على زورق الرحيل فأتمزَّق جَزَعاً. تلفظني الأزقة وتلتهمني الفضاءات، هروباً من سجنِ الأوهام المتناسلة في الرأس، نأياً عن لظى الاحتراق المتماوج في روحي الخاسرة. أغرق في لُجج رماد الزمن وأتوه على سفينةٍ خاسرة المرافىء. أتجاوز سورَ المدينة فأصبح بنظر المتطلعين مجنوناً يبحث في الفراغ، أو ضائعاً يهيم في رمال البوادي. لم يعد الدكّان بمحتوياته والناس بحركتهم واليوم بليله ونهاره يعنوني. المكان المفضل للقاء المتخيّل هو النهر. والعبور إلى الصوب الصغير ديدنٌ يومي لاستعادة الأمل الهارب.

فمُ السوق، أزقةُ الحي الأمعائية المتداخلة، حيطانُ البيوت المتهالكة البسيطة، الشناشيلُ الخشبية المُطلّة بنوافذها المقطَّعة طولياً بأسياخ الحديد، حركةُ الصبية بضوضائِهم الضاجّة كمعركةِ عصافير أشهدها يوميا لكنها لم تثر فيَّ نأمةً لحنين منفتح على أعوام صرفتها على عوالمِكِ وحقبةِ حبك. أعوام مرَّت كما لو كانت سحابة صيف أمطرت رذاذاً وتلاشت.

أتعلمين يا وهيبة أنَّ قلمي لا يدوّن إلا ما أريد أن أبوحه إليك وأنتِ بعيدة. وأمس أعدت رسمَ وجهِك النضر على الورق وتلك المسحة الفاتنة المانحة هويةَ البراءة. أمس عندما شاهد مُترجم السيد تومسن صورةً رسمتها لك وأنت

تقفين بين حشد من زهور تتوهج بالبهاء والألق هتف من أعماقه: " هكذا يرسم الانطباعيون في باريس! ". باريس البلدة الأوربية التي يقول عنها أنها تحتضن رسامين لهم تيار لا يجاري تيارات الرسم المعهودة. لقد اندهش وافتتن وضمَّني إلى صدره قائلاً: " أنت فنان انطباعي وإن لم تعرف ذلك!.. لو عرف بك (مانيه) و(بيسارو) و(مونيه) لغاروا منك واعتبروك متقدما عليهم أو سارقاً لأفكارهم.".

أرسمُك يا وهيبة وسأظلُّ أرسمك بعيداً عن تياراتِ الفن لدى الأوربيين وتوجهاتهم فأنتِ مدرستي الفنية. اتبعكِ يا وهيبة وسوف أهيم بحثاً عنك. سأنتظر حتى تهدأ هذه المدينة المجنونة وحتى يعود الرشد للمدن الأخرى، وحتى يتوقف السرّاق واللصوص المنتشرون في الدروب بين المدن لا يتوانون يسرقون مقتنيات الناس وثيابهم ويتركوهم عراة حفاة. وأنا المجنون في حبّكِ الدفين صار ديدني البحث عنكِ في الطرقات والأزقة مع أني العارف بفقدانك. لا ادري لماذا اخرجُ من زقاق لأدخل آخر، ولا اعرف ما دعوى خروجي الصباحي وهيامي سائراً كما المسلوب العقل، لا أقف لأتساءل ما جدوى تهالكي اليومي في بحث كاذب لا نهاية له أنا الذي اعرف أنَّ وهيبة جوهرةٌ سرقها القدر ورماني عوضاً عن امتلاكها بضياع ليس له منتهى.

يأخذني الفضاء المنفتح خارج سور المدينة يا وهيبة فأجد فيه سلوى يجعلني انطلق هياماً.. هناك أجوب الأرض المالحة والترابَ اللصيق بالتراب. أندفع أكثر فتبدو إزائي الصحراء مدّاً من فضاء حر. تعترينـي رغبة أن اركض في مدادِها ومداها تماماً كما فعل قيس بن الملوح يوماً يندب ليلى الضائعة، المسروقة منه عنوة وإجحافاً. تبان أمامي تلالٌ لم تطأها قدم. اعتلي أعلاها فتنفتح الصحراء أمامي وأرى الله يسوح بشمسِه الصافية ورمالِه صفر تبعث تلألؤاً، فأفرد ذراعيَّ وأصرخ: لماذا حرمتني منها، يا الهي؟ يا قادر على كل شيء لماذا لم تقدر على منحي وهيبة؟ " وحين يتغاضى الله

ولم اسمع ردّا.. أصيح بكلِّ جراحِ القلب وحجمِ اللوعة داخلي: " وهيبة.. يا سحابتي البيضاء، يا نَفَسي المقطوع، تعالي .. أعيدي قلباً سرقته وروحاً اختطفتِها؛ فلم تتركي لي غير الأسى، واللوعة، والضياع.. وهيبببببببببببببة! "

يضج صوتي فتفرُّ حفنةُ قبّرات كنَّ يبحثن في ترابِ الأرض، وتتنبّه كلبةٌ كانت تتخذ حفرة غائرة في كتف تّلٍ بعيد. خرجت تطالع ما اقضَّ مضجعَها وحرم جراءً لها كانوا يرضعون. رأيتهم حولها يديرون رؤوسهم يرنون لأمِّهم انتظاراً لردّة فعل منها واستجابةٍ منهم نباحاً أو هرباً.

(٥)

– لا.. لا! هذا لا يحتمل.

سمع جعفر أباه في غمارِ حوارٍ يُبدي تذمّراً لأمّه. والأم الرؤوم تحاول تقليل حدّة الغضب:

– الناس تبالغ فتنقل إليك خبر جنونه. هذا هو ابننا بيننا فلماذا لا نكتشف هذا الجنون؟

يردُّ بانفعالٍ:

– الناس لا تكذب ولا تبالغ. ترك المحل ولم يعد يأتيني ليساعدني. لا أدري أين يذهب. منذ ارتدى ملابس العصملية ونفسه تتمرد يوماً بعد يوم.

يأتيه صوتُ الأبِ مُخترقاً فضاء الحوش وداخلاً غرفةً تضمّه هروباً من أعينهم. يُصليه كلام الأب فيشعر أنه على حق، ويتأسى على أمّه. أمّه تدري أنّ وجود ابنها باتَ غير طبيعي في البيت وتصرفه يثير الانتباه. فعديد المرات تقتحم غرفته على ذبذبة هاجس يرنَّ داخلها فتبصره يبكي وحيداً. ينشج وهو في خضم الهيام غارقاً في التخطيط والرسم. تعتريها المفاجأة فتسأله بحرقةِ العاطفة وجزع القلب عن سبب بكائه وجدوى تغيُّره.

لقد حدست بمجسّات الأم الحنون أنَّ بلوى ابنها سببتها له تلك البنت التي أفصح يوماً برغبة الاقتران بها وصدّته على أنها النجوم يرتجيها، والمستحيل يطلبه.

– يا ولدي، تلك كانت نزوة من نزوات الشباب الكثيرة. كل شابٍّ يمر بها. الأيام يا مهجتي كفيلة بإقناعك أنها كانت مثل نسمة طيبة مرت وذهبت. تعلقك هذا كتعلّق ظمآن بسراب. بقاؤك بهكذا حال ليس في صالحك وصالحنا. ضع نظرك على أية فتاةٍ من المدينة وسوف أخطبها لك.

يبرح البيت منتفضاً، رافضاً، مندفعاً. وفي فضاء الزقاق يرتمي. يخشى أن تسمع وهيبة الحديث حتى وهي بعيدة كغيمة، ونائية كحلم . يخاف أن ينخدش قلبها بشفرة هذا الكلام الغريب. يخترق الأزقة خروجاً إلى النهر. هناك..! في مكان وقوفه المعهود يراها جالسة ترمي بحجر إلى الماء. يعتذر لها عمّا سكبته أمه في أذنه. ترى من الضفة الثانية دموعه تسيح على خده فتطير محلقةً إليه. تجلس إلى جانبه وتروح تمسح دموعه بمنديل تمسك به. تطمئنه على سرمدية حبّها له، وعلى احتفاظها بالصورة التي رسمها لها وقدّمها هديةَ عُمرٍ لا تخبو قيمتها ولا يقل قدرها.

هوسُ حبّ وهيبة صار يتعاظم مع مرور الأيام، وتصديق أمر فراقها طفق يأخذ الكثير من طمأنينته فيرميه في حومة التعبير عن خلود حبه لها وهيام لا ينضب بها ، راح يرسم ويرسم.. ويرسم. وحين تضيق به جدران الغرفة يخرج ليسرق حفنةَ هواءٍ تعيد له توازنه. وليس من هواء يشفيه ألا هواء النهر العابر من صوب القشلة.. ولأنّه الهواء القادم من بيت وهيبة فقد دفعه يوماً جموح الاغتراف بوفرةٍ يملأ بها صدره ويعبَّ ما يستطيع عبّه، محققاً ذلك بالتوجه إلى بيتها.

يعبر الجسر ويترك لخطاه السير وئيداً مسترجعاً في كلِّ خطوةٍ لحظاتِ توجّهه إليها. ينظر يمينا فتحاوره البيوت المتراصفة بأبوابها المغلقة لكن

بشبابيك مشرعة قد يرى من خلف قضبانها صبية تتطلّع أو شيخ أقعدته سنوات العمر اللاهثة فلم تعد لديه غير النافذة عينا يبصر بها الخارج. يبعث بنظراته باتجاه النهر ثم يدعها تعبر إلى الصوب الكبير فيشاهد مقهى جبر وعلى مقربة منه جامع حسون ثم صف البيوت الوطيئة المتهالكة ومداخل الأزقة المفضية إلى بيوت صغيرة لا تتعدى مساحاتها الثلاثين متراً مربعاً حيث الغرف أقنان حمام والباحات فناءات حسيرة تمتص هواءَ السماء امتصاصاً بينما روائح المجاري تتوسط دروب الأزقة تخلق تقززاً وتترك نفوراً لمن يدخلها لأول مرّة. ينظر علّه يرى العجوز التي كلّفته مرّةً بحمل الصحون ليسلِّمها لأمٍّ بهجت ويقول لها أم ناطق تهديك السلام والشكر. وحين يذهب الترجّي هباءً ويتبخر التمني يكمل الخطو متجها إلى البقعة الخضراء، بقعة ظلٍّ قبلة قطفها من فم وهيبة.. تظلله أغصان شجرة الكالبتوس وأوراقها السيفية الخضراء وهي تبعث رائحةً مميزة تدفعه إلى اقتطاع ورقةً يدعكها بكفّه ويقرّبها من أنفه ليعبَّ صدره بشذاها الزكي:

– "خذ! ادعك هذه الوريقات وشمّها".. قالتها بعد أن وهبته القبلة الخالدة ووجدت كفّه تحتضن الوريقات. يدعكها حسب ما تطلب فيهاجم أنفه أريج منعش.. "هذه ممارسة أوديها كلما أتيت هنا، وهي ما تفتح مغاليق شوقي إليك يا جعفر.".

ويتذكَّر يومها أنها سلَّمته حزمةً من تلك الأوراق أبصرها في جيبه عندما عاد إلى البيت وأدرك أنّه دسّها وهو يقف أمامها كالمسحور. يدعكها فيخلق شذا شرع ينتشر في فضاء الغرفة معيداً صورتها، ومكرراً صدى تلك القبلة اليتيمة، ورنين لهفةٍ سكبتها في صدره وتأوهات رجاء في أن لا ينساها.

يسرق سَحباً من غصنٍ متدلٍّ بشهادة الظل وسكون المكان حفنة أوراق. يدسّها في جيبه بغية إعادة فعلٍ أدّاه ومسعىً لإعادة أنفاس وهيبة كي تنتشر في فناء غرفته لتضمّخ الشيئيات الماثلة بطيب أنفاسها.. (ولم يكن هذا

التصرف يمر من باب المصادفة فقد استحال ممارسة هذه عادةً يومية). يعبر يومياً فيقف عند الشجرة. يرفع يداً لتقتلع بضعة أوراق كي ما تكون من أبجديات الطقس الديدني جعلت أمَّه تنظر بريبةٍ كلّما دخلت لتنظيف الغرفة وترتيبها. تحسب ممارستَه وهي تبصر الأوراق المدعوكة الجافة بفعل وسواس طفق يتسلل إلى رأس ابنها مؤزِّخاً مبتدأ جنون لا فرار منه. وتقترب من رأي أبيه في شكّه بعدم صلاحية ابنهما العقلية. وترجو الأب وتدفعه إلى السؤال والاستفسار عمّا يعيد ابنهما إلى مشوار حياة طبيعية يحياها أقرانه بلا همٍّ لحب ضائع، ولا إعارة بالٍ لحادثٍ مرَّ . يسمع الأب يتوخى عودته إلى دنياه البعيدة عن وساوس وأوهام يحدسها تسكنه بناءً على نصائحَ معارفٍ له حاورهم بأمرِه فأشاروا بأن يُشركه في أنشطةِ الناس الاجتماعية ويسحبه إلى مصافي التصرفات الدينية. فليس في عرفِهم غير الدين وطقوسه يوقف تدهور العقل لدى شاب مثله.. اقتنع الأب بما سمع وجاءت النصائح لتخاطب جعفر هيّا.. يصاحب والده إلى مجلسٍ رمضاني تلتقي فيه شخصيات المدينة. يدخل تجمّعاً حاشداً في برّانية حاج غفّور. البرّانية عادة ما يؤمها الناس في كلِّ ليلةِ أربعاء يستمعون إلى محاضرة دينية قصيرة يكتشفها جعفر مكررة مراراً، تبدأ بالصلوات على محمد وآل محمد وتنتهي بتراجيدية مقتل الحسين وصحبه وسبي عائلته على ارض كربلاء؛ سمعها مراراً من قبل الشيخ موسى حين يدخل الزقاق يتبعه ذوو عاهات: طرشان (فيهم كعيم، وعاشور، وشامخ.. ثلاثة أقطاب لا ينقطعون عن اللقاء والتواصل، رغم كونهم متفاوتي العمر إلا أن الطرش يساويهم في الصمت)، وعوران (منهم جابر وجويد مطفآ العين اليمنى، بينما عبد الحسين يرى باليمنى فقط)، ومعتوهين (بينهم سويّد وياسين وخلف ومحمد علي، يتعثرون في مشيهم. ولدوا مصابين بشلل الأطفال) ومعهم لاثغينَ ومتأتئين، وفقراء مسحوقين، جلّهم قدموا من أرياف لا تسعفهم بلقمة عيش يومية. يطمعون في

تناول قهوة تُقدَّم لهم أو شرب شاي يأملونه. يدخنون سجائر توزع عليهم مجاناً قبل بدء الشيخ بمحاضرته.

يجلس فيتمثَّل مشهداً يدخل رقعة استفهامات عديدة تتبارى في رأسه عن قناعة الجالسين المنصتين في ما يسمعون، وكيف يذوبون ويتماهون مع ما يفوه به الشيخ الجالس على كرسي يعلو فوق أنظار الجلاس الصامتين.. الجلاس يتَّخذون من الأرض المفروشة بالبسط الصوفية مجلساً وقد حفَّزوا الحواس للاستماع والتعبير. العيون تتصالب على شفتي المتحدث متابعةً قسماتٍ تتغير مع طبيعة عبارات يفوه بها. حتى إذا تهدّج صوتُه، وتقمَّص ملامح المتألِم الجَّزِع لما ألمَّ بالحسين انطلق صوتُ نحيب هنا، وصوت تأوه هناك؛ وعلت في فضاء المجلس تواليات بكاءٍ لوجوهٍ دامعة العيون تحاكي وجه الشيخ الذي يمسح بنظرات سائحة مكوِّنات المجلس لقياس تأثير كلماته على المستمعين الباكين فيما وجوه مطأطئة تسفح دموعَها خجَلاً، فتتساقط تلك الدموع على الأرضية الصوفية. وفي لحظة هياج عاطفي يتوقّف الشيخ فيوقف الحشد نشيجه وبكاءه تاركاً لأكمامِ أغلب الباكين مهمّة تجفيف الدمع... تلك اللحظة حسبها جعفر ساعة صفاء، متمنيّاً أن تدوم.. صفاء يجعل الإنسان يشعر بتفاهة الحياة، ويدفعه إلى الشعور بضرورة النقاء لأن حياةً لا تُقاس سوى بأعوام ستنتهي ليدخل الإنسان حياة الأبدية إمّا طهوراً نقياً مآلُه الجنّة أو شرّيراً مُرائياً قرارُه النار.

صار حضور هذه الجلسات بصحبة الأب من عِداد التكرار اليومي. وصارت دعوة أبيه له للتهيؤ لحضور مجالس فلان، وفلان، وفلان، وفلان طقساً يجب أن لا يغيب عنه. ذلك يشعره أن مصاحبته اللصيقة له تعطي ثمارَ النجاح. هكذا سمع أباه يكلِّم ألأم متنبِئاً بحسن العواقب ما يدخل رياح الارتياح إلى قلبها. يسمعها جعفر تكلّم جارةً سألتها عن شرودٍ تراه يلتهمه وهي تبصره يخرج من البيت إلى الزقاق أو عندما يلتقطه الزقاق عائداً إلى

البيت فتقول: هذه حالات تصاحب فترة الشباب. والشباب دائماً لا يستقر لهم حال ولا يمكن رؤيتهم بمزاجٍ واحد على الدوام.. تتوقف قليلاً قبل أن تفوه: " الحمد لله؛ الآن يصاحب أبيه إلى مجالس الأفراح والتعازي، ويحضر أحاديث الكبّار.". وحين تسألها الجارة بمكر الأمّهات الباحثات عن أزواجٍ لبناتهنَّ: "الشباب في هذا العمر لا تشفيهم المجالس. خير شافٍ لهم هي ابنة الحلال.. لماذا لا تزوِّجينه؟! " تهتف ألأم بكلمات التمنّي: "ليته يقبل!.. عرضتُ عليه كل بنات المدينة فلم اسمع منه غير التجاهل واللامبالاة.".. لا تريد البوح بسر تعلقه بوهيبة ابنة عبد الكريم شوكت وحب لا تزحزحه رياح التمنّي والترجّي، ولا عنف اللوم والعتاب. ولا تريد أن تقول أن ابنها ذو روح هيمان، ونفس لا تعرف الاستقرار.

لم يكن حضورُ جلسات التعازي طقساً وحيداً مع الأب وجالساً إلى جواره حين ينتحب ويروح يبكي والدموع تتقاطر من عينيه وهو يستمع لتفاصيل مقتل الحسين تنهال من فمِ الشيخ، بل كان يغور في حشديات العشرة الأولى من محرم كل عام حيث تُستنفَر الجهود لإقامة مواكب عزاء تواسي الحسين القتيل في محنته وتجسد حضوره من "المدينة" في ارض الحجاز مع أهله وأتباعه باتجاه العراق، بناء على طلبِ العراقيين ليكون واليهم وقائدَهم الديني، مُنتزِعاً الخلافةَ من "يزيد" إذ رأوا في الأخير ماجناً خليعاً سكّيراً خارجاً عن الإسلام وتعاليمه. ولم يضع في حسبانه كيف سام هؤلاء الناس أباه الأذى، وتركوه حائراً يقارع معاويةَ الداهية الذي استطاع بمكره وحنكته أن يقنع الناس على أنّه الخليفة الأحق بالمسلمين منه. لم يضع في حسبانه أنَّ مَن يتوجَّه إليهم قد ينقلبون عليه في أيّما لحظة. فهم القادرون على التقلّب في أمرٍ عندما لا يجدونه يتوافق وأهواءهم. ينأون عنك سريعاً حين يواجههم بطشٌ وتنكيل من قوةٍ لا يقدرون عليها، مفضّلين الحياة على الموت ومتأثرين بمالٍ خادعٍ يبرق. وطمع ينغمسون فيه أيّما انغماس؛ فخاطبهم يوماً من بين غيوم

نفور غمرت سماء روحه بعد أن غضب عليهم وجزع منهم: "دينُكم دنانيركم، وقبلتُكم نساؤكم".

يدخل ابتداءات اليوم الأول من عشرة أيام محرّم الأولى المتمثل بطقوس ضرب الظهور بسلاسل سلكية كثيفة يحملها أفراد يرتدون ثياباً سوداً مرموز الحداد والكمد، يتحركون بنسق خيطي يقابل نسق خيطي آخر فيسير الخيطان متوازيين. وفي المسافة الفاصلة بين النسقين يبصر حاملي الدفوف والصنوج معتمرين لفائف قماش سود حول الرؤوس وبطونهم مشدودة بأحزمة جلدية عريضة؛ يضربون بعصي الخيزران بإيقاع مشترك فيما الأبواق تُنفَخ فينتعش منظمو هذا الطقس المسمى (الزنجيل) وهم يسيرون الهوينا. يرى قوامات ذئاب تتبثق رويداً كأنها قادمة من تسلل حلمي.. ذئاب كأنها تجاور المنظمين وتتداخل معهم.. ذئاب سيجد خروجَها يتكرر معه في أيامٍ قادمة.. ذئاب سرعان ما تأخذ أشكالاً آدمية تتحرك بخفة قوائمها في السير متربصة بدهاء يسلب نقاءَ الوجوه وصفائها وسط تصالب أنظار الناس الذين يقفون على جانبي العَرض يتطلعون لهذا الكرنفال الحزين حيث السوق الرئيسي يتلقفه فتضج أصوات الدفوف وترتفع حدة الصنوج، وتُسمع انهيال السلاسل على الظهور يُحدثها رجيع الأصوات في الفضاء الضيق المسقّف بصفائح معدنية. قليلاً وتخرج إلى الشارع المُطل على النهر بمحاذاة الجسر الخشبي. هناك يبدأ المُردد قارىء الأشعار بإيقاع سريع يثير حماسة ضاربي ظهورهم بشِعرٍ يكرّس مأساة الحسين اعتماداً على قولٍ ترددده زينب الشاهدة لمأساة كربلاء لحظة بلحظة وهي تخاطب أخاها الذبيح، أو لوعةً تسوقها طفلةٌ عطشى تطلب من عمّها العباس أن يأتيها بجرعةٍ ماء، هو المسجى عند النهر مُقطّع الأوصال وقد فعل الأعداءُ بما يحلو لهم بناءً على كراهية توارثوها من الأجداد.

السلاسل تنهال على الظهور بشدة وبإيقاعٍ يشتد سرعةً وسط انتعاشة

المُنظمين وهم يبصرون محبّي الحسين ومناصريه يُظهرون مواساتهم وحسّهم المنشد له كمظلومٍ تكالبت عليه سيوف الشر فيشعرون بالزهو لما يبصرون، ويحسبون ألم المحبين والمناصرين دلالة نجاحِهم كمنظمين؛ وهم بهذا يحاولون إقناع الله عن طريق ذبيح يحبه الرب ورسوله فيكسبون هُم ولاءَ الاثنين بدفعهم إلى جنان الخلد. ينظر فلا يكتشفهم مرّةً يضربون على ظهورهم بالسلاسل، بل يجدهم كالطواويس يتبخترون على آلام مساكين يدخل الحسين قلوبَهم بكل جراحاته وآلامه... ينبثق داخله هتاف المرارة: هم يكسبون الجاه والمقام الاجتماعي وأنتم تحرزون الألم والإرهاق، والإنهاك، والإعياء. العرق ينزُّ على وجوهكم، وتعرجات الأرض تضرب بواطن أقدامكم أيها الحُفاة؛ وظهوركم بفعل انهيال السلاسل الحديدية عليها تنزُّ دماً. أنتم تذهبون مسحوقين إلى بيوتكم فترمون الأجساد التعبى على أفرشة الفقر، وهم يجلسون في ديوانيات جلساتهم يتصدرون المجالس متحدثين بلسان الزهو عن دماءٍ سفكتموها، وعرقٍ نضحتموه، وأداءٍ قدمتموه بكل رغبة وإخلاص وتعلّق بمن رأيتموه شفيعاً لكم في الحياة الآخرة. الغريب أن لا أحد منكم أيها المُجهَدون سألهم يوماً: لماذا لم نر أبناءَ لكم يشاركوننا ضرب الظهور؟..

وحين يأتي المساء يأخذ الطقس الديني أسلوباً آخر يعتمد عري الأجساد إلى المنتصف فتظهر الصدور التي ستحمر بعد أن يعتلي رجل ذو صوت جهوري يأخذ دور شاعر ترتيلي ليقرأ مصيبة الحسين شعراً، مثيراً الضاربين صدورهم من أجل تواصل الضرب وبقوة أكبر وحماسة أشد. ترتفع أكف جموع أنصاف العراة لتضرب الصدور؛ وتُسمع كلمات الحماس من هنا وهناك تؤلِّبُها الأضواء الساقطة من الفوانيس والمشاعل المنتشرة على جدران بهو الجامع. وينظر إلى المنظِّمين تأتلق عيونهم زهواً، ورغاوي أرواحهم تتعالى بالكبرياء.

يعيش تحتَ هيمنة هذا الطقس تسعة أيامٍ. وفي ليلة العاشر من محرم

وبعد أن تنتهي مراسيم ضرب الصدور بالأكف على الصدور العارية ويؤوب معظم الناس رجالاً ونساءً بعد أن يصيبهم الإعياء من البكاء وتخيّل مصيبة مقتل الحسين وأصحابه وتشرّد عياله يأتي طقس حلق الرؤوس لتظهر الجماجم بيضاء لامعة مثلما يتمثل طقس ارتداء الأكفان. قطعة قماش بيضاء مستطيلة يُحدَث لها فتحة في الوسط يدخل فيها الرأس الحليق ثم يتم نشر طرفٍ على الصدر حتى يهبط أسفل الركبتين فيما الطرف الثاني يهبط على الظهر حتى انثناءة الساقين؛ وفي الأكف تلتمع سيوفٌ مختلفة الأحجام والأشكال.. سيوف طويلة منحنية؛ سيوف قصيرة عريضة؛ سيوف متوسطة الطول مستقيمة تنتهي بحافات حادة. يسير حاملوها على إيقاع طبل ونفير بوق. أياديهم اليمنى تحملها ملوّحة بها في الهواء تمثل حالة ضرب هامة الرؤوس بينما أياديهم الشمالية تمسك بخيوطٍ عملت من نفس القماش الأبيض كأحزمة حول بطون المرتدين الأكفان حاملي السيوف من أجل الحفاظ على النسق في الحركة.. ومع أولى لحظات الفجر ونسيماته الباردة ينطلق نفير البوق وتُضرَب الطبول فيُعلَن بدء ضرب الرؤوس بحافّات السيوف تاركةً الدماء تتدفقُ من الجماجم الصقيلة. منهم مَن يضرب رأسه بسيفه، ومنهم من يعتمد على رجال وقفوا بسيوف حادة ينهالون على رؤوس الحليقين. وفي لحظات يلاقيك مشهد الدماء الفوّارة متدفقة من الهامات ومتخذة مسالك شتى. منها ما يسيح على الوجه، ومنها ما يهبط على الجانبين وأخرى تسيح من الخلف. تنتشر الدماء على الأقمشة البيض فتظهر لوحة المأساة الحسينية تجسِّد دماءَ واقعة كربلاء، مُعبّرةً عن المواساة مع آلام الحسين وإخوته وأبنائه وأصحابه ومحبّيه وهاتفةً بأنَّ أتباعه لا ينقطعون على مرِّ الزمن، ولن يتوانوا عن إحياء ذكراه بدماء يسفكونها ستكون نهراً ممتداً يصل أبواب جنة سيبصرونه يقف عند عتبتها بانتظارهم إماماً وشفيعاً.

يقف جعفر مع جموع الواقفين يتطلعون إلى كرنفال الدم. يختلس النظر

إلى وجوه الواقفين على جانبيه فيلمح شحوباً وصفرة وخوفاً يوشّحها. يبصر على حين غرّة رجلاً أربعينيا يشحب وجهُه، وتغزوه فورةُ دَوارٍ تزوغ خلالها عيناه وبلمحةٍ يسقط وسط المتطلعين. لم يحتمل مواصلة مُشاهدة الدم يسيل من هامات الرؤوس والوجوه تصطبغ باللون الأحمر الفائر. يهب بعضهم يرفعونه إلى زقاقٍ فرعي ينثرون على وجهه الماء ويعصرون جبهته، ويفكّون كل ما يضيِّق عليه تنفسه.

الغريب في الأمر هو رؤية جعفر للذين يضربون رؤوسهم وينزفون دماً بعد ساعات يسيرون في السوق أو يدخلون الدكاكين وكأنهم لم ينزفوا تلك الدماء الفوّارة فيدرك مدى تعلق الناس بقضية الحسين وشعورهم الصميمي أنَّ نزف الدم من اجله إنما يعوِّضه رضاه عنهم وقبوله بهم كأتباعٍ مخلصين متفانين مستعدّين لتقديم أغلى التضحيات والدم عربون حب له وتمسك به.

(٦)

ذلك اليوم..

نسماتُ وقتَ العصر تحمل بعضَ أنفاس النهر. جعفر يخطو مُتَّخذاً الجسر عبوراً مُساقاً بهدي نداءٍ غامض وغريب.. الجسر يكاد يخلو إلا من مارّة هم من سكان صوب القشلة عادوا إلى بيوتهم بعد قضاء عمل أو انتهاء زيارة أو وداع صِحاب على أملِ لقاء. لم يكن الذي يعبر في هكذا وقت إلى صوب القشلة من سكنة الصوب الكبير إلا الذين يتجّهون إلى التياترو. وهذا ما رنَّ في أذنه وهو ينتهي من عبور الجسر ملفياً نفسه على أولِ مَتر من ارض القشلة. وبدلاً من أن ينحرف يساراً متخذاً الطريق إلى بيت وهيبة حيث سيدخل دارها الخالي كما فعل عديد المرات السابقات ويتشمم أنفاسها ويملأ ناظريه من بقايا صورتها السابحة في الهواء توقف!.. تطلّع يمينا كما لو كان يريد الإجابة على صوتٍ همس بإسمه! جموعُ ذئاب لاهثة تخرج له من بين

أجمّات كثيفة على يمين الدرب. تلتقي وتجتمع ؛ ثم بعد خطيف اللحظات تتوزع كما لو كانت تراقب تحركه. ثم كأنها لم تعر همّا لخطواته تطأطىء رؤوسها، وتضرب بقوائمها على الدرب الترابي تخطٌّ أو ترسم أو أنها حركة دهاء لفعلٍ ستؤديه؛ ثم بلمحةٍ تعود منسحبة باتجاه الأجمات التي خرجت منها؛ ثم تختفي.. صوتٌ قادم من باب التياترو المشرع في هذا الوقت يبعد جعفر عن التفكير بها.

كانت الخطوات إلى التياترو قليلة.. هكذا تراءى له، والباب الموارب توسَّع أكثر آنْ دخل.. أنها المرّة الأولى التي تشرع نظراته في مسحِ المكان وتتأمل الشيء الذي كان بنظر معظم الناس غريباً مُحرَّماً منبوذاً. لا توجد ثمّة غرابة. تخوتٌ مرصوفة وأناسٌ فرادى جالسون ومشهدٌ لا يفرق عن مشهد مقهى الدليمي الذي في الصوب الكبير أو مقهى جبر الذي لا يبعد عنه غير عبور نهر.

اجتاز عدةَ تخوت..

اختار مكاناً، وجلس.

تنبّه إلى أنّه يمسك جريدة (العرب) حصل عليها من رجلٍ صديق لأبيه كان مغرماً بالشاعر الزهاوي دعاه ساعة كان جالساً عند دكّة دكّانهم إلى قراءتها ثم إعادتها إليه طالباً رأيه فيها. أفرد الجريدة متفرِّساً ليس في القصيدة المقصودة، بل في صورة امرأة خمسينية سافرة احتلت وسط الصحيفة وتحتها تعليق يقول (المس بيل تنغمر في المجتمع البغدادي وتصبح منه). يتحدث الخبر المُلحق بالصورة عن قدوم امرأةٍ انكليزية مستشارة للقائد الانكليزي (كوكس) جاء بها بعد احتلال البصرة وصاحبته إلى بغداد، وأنها سرعان ما استطاعت بناء علاقات حميمة مع أشراف العاصمة وسادتها.

لا يدري كيف رفع رأسه لتلتقي عيناه بقوام أنثوي لثلاثينية تقف أمامه، تطالعه بغنج، مشيرة لعامل كي يلبي طلبه: شاياً أم قهوة أم صودا أم زنجبيل.

وبدلاً من أن تستدير وتتركه بعد ما طلب قدحاً من عصير الزنجبيل ابتسمت بوجهه:

– سمعنا أنك رسّام!

– .....؟؟؟

– والناس يتحدثون عن فنّك؛ أريدُكَ أن ترسمني.

مَوسقت كلماتِها الأخيرة بنغم فيه مسحةُ دلال. استقبل نظراتٍ فيها دعوة لا تشي بالبراءة. فيها إغراء مقصود. ما هذه التي جاءت في هذا اليوم لتنهال بمعرفةٍ عنه كرسّام وبنظرات ولهٍ كأنّه أحدُ عشاقِها؟.. لماذا تكلمه بهذه الطريقة الداعرة المفتوحة المشاع عنها في المدينة على أنها الوحيدة التي لم يقدر الماجنون على استمالتها لا بالمال ولا بالجَّمال.

اكتشفها تروم التهامَه بنظراتها. تتطلع لملبسه الحضري فتزداد عيناها توهجاً..

هجمَ عليه الارتباك، وغزته رعشةُ خوف. أسرع بإرخاء الجريدة على التخت جواره لئلا تكتشف رجفة اعترت أصابعه فتفضحها قرقعة صفحاتها. ولأنَّ العامل ابتعد والرواد قليلون؛ ولأنّ جعفر تمالك نفسه إزاء ابتسامة خيّل إليه أنها تتحدّاه تملكته شجاعة هجمت عليه فجأةً فنطق لسانه:

– أرسمك.. ولكن بشرطٍ؛ أتقبلينه؟

انفرجت شفتاها، وابتهجت عيناها. وكانت على وشك أن تقول: "قل، ما هو!" عندما ندهت عليها زميلة لها سمعها ترد بـ: نعم أنا قادمة يا نجيّة.

ما الذي كنت ستقول لها، يا جعفر؟

كنتُ سأقول لها:

– أرسمكِ وأنت عارية.. أتقبلين؟

لم يسمِعَها ردّه. فقد خشي أن تنهال عليه شتماً؛ ذلك أنها صلِفة لا احد يقارعها في الكلام.

خرجَ خائفاً، وجِلاً. لم يكتشف أنّه نسي الجريدة في مكانه!.. بل رأى ثمّةَ انسحاب للشمس من خلف بساتين الغربي وابتداءات الجسر تتلقّف قدميه عبوراً باتجاه البيت.

لم يلتفت إلى هيكل التياترو ولم يضع في حسبانه أنَّ المرأةَ عندما عادت وجدت مكانه خالياً فهرعت إلى الباب تتفقده ولما وجدته في منتصف الجسر عابراً لطمتها خفقة حزن.

******

في دروب المجاهيل القدرية، وعلى سهوب الأيام المُلغَّمة بالأسرار يخطو الإنسان كالحالمِ في سيره، الغارق في يمٍّ ذهولٍ لا تأثير لعقباته أو مطبّات تحذيراته مهما نثرها بوجهه؛ ذلك أن الإنسان هذا مُساق بحكمةٍ أزلية صوب محفّات اللا دراية.. أليس وجوده من عِداد الإبهام واللغز المحيّر؟.. من هذه المُحصلة الماثلة غير القادر على توجيهها لمنحاه وتكريسها لتحقيق رغباته كان على الإنسان أن يخضع لقوانين العدم ويسير لنهايات لا بد من الوصول إليها حتى وإن أبدى شكّاً بها أو رفضاً لها. يؤكّد ذلك أنَّ ما عزم عليه جعفر لم يصل إليه؛ أو أن وصولَه سيغيّر مجرى اتجاه سفينته العاطفية، ويفتح أمامه أبواباً لم يكن انتصابها يراود دفائن روحه السابحة في هلام البراءة، وما مرّت على خاطره يوماً.

اليوم التالي عزم على الذهاب إلى التياترو بغية استعادة الجريدة التي نسيها بالأمس.

هناك وجدها كما لو كانت موقنة بمجيئه.. كانت بملابس غير التي كانت بها بالأمس. أنها أكثر غنجاً اليوم وأكثر دلعاً، مرتدية ثوباً اسود من قماش البوبلين الطري تنتشر عليه بلا اتساق ورود رازقي كبيرة وقد اتخذت ألواناً فاقعة غلب عليها الأصفر والأبيض وبهت الأحمر بينما توزعت منحنيات بنفسجية بين صخب الورود تملأ حيوزاً من فضاءات فارغة في السواد. لم

يبصر فيها ما يستحق إثارة مجسّات الجذب لديه. فسمرةُ الوجه تقرب إلى الدكنة والملامح لا تشي إلا بمسحة جمالية محدودة. سعت لإظهار لدانة الصدر وتوسيعه أمامه بأن تكلفت بسحب الزيق إلى أسفل فبدا الثوب طويلاً من الإمام ومرتفعاً من الخلف.. أين هذه من وهيبة! أين هاته الأوصاف المبتذلة من ذلك الروض العاطر. صوتٌ داخل جعفر طفقَ يجري مقارنة التقييم.

الروّاد على قلتهم يتطلعون إليها بشبق ولهفة غامرة وهي تنتقل من غرفةٍ لأخرى. كان الواحد منهم يتمنّى لو استدارت إليه تحدثه بالقليل من الكلام واليسير من المودّة.

– بالأمس نسيتَ جريدتَك فاحتفظتُ بها.

– صحيح. جئت كي أستعيدها.

اقتنصت الكلامَ لتسكبَ إكسير الغواية:

– ظننتكَ جئتَ شوقاً إلينا.. وأدارت وجهَها بحركةٍ يمتزج فيها العتاب بالغنج.

– أينها ؟.. آتتي بها.

– احتفظ بها هناك. تعال انهض معي لتأخذها.

ينهض؛ وكالذي وقع في بحيرة خدر يتبعها. لا يدري كيف دخل غرفةً ضمّت أثاثاً قديماً جهدت اليد لجعله مرتباً ترتيباً يخفي تراكم مسببات القِدم. على اليمين سرير خشبي أخفى الشرشف الأزرق ذو المربعات الزرق الداكنة تهالكه؛ وفي الضلع المقابل من الغرفة بدا دولاب خشبي؛ باباه ساجيان كما لو كان بلا طلاء لكنه في الواقع فقد طلاءَه منذ أعوام بعيدة. وعلى الأرض بساط صوفي مُحاك بلا مهارة أرهقته كثرة أقدام وطِئته.

– تفضّل أجلس؛ هذه غرفتي.. وأشارت إلى سرير ليس غيره مكانا للجلوس.

استدارت إلى الدولاب ففتحته. وصلته رائحةُ حنّاء وقُرنفل. شاهد مجموعة ملابس مُنضّدة الواحدة فوق الأخرى تنضيداً يعكس حسن تنظيم صاحبتها.

سمعها تقول في محاولة امتصاص صمت شاع تلك اللحظة:

– قلت زبون ينسى مقتنياته بأول زيارة فماذا سينسى بعد زيارات؟!

ماذا تبغي منك هذه المخلوقة بكلماتِها الباعثة على الحيرة والظن؟ ولماذا تخاطبك بهذه اللهجة التي لا تفسِّر سوى أمرٍ واحدٍ لا يقتضي الانشطار. أمرٌ يشير إلى أنها تسعى لبناء سورٍ أو صناعة قفصٍ تدفعك إليه لتغدو أسيرا لها؟.

مُجاراة لكلامها أجاب:

– لو كانت لي لما عُدت لأخذها لكنّها لرجل وثق بي فأعطاني إياها للقراءة كاستعارة.

هل كان الناس في المدينة محقَّين عندما يحذرون أبناءهم من التقرب إلى هذا المكان على اعتبار أنه مُثقل بالشبهات ومُكدَّس بالسوِّءات؟.. هذا التساؤل أيضاً اخذ حيّزاً في ذهن جعفر.

وبدلاً من أن تعيد إليه الجريدة استلّت من صفوف الملابس ثوباً احمر قرمزي. رمته على وجهه، قائلة بدعارة:

– هذا أجمل ثوب اعتز به. لا أريد ارتداءه إلا لأعز الناس.

ارتعاشه مباغتة هزّت كيانه!

فاجأته الذئاب!

خرج بعضُها من تحت السرير وبعض هبط من السقف. أعداد تسللت من شقوق تحتل الجدار الجصّي، وذئابٌ فرادى دخلت من الباب المواربِ فأغلقته. جميعها انتصبت لحراسة المرأة. المرأة تمثلت عارية تخطو بأعضاء تنضح شبقاً وغواية. تدنو لترفع الثوب الذي التصق بصدر جعفر وتهدل في حضنه.

على أنغام يساوقها خدرٌ ورحيلٌ ذهني تولّى عدد من الذئاب العزف على ألآت وترية لقيثارات كان يشاهدها بأيدي نساء يابانيات في الصور التي تزين واجهة أطوال الأقمشة المستوردة فيما راحت المرأة ترتدي ثوبها لتستر عريها وتخفي نهدين لم يكن لهما وجود عندما وقفت أمامه قبل دخوله الغرفة. كانا مخفيان بذلك الثوب الأسود من قماش البوبلين الطري. دنت منهّ دست وجهه بين نهديها: شم من ورود البستان.. وهبته لك، راضيةً مرضيّة."

يشم!.. فيخدر!

يزداد الخدر.. ويتفاقم

. يأخذه الرحيل بعيداً.. يدخل غابات جذل محمولاً على سرير يطير في فضاء خثرة رطيبة. جنبه امرأة خلعت ثوباً كانت تعتز به وترميه في الفضاء؛ من فوق السرير فيطير مثل فراشة مهفهفة. تقول انظر إلى الفراشةِ تطير فينظر إلى عُريها الفاضح وإلى فخذيها وهما يندهان به: تعال..

راحا عائمين على سريرٍ يحلّق في هواء وأفق تهفهف فيه طيورٌ شبقٍ مزقزقة.. ثم، بغتةً يرى من بعيد وهيبة، فيجفل!

يرمقها غاضبة فينكمش.. يبحث عمّا يستر عرياً فضحته العارية الملتصقة به. يبغي الاعتذار لوهيبة. لكن وهيبة تغيب مثل غيمة فتتثَّها ريح دفيقة. غيَّبتها المرأة بهمسها وترانيم غوايتها وكلمات ولهٍ سكبتها في بوتقةِ أذنه. بيد أنها عادت من جديد كأنّها تتحدّى الغواية رافضةً وجود المرأة المومِس تمتص شهد نقائه.. انتفض!

وهيبببببببببة!

ترك السرير.. ارتدى ملابسه على عجل. خطف الجريدة التي رآها ظاهرة فوق دولاب الملابس. ومندفعاً خرج! خرجَ غير مُصدِّق ما جرى... هل كان يحلم؟!

تفاصيل المشهد ظلّت تلاحقه. تلاحقهُ حتى وهو يدخل غرفته في البيت. لم يكن أبوه قد انتهى من صلاة المغرب في جامع حسون وعاد. فقط أبصرته أمه فلحقت ذاهلةً، مندفعة، داخلة خلفه. شرعت تتفرس به؛ موشكةً على رشقه بأسئلة حَيرى ورغبة فضول في التعرف على مسبّبات حضوره غير الاعتيادي لولا أنها كبَحت جموح رغبة الكلام. خمّنَت تراكمَ أسئلتها الحيرى يومياً قد تؤدي إلى انفجاره فانسحبت بعدما سألته سؤالها التقليدي اليومي: "هل تحتاج شيئا، يا ولدي؟".

عندما تتسلل إلى منابت روحك البريء أذرع الخطيئة وتعوم على طفو حياتك المحنّاة بالنقاء لا بدَّ من حدوثِ ارتجاجٍ تهتزُّ لها أركان بستان هدوئك الغارق في خثرة هواء رطيب.. وعندما تأتيك فتاةُ الغواية ناثرةً ألوانَ خداعِها على ساحة يومك المدلهم بالحزن والألم والفقد تستفيق لديك آلة البحث عمّا يقلل من غلواء ذلك الحزن ويضئّل نسبةَ الألم ويبعد عنك تواليات رد فعل الفقد. فهل أحسنت عندما تركت بهية تقتصُّ من صدق حبِّك لوهيبة وتعلقك بأول تواصلٍ روحي يمثل باكورة البراءة ومنتهاها كما يُفترض؟ هل وجدت في بهية التي تهبُ جسدها بما يحلو لها بديلاً لوهيبة التي قالت لك "لن أنساك، فلا تنساني.". "لا.. لا..." وسحب الوسادة من تحت رأسه المدلهم بأسئلةٍ صارت تحتشد عند شرفة ذاكرته المُطلة على الذكريات. يدفن رأسه تحتها كأنه ينوي خنق الأنفاس مُرتحلاً عن غيوم اللوم وعواصف التأنيب... نام تلك الليلة على استدعاء حمّى أخذت تتفشى في أوصاله دافعةً إلى تخوم الهذيانات المنتجة عن دفق كوابيس قطباها وهيبة ببراءتها وصدقها ولوعتها، وبهية بعريها وغوايتها وشبقها. ولم ينهض من السرير ستةَ أيامٍ وسبعَ ليالٍ كما أخبرته أمّه اللائبة الكسيرة الحزينة على ولدٍ سحقته لوعةُ الحب وأدماه خنجرُ الفراق والفقد.. يزرنها نساءٌ مُظهرات مواساة على شحوب يكتشفنه يوشّح وجهه.

يوم ترك السرير وشعر أنه قادر على النهوض والتحرّك أول شيءٍ فعله هو تركه الزقاق خروجاً إلى النهر. هناك وقف! تماماً في وقفته المعهودة يتحاور مع وهيبة بحوارِ النظرات البعيدة والروح الطائر. وهناك أيضاً كانت عيناه تسرقان لمحةً من بناء التياترو الرابض بعد الجسر، وشمسُ العصر تنثر بقايا ذهبِ النهار على الحائط الحجري للتياترو وبابه المواربِ ونصف أعلى لامرأة تطل من شرفته... مَن تكون؟!

((كنتُ أتخذ من سور سطح التياترو مكاناً للتطلّع، فمنذ ستة أيامٍ وسبع ليالٍ ولم أبصره. ومنذ ثلاثة أيامٍ وأنا أغرق في بحر القلق والحزن والأسئلة.. في اليوم الرابع تركت التياترو واتجهت صوب بيته. هناك وبدعوى تفصيل ثوب جديد لي زرت الخياطة التي اعتادت خياطة أثوابي. ومن حديث وأسئلة عن جيرانها تفوّهت بألمٍ عن حالته. قالت أن جعفر ابن حسن درجال وهو شاب وسيم وبهي يعيش حمّى لا يدركون سببها. زاره الطبيب ميرزا فحار في أمره. لم يَعطه سوى شراب "اليانسون" و"ورد لسان الثور" لتخفيف حمّى مقيتة تعيش في أوصاله منذ أربعة أيام. خرجت وأمام باب بيته وقفت. هممتُ بالدخول وأنا أحس أنفاسه الحرّى تأتيني طائرة مع رائحة بخور تشيع طاردة أنفاس الشرور وبواعث الحسد من منافذ البيت تحكي عذاباته مع الحمّى لولا أن دخولي قد يزيد بلاءه ويسبب إحراجاً له ومضاعفات. منذ ذلك اليوم رحت اتّخذ من السطح ميداناً لأطل على الطريق علّني أراه قادماً يعبر الجسر وداخلاً التياترو لأجرّه إلى غرفتي وامتص حرارته الزائدة فأتركه يُشفى ويتركني عليلة إلى الأبد... ها هو يأتي! أراه يطأ درجات السلم نزولاً إلى النهر. يجلس هناك على صخرةٍ. يرفع حجراً ويرمي به إلى النهر.. هل أنتظره قادماً إلي؟.. هل اترك السطح وأخرج فاعبر الجسر واتَّخذ الطريق إليه فأنزل إلى ضفة النهر وأجلس جواره وأملأ القلب بحديث اللوعة والألم بما عاناه وما جرى له، أم أبقى متتبعةً خطوات نهوضه وصعوده إلى الطريق

وضياعه في أزقة ستلتهمه لتفضي به عند البيت؟.. آآآآآآآآآآ جعفر!))

أيامٌ معدودة مرّت كان الشوق لوهيبة يتكاثف ويتناسل، والذكرى المليئة بالشغف تعود غامرة يومه. شعور بأنه ارتكب خطأً لا يغتفر هو ما ساوره، وإحساس بأن بهية سرقت الكثير من عهده لوهيبة، وأنَّ ما فعلته سيُعد من باب فعل الطعن لقلب الحبيبة، معتبِراً خضوعه لغواية بهية آخر خطيئة أرتكبها.

كانت الأخبارُ تتوارد إلى المدينةِ تحكي انقضاض العشائر على قِطار مُحمّل بالضباط البريطانيين وجنودهم من السيخ والكركة، وأنَّ معركة حامية دارت شمال المدينة تاركةً الجثث من الجانبين متناثرة وقد شبعت الكلابُ والثعالب منها. تلك الأخبار جلبت الخشيةَ إلى الجميع وهرع أصحابُ الدكاكين إلى تفريغِ محلاتهم من البضاعة ونقلها إلى بيوتهم.. صار كلُّ محل يعرض الفرادى من البضائع خشية أن يسوء الحال فتهجم العشائر لتمارس السرقة، هي التي لا تتواني عن فعل ذلك، وشهيتها في أوج انفتاحها هذه الأيام فلقد شهدت المدينة الريفيين يدخلون بعيون تشع انبهاراً بمحتويات الدكاكين وتتطلع بذهول ما وراء النظرات. ثمّة رغبة عارمة للانقضاض والاستحواذ.

ذلك الصباح الخريفي استوقفه إلياس بلباسٍ عسكري بريطاني وقبَّعة دائرية تنتهي من الخلف بقماش كتّاني يغطي الجزء الخلفي من رأسه رفعها وهو يترجل من سيارة "جيب" عسكرية ويهم بالدخول إلى الدائرة حيث ينتظر قدوم السيد تومسن. كان جعفر قد برح البيت لاستنشاق نسمةِ هواء يمررُّها الفرات له كعربون لقاء صباحي ويبعث بنظره إلى الصوب الصغير علّه يشاهد وهيبة جالسة تحت شجرة الكالبتوس تنتظر حضوره. طالبه إلياس بزيارة ساعة عصر لتبادل الأحاديث مُفضياً برغبةِ اطلاعه على ما يهمّه. تلك اللحظة شعر جعفر بالارتياح وبمَيلٍ جارف للقائه والتحدث معه لما

يحمله من ثقافة غزيرة، وما يفيض عليه من معرفة واسعة، وما يتَّصف به من ذوقٍ رفيع.

دانَ الوقت لثقل مروره..

وطالب ساعةَ العصر بالقدوم السريع.

(٧)

– هل تعرف يا جعفر! إنَّ الحيرةَ تلفّني مُذ شاهدتُ رسوماتِك الانطباعية. وزادها قولُك انك لم تعرف عن الانطباعيين الفرنسيين شيئاً، وانك لم تشاهد لهم لوحةً واحدة مطلقاً.

– هذا صحيح.. أنت تعرف أنني أعيش في مدينة شأنها شأن مدن العراق منقطعة عن العالم.

– أولئك صارت أعمالُهم التي يعرضونها مدرسةً فنية تتباهى بها باريس. شكّلوا تيّاراً مهمّاً أثار إعجاب الأوربيين.. إنهم مانيه ومونيه وبيسارو ورينوار وسيسلي، وآخرون جاءوا بعدهم يواصلون الانطباع ويتجاوزوه.

دفعَ الكرسي الذي يضمّه إلى الوراء قليلاً، ونهض.. ترك منضدةً خشبية ساجيّة احتوى سطحُها حاويةَ أقلامٍ وقنينة حبر أزرق ومُجفِّفة حبر خشبية تشبه زورقاً يحمل كتلةً خشبية كروية ناصعة خصصت لاحتضان الكف لها وضغطها على سطر الكتابة بغية الإسراع في تجفيفه من سطح الورقة. اتّجه إلى النافذة. سحبَ ستارةً خضراء شفّافة مانحاً عينيه حريةَ التوجّه إلى النهر:

– أمامَك الفرات، يا جعفر. وذاك صف البيوت في الصوب الصغير، وتلك الزوارق الطافية على الماء. كل هذه تشكل لديك لوحة انطباعية تضاهي بها رسومات بيسارو المُغرم بالأنهار والجسور ورسم معالم مدينته.. لديكَ بائعات اللبن وهنَّ يطفنَّ في الدروب وبين الأزقة حاملات على رؤوسهن الصواني المليئة بأواني اللبن الفخارية.. أدخل إلى سوق الصفارين

وسوق الحدادين لاختيار نماذجِك في الرسم.. عندك البدو القادمون بجمالِهم من بطون الصحراء بوجوههم الناحلة الصفراء وشواربهم الدقيقة الحادّة وشعورهم المنسابة جدائل من تحت كوفياتهم. لقد رسمهم فنان فرنسي اسمه ديلا كروا قبل سبعين عاماً. احدث هذا الرجل انعطافة متميزة في الفن الفرنسي حين مال إلى الشرق فعرض نماذجه الصحراوية.

((ينظر جعفر إلى دروب داخله فيكتشف نماءَ بذرةٍ خضراء تشرع بالتوهّج والتألق على سهول روحه التائقة لماء المعرفة ونور شمس التفتّح.. يدور في حواري التوق فيصطاد الرغبةَ جامحةً في اغتراف المعرفة، ويبصر من بعيد أكفّاً تومىء له أن يدنو ويقترب من مرابع الثقافة الإنسانية كي يملأ جيوب سنواته بثمار يناعة الموهبة.. يحدِّق في مدخل نفق انفتح تلك اللحظة فيبصرُ حشداً من ذئاب حادة النظرات . بينها ذئاب بليدة خامِدة ترمُقه ببرود. غير أنَّ عمق النفق يملأه لون سخامي لا تتضّح شيئياته جليّةً، ثم شيئاً فشيئاً يكتشف بوادر همهمة لغدرٍ يتهيأ للانقضاض؛ ثم يغيب كلُّ شيء.. ينظر إلى هذا الرجل الثلاثيني المفعم بالود والمزدحم بالمعرفة. لم يثنه دينُه المسيحي عن أن يقدّم نصائحة ويعرض تطلعاته له، هو المسلم بينما الذي يحيطون به أناس مسلمون ينظرون إليه بريبة ويتوجَّسون منه لأنه ليس على دينهم ودين آبائهم وأجدادهم. لا يقربونه. محتسبينه كافراً لأنه جاء مع الكفّار.)).

راح إلياس يبعث بنظراته إلى النهر أو إلى المدى ويطلق حسرةً، قائلاً:

_ ألا تستطيع التأثير بهؤلاء الناس؟ ألا يمكن تنويرهم؟!

يتوقف فيستدير، فيكون وجها لوجه مع جعفر:

– إنهم يخوضون في برّية الجهل والعَماء، يا جعفر. لقد أنقذهم الانكليز من كابوس الترك وكانوا مصمَّمين على نقلهم إلى مرافىء النور.. أنا معهم واسمع حواراتهم وأقرأ برقيات القيادة في لندن توجههم إلى تقديم الخدمات

ومساعدة هذا الشعب المظلوم. لقد جاع أهلي في الموصل ومات الكثيرون منهم هِزالاً. كانت رسائلُهم تردني وأنا في لندن أواصل دراستي تقصّ العذاب والألم وتحكي حكايات لا تصدق. لقد أكل جوعى الموصل لحمَ البشر بعدما أجهزوا على القطط والفئران.

حاول أن لا يستدير هذه المرّة لئلا يكتشف جعفر دموعه المنسابة من عينيه.. يواصل الحديث راح:

– يكلمني تومسن عن رغبته في انتشال هذه المدينة من وحلِ البغض والتناحر متمنيّاً عودةَ أهلِها إلى رشدِهم. الناس هنا بدأوا ينظرون إلى الانكليز بعِداء كبير. لقد هاجموا الباخرة " غرين فلاي GREEN FLY" جنوب السماوة؛ في قرية الخضر تحديداً. حدثت مجزرةٌ لا مبرر لها قُتل من الجانبين الكثير. الحال سيسوء في الأيام القادمة يا جعفر، والانكليز يفكرون بتسليم البلاد إلى أناس يوالونهم ويتخلّون عنكم.

توقَّف قليلاً قبل أن يقول:

– سننتقل بعد أيام إلى حاميةِ المحطة، خارج السور.. سنلتقي هناك إذا قدرت على الخروج مع أنّي اشك في ذلك.

أعلن جعفر أسفاً وأبدى إحراجاً. شعر أنه سيفتقد صديقاً وموجهاً. سيجد نفسه يخسر إنساناً مجبولاً من طينة النقاء. سيكون فقده خسارةً لا تعوض. كلماته التنويرية والتحريضية له على مواصلة الرسم بعضٌ من دواء جعله ينشغل عن الحزن العميم جراء فقده وهيبة بالتخطيط والرسم."

كان كلما عرض عليه مجموعة تخطيطات يهتف:

– عظيم! أنت انطباعي العراق بلا منازع! تسير على خطى بيسارو!

يُحدق في الرسومات والتخطيطات، ويهتف:

– سأضمُك إلى الانطباعيين وأجعلك واحداً منهم.

" آآآآه، صديقي إلياس!"

ما أن مرّت ثلاثة أيام حتى تناقلت الألسن خبر إغلاق مكتب السيد تومسن ولم يلتق جعفر بإلياس أبداً. وما أن مرّت أيضاً بضعة أسابيع حتى اندلعت معركةٌ شرسة مع الانكليز المرابطين في الحامية المجاورة لمحطةِ القطار طرفها المحلي القابل المتحينة فرصة نهب ما يقع بأيديهم من هزيمة أو قتل الانكليز ورجال حاميتهم من السيخ والكركة إثر فتوى دينية جاءتهم من النجف تحرِّض على قتال الكفّار وجدوها فرصة لا تعوَّض. أول من تأسى لذلك صبية المدينة الذين اعتادوا ترك السور صباح كل يوم والتوجّه إلى الحامية الانكليزية حصولاً من الجنود المرابطين في المحطة على الأرغفة السمراء التي يستعذبون أكلها والحساء الساخن الذي يمنحه لهم طباخو الحامية.

لم يجد هؤلاء الصغار بعد أيام سوى محطة قطار منهوبة وآثار خراب في كل مكان.

كانت خشية جعفر على إلياس شديدة، ليس لها حدود.

صار جلّ تفكيره تلك الأيام ينصبَّ على معرفة خبر سلامة إلياس. وفي خضم ذلك القلق ساءت الحال داخل المدينة وعمّت الفوضى.

جاء الخراب يحمل كلَّ عدَّته من المعاول والفؤوس ليطيح بهيبة الزمن معيداً الحال إلى ما قبل قرون.. ناشراً ريحَ سطوةِ الأقوياء على الضعفاء فدخلت المدينة نفقَ الضياع... وتاهت.

التفاؤل بانتهاء الاضطهاد وقدوم السرور ماتا في قلب وارد السلمان.. طفق يصرف يومَه منزوياً في مقهى الدليمي. غضون جبهته تفشي سرَّ حزنه؛ وانكماش عينيه يبوح بانطفاء ألق تمنّاه يشيع في الوجوه؛ أمّا انفتاح الذراعين اللذين كان يفردهما اتساعاً كسمةِ ترحيب لاستقبال القادمين إليه فتبخَّر. استحالت تحيتُه مفرداتٍ متهالكةً تخرج من شفتين تقشَّرتا فبدتا كما لو كانتا هويةً للخسارة الأزلية.

أبصره جعفر مرةً فاندفع إلى عمق المقهى حيث يقبع حزينا حسيراً . دنا منه؛ جلس محاذياً له فلم يُبدِ اهتماماً. اكتشفه جعفر يتجنَّب الآخرين إمّا خشية أن يوصَم بالعمالة لأناسٍ جاهر باحترامِهم ورغبته في بقائهم أو أنَّ الجزع يغمر فضاء روحه فيتركه غير راغب في لقاء احد والدخول في أحاديث لا أهمية لها بعد الذي جرى.

نادى جعفر على قدحين من عصير الزنجبيل جاء بهما العامل سريعاً، فتهلل وجه السلمان قليلاً، مُبدياً امتناناً.

مدَّ كفّاً ترفع القدح. ارتشف بعض رشفات قبل أن يفتح حديثاً:

– كيف هو الرسم. أعجبني المنظر الذي في مقهى برهوم.

– لم يعُد الرسم يهمّني.. لقد انتهى كل شيء... فاه جعفر متألماً.

الكلمات استفزت السلمان رُغم قلتها.. فتراجع بجلسته إلى الوراء كما لو كان يريد أن يتأمل بنظرةٍ طويلة تستهدف سبر غور هذا الذي رمى كلاماً مثلَ مَن يرمي حجر في بركةٍ تسعى للاستقرار.

– لم افهم ؟

– لقد قتلوا الحلم.

((ما هذه الشجاعة التي يفوه بها هذا الشاب؟ ولماذا اندفع بهذا القول الصريح غير المسبوق بممهدات؟ أتراه دنا مني ليبوح بما يتوافق وألمي وحسرتي على ضياع فرصة العمر لوطن كان يعيش على شاطيء من الإهمال والجور والكد أم لديه غرضٌ آخر؟!)).

تفرّس بجعفر، وعاد يرتشف السائل الحلو ليخفف من مرارة تملأ فمه!!

رأى جعفر سحنةَ وجهه تتكمش وعينيه تضيقان:

– نعم؛ فشلت التجربة وسنخسر عقوداً كثيرة لن نحظ بعيشها إلى أن يأتي النور من جديد ويتوجّه إلينا مَن يرحمنا لينقذنا من ظلم طويل وجبروت لا ينتهي.. متى ينتهي؟

اصطاد جعفر بواكير أسى السلمان من زمِّ شفتيه وترقرقِ دمعٍ في حدقتيه. زورق الأسى حمل جعفر وهو يبصر السلمان كئيباً منهزماً إلى مدارات نائية رأى فيها مصائر الناس تُنشر على حبال الضياع مثل أردية ممزقة وقمصان موحلة وآمال تتقطّر سوداء كما لو كانت مستلة من حفرة سخام فاحم. رأى النهارات تضجُّ بعواصف ترابية تطيح بهيبة شمس الضحى ودفء الظهيرة ونسائم وقت العصر. رأى كل شيء لا يمت إلى الموضوعية والإنصاف؛ كل شيء بالمقلوب: نهر تجري فيه مياهٌ كَدِرةٌ.. دروب تملؤها ضفادع النقيق.. حزن تتوارثه نفوس تتوق إلى جدول سرور عذب.. سماء تخلّت عن غيوم جذل ماطرة..

جاءت الأخبار لتشيع تفشّي العصيان والمناهضة للقادم. جاءت لتقول إن القادمين في وضعٍ لا يشير إلى أنهم سيعيدون ترتيب خارطة البلاد الضّاجّة بتضاريس الألم والجوع والفاقة، لن يقدِّموا ما وصلوا إليه من حضارة إنسانية متفوقة ونظم رفاه عميم لينثروها على المدن والأرياف الموشكة على الموات.

جاءت الأخبار لتقول أن الفوضى تعم البلاد بأرجائه وأن الجميع من أقصى العالم إلى أدناه يتكالبون عليه: بلاشفة في روسيا(١) وألمان في إيران(٢) وإيرانيون في إيران وعراقيون في سوريا وأتراك في اسطنبول كلهم يحلمون بالتهام ما بقي من ضوء العراق، وجهل يعشش في نفوس جموع لا تفهم من الحياة غير شعارات دينية تتمسَّك بها نظرياً، ونفوس أخرى تروم الهناء والاستقرار يأتيها على طبق من زمن خاطف، فلا تضع لحسبان الصبر ولا لمكائد منصوبة للوطن بغية تهشيمه وتفريغ ما ناله من منجز نبذ عدو بغيض لبسَ لبوس الدين فاحرقَ الأخضر واليابس.. ذئاب تأخذ شكل الجماعات تنبثق من أزقةٍ يدخل إليها جعفر أو يخرج منها.. ذئاب يرمقُها تلاحقه؛ تقترب منه، تحاذيه فيسمع همهمتَها تسبق العواء لكنها لا تعوي، فقط تدفعه إلى تجنبِها والهرب منها حذراً..

(١) (٢)

جاء في تقرير للاستخبارات الانكليزية في العراق إلى: أن أخبار البلاشفة ومنشوراتهم متداولة في العتبات المقدسة جاء بها دعاة البلشفية إلى العراق في زي زوار وطلبة إيرانيين. وكتب حاكم السليمانية الميجر صون يقول: إن اسم البلشفية ومبادئها أصبحت معروفة لسوء الحظ في منطقته، وان جريدة كركوك هي أهم من يُروِّج لهذه المبادئ. (ينظر لمحات من تاريخ العراق الحديث) – علي الوردي – مطبعة المعارف – بغداد ١٩٧٧– ج٥ – ص٥١

هذا الحذر دفع به في لحظةِ رعبٍ إلى اتخاذ الشارع المطل على النهر فلم يقف عند المنفذ النازل إلى النهر كالعادة للنظر إلى أشجار كالبتوس كانت وهيبة مع رفيقاتٍ لها يجلسن في ظلها، ولا إلى حافة الماء حيث كانت وإيّاهنَّ يتسلين بالنظر إلى جموع الأسماك الفضّيّة الصغيرة اللاصفة وهي ترتفع كوميضٍ بارق على سطح الماء بل باتجاه الجسر ليعبره. وفي العبور تبتدىء لحظة دغدغة تسري في تلافيف دماغه وتشرع بواكير ارتكاب خطيئة كانت الذئاب الملاحقة له تقلل من تأثير حدوثِها فتجعله يخطو على هَدي انجذابٍ مُهيمن لباب التياترو. باب التياترو يتوارب كأنه يبتسم له من بعيد. كأنه يُعلن شوقَه وترحيبَه. ولِجتَتي مرةً فكرر. الذين مروا عبري صرتُ لهم قبلة، وصار الداخل مزاراً.

لحظة اجتازه جعفر والتفت ليستشفَّ فعلَ الذئاب ونظر إلى أين تستمر همهمتها لم يجد لها أثراً.. الهمهمات لم تعد لها ذبذبة في مسمعه فقط أبصر الجُلاس يتخذون أماكنهم على الأرائك ورأى امرأة يتشح وجهُها بأصباغ تُظهرها كتلك التي يشاهدها في صور دعاية توضع على أطوال القماش المستورد من أوربا؛ بدت شفتا المرأة حمراوين صقيلتين من شدة الالتماع وثوبها يشبه فساتين نساء أوربا يرتفع من الأسفل فيظهر ساقين بضّتين يزيد امتلاءهما الحذاءُ المرتفع من الخلف ارتفاعاً مستدِقّاً كأنه يستند على إصبع حديدي. العيون تلاحقُها بنهم وتسكب تركيزها على القوام

المنتصب والصدر المرتفع جبلاه عارضاً هتاف الغواية تاركة الأسماع تتيه على نبرة الصوت الغنائي الريفي، وصوت العامل يدور بأقداح الزنجبيل وقناني الصودا يُعلن همساً أنَّ حفلة المساء ستكون عامرة بخلقٍ فاتن شَكلاً وصوتاً قادم من سوريا؛ إعلان كالبشارة يدلقها في آذان الغارقين في اقتناص لحظات نظر للتي انعطفت في زاوية البيت وتوارت مخلّفتهم يلعقون شفاهَهم بألسنتهم شبقاً. وخلّفت جعفر يصحو على أريكةٍ ونافذة تنسحب ستارتها قليلاً فتريه قوام بهيّة ينتصب وقد هجم الفرح فغمر وجهها وجعل عينيها تتسعان دهشةً وشوقاً لوجوده؛ وجعل عامل التياترو غب لحظات يدنو منه وينحني هامساً أن بهية بانتظاره لتسأله عن شيء تبغي معرفته.

(الشيء يعرفه! نعم ستسأله عن غيابه وتُبعثِر على مسمعه فيوضَ حزنها لوماً بسبب ابتعاده عنها، ولن تسأله عن تبعات غواية ارتكبَتها بحقّه كانت كطعنة سكين قذفت به في هوة الحمّى والندم.)

كانت الغرفة كما هي بمحتوياتها. وكان شوق بهية غدا غديراً. وقفت تمسك بكفّيه وتقبلهما مُفصحةً ألماً لأنه مرِض. شرعت تقص عليه قلقها لغيابه ما جعلها تذهب يوماً تسأل عنه وتتألم لما سمعت من انهياره. شفتاها تتراقصان شوقاً لالتهامه وعيناها تتوسلان رضا منه. رآها تستدير فتفتح دولاب ملابسها وتسحب ثوباً لم يشاهده في لقائه السابق:

– انظر لقد فصّلتُ هذا الثوب من أجلِك. لم ألبسه وقلت حالما استلمته من يد الخيّاطة لا تمسسه سوى أصابع جعفر، ولن تمطر عليه سوى أنفاس جعفر. جعفر سيلبسني إيّاه بيده ويخلعه بيده... هاك خذ!

كلماتُ الرفض تدفَّقت على حافة لسان جعفر. احتدام جامح شرع يسري في كيانه العليل بينما صوت داخلي انبثق يدعوه إلى عدم الوقوع في غوايتها. يطالبه ألا ينجر لتضرعاتها، فما تبغيه هو إشباع نزوتها وإرضاء غرورها؛ ويوم يتحقق الشبع سترمي به بعيداً في هوّة التجاهل واللامبالاة، تماماً كما

فعلتها مع معظم جلاس التياترو المرابطين الآن على التخوت ذليلين، كسيرين، منهارين. دفعها إلى الخلف رافضا دعوتها للجلوس وموشكا على الخروج وسط تضرعاتها بأن لا يجعلها تتمزق ألماً وتحترق شوقاً.

في غمار الرفض وارتفاع صوت الأعماق ومحاولات الانفلات من يديها – يداها راحتا ترتعشان، ممسكتين به، وعيناها متوسلتان عطفه – سرت همهمةٌ كانت تركته خارج التياترو طفقت تحيط به الآن!.. هياكل الذئاب تخرج من بين شقوق حيطان الغرفة وأخرى تنسلخ من الباب التي أوصدته المرأة حالما دخل. أحاطت به وعيونها تطلق بريقاً فسفورياً لميعاً فيما أفواهُها تترك لهاثاً يشيع في فضاء الغرفة ناثراً رائحة خدر. من خلال غلالته أحس بأنامل بهية تخلع ملابسه وأنامله تخلع ملابسها؛ ثم تجعله يُلبِسُها الفستان الجديد فتنطلق تتمايل بجسد ممتلىء وتستدير بحركة مغناج مثيرة؛ مشيرةً بإصبع الدلال أن يخلعه عن الجسد. خمّن جسدها تارةً جسدَ أفعى وتارات جسد امرأة جمعت كل أبجديات الفتنة والعذوبة.. لم تكن هناك هذه المرة وهيبة بعفافها المكدّس ونزاهتها العميمة. كان الجسد الشبِق والذئاب المستأنسة المستريحة والرغبة العارمة للإشباع.

كانت الغواية بعينها..

كان العهد والوعد بوفاء الحضور القريب..

كان الخروج ليلاً وسؤال ألأم عن تأخره غير المعهود وقلقها من أن تكون بواكير الجنون قد استشرت في عقله التائه المفقود فجرّته من ساعات النهار إلى متاهات الليل.

وكان إن استمرت تلك الدوّامة. وفراغ تركته وهيبة مليئاً بالكَدر والحزن والقلق والفقد وعبثية الحياة ينزاح بكفٍّ لذة تترعه بها بهية بكؤوس متوالية وعلى رواء حتى أنَّ وهيبة غدت شبحاً يلوِّح بكفٍّ متضرعة أن لا ينساها، لكنّ الكفَّ تتفتت وتنفرط في فضاء من اللامبالاة. استحالت بهية بكل ما

جندته من جيوش الإغراء وأسلحة التيه هي المهيمنة. لا تنام إلا على آثار أسنانه في عنقها وعلى زنديها ورمانتي كتفيها تكشفهما المرآة فتغدقان عليها لذة الشبق الجارف، حالمةً بلقاءٍ قريب لا يبعد سوى ساعات ليتجدّد من فمها المتوسل وروحها المترجية مضمار اللوعة وسكب الآهات...

بيدَ أنَّ ذلك اليوم الذي حضر فيه جبار الغاوي ليدخل عليهما وهما في فورةِ عناق وحشي والغرفة تضمهما عاريين كان حدّاً فاصلاً لجنون شهواني انتهى بأن غادرت بهية إلى حيث لا يدري جعفر. فقد حاول معرفة وجهتها من زميلتيها نجية ووفية ولكن دون جدوى. ظلتا والدموع تهطلان من عيونهما تصدّانه بجفاء كلما جاء للاستفسار عنها. حسبنه المُسبب في طرد صديقةٍ لهنَّ وجعل صاحب نعمتهنَّ يغضب فينلنَ التعنيف لإخفائهن موضوع عشقِها له وعدم التحرك لمنعِ علاقة يراها الرجل مُضرّة بالتياترو قد تتسبب له بمضار لا حدّ لها.

وضاعت بهيّة مثلما رحلت وهيبة..

ومثلما غاب إلياس عنه إلى الأبد..

اكتشف الحياة ضياعات متهافتة متوالية. وهي إنما تجيءُ بالمرادات المُغريات المؤثّرات لترشق وجوهنا بمقولة: "لِدوا للموت وابنوا للخرابِ"؛ فما يجري يبيت من عِداد شريطٍ يعرضُ حياةً تبدأ بالفرحِ واللذة وتنتهي بالحزن والضياع. ويوم استعرض ما دار به وما جرى عدّه من بابِ حلمٍ يجري لينتهي..

تعودُ وهيبة صوراً متوالية.. وهيبة المنتصبة إزاءه كتفاحة تعجُّ بالشذا الفائح لهفةً عذبةً وشوقاً هفيفاً تمد كفّيها لتتلمس قماشاً تخيل كثيراً مفصَّلاً على جسدها أثواباً وفساتين، ترفل أمامه كحورية من حواري جنة وعد الله بها المؤمنين، فاردةً ذراعيها لتضمه بعناق روحها العائمة على موج العفاف.

يعود لبهية تتضرع عند قدميه ترجو تقبيلهما في أن لا يفكِّر بهجرها. بهية

التي تبكي حين تتلمَّس غيوماً من أطياف أحزان تتجمع عند مشارف حدقتيه فتروح تستفهمه بحنان أمومي ذليل عمّا يؤذيه وما يرهقه باحثة عن سرٍّ لا تدريه.. سر خيانته لوهيبة ونكثه لعهدٍ قطعه لها. ذلك السر الذي لم يبح به رغم محاولاتها العديدة في الوصول إليه.

يعود إلى إلياس الرجل الحامل لشفافية العالم ونقائه، المُرتدي لخُلقَ إنسان يحب الناس بكل جوارحه وعواطفه ورغباته.. لقد تركَ جُرحاً عميقاً في ذاكرةِ جعفر وجعله يشعر أنَّ بغيابه خسر موجّهاً كان سيقلُّه بجناح نقائه إلى عالم الفن المستحيل رغبةً أبدية ستحطّمها الأقدار مستقبلاً وترميها عدد من لوحات تجعل منه رساماً محليّاً لا يتعدى حدود مدينته في حين الأجدر أن يرتقي إلى مصافي العالمية.

يتذكَّر رسالةً استلمها من إلياس بعثها من لندن بعد أشهرٍ من تركه العراق: ((.. لقد خسرنا نحن العراقيين دولةً لو تعاونا معها لنقلتنا من جيبِ الظلام إلى مرفأ الضياء، ولفتحت أبواب مدنها الحضرية لإخواننا وأخواتنا للتعلم والتثقيف، ولوجدتك الآن تعرض لوحاتِك الإبداعية الباهرة في احد معارضها التشكيلية المنتشرة.. الفن التشكيلي يا جعفر ممارسة نابعة من قلب الشعور الغامض؛ يجرّك إلى برارٍ لا تدرك تضاريسها، ولا تفقه سر جغرافيتها لكنه مع ذلك شعور يترجم غمامةً تسيحُ كسائلٍ سحري في تلافيف الدماغ فيستحيل موضوعاً بأشكال تتمثّل، وآفاق تظهر، وألوان تتداخل وتتماهى وتمتزج لتتمظهر بفتنة تهتف بها العيون المتلهفة إلى خلق الفنان. كان مونيه يقول: (نحن نرسم كما يغني الطير) إشارة إلى سمةِ الحريّة المشتركة التي يتحلّى بها الطير الطليق والفنان الذي يفترض أنْ يعيش الانطلاق.. أرى انك موهوب وسط جفاف معرفي كزهرة في يباب.. آآآآآه! كم أتمنى لو كنت معي الآن في لندن لانطلقنا إلى باريس نزور معارض مونيه وبيسارو وسيسلي ورينوار.. ماذا؟.. نسيت أن أخبرك أن فنانين جدد ظهروا؛ تجاوزوا

الانطباعية إلى ما يُسمى بـ"الوحوشية" يقودهم فنان اسمه "ماتيس"، و"دوفي"، و"براك"، و"ماركيه". لا، بل ظهرت حركة فنية جديدة يسمّيها النقاد "التكعيبية" يقودها براك وفنان آخر اسمه "بيكاسو".. لا تترك الرسم، ولا تُطِح بموهبتك المميَّزة. أرسم وارسم؛ فكل ما يحيطكَ يُحسب مواضيع خاماً لفنّك."

ماذا تقول يا إلياس.. بماذا أجيبُكَ؟!

(الفوضى تعمُّ المدينة، والناس في خشية من فقد مبررّات حياتهم اليومية.. الغذاء ينفذ؛ والمحلات تكاد توصد أبوابَها.. التجّار الجشعون يهرِّبون الحبوب حنطةً وشعيراً وذُرة بالسفن المتسللة ليلاً صوب الجنوب؛ وأخبار عن دخول أمراض لا يعرفها الناس قبلاً.. أمس ماتت عائلة بكاملها أمٌّ وأب وثلاثة أبناء تعشوا وكانوا يتهيأون للنوم عندما داهمتهم نوبة إسهال وفقدان سوائل بلا ألم فقضوا مع ابتداءات الصباح. وأمس خرج جارٌ لنا إلى عمله محمّر الوجه، بعينين مهيضتين ولم يَعد ظهراً إلا والحمّى تسقطه عند باب بيته لتنتشر ندباً وبثوراً على وجهه ثم تغزو جسده وتطيح بقامته المُهابة وطلعته البهية.. وأمس حصلت حادثة قتل يوسف بلبول اليهودي حين أغار على بيته ليلاً حفنة لصوص آملين في مالٍ يحصلون عليه فلم يتركوا غير رعبٍ لزوجته وبنتيه يصرخان بأعلى صوت النجدة وهما تريان أباهما مضرجاً بدمائه وعينيه تتجهان إلى السماء... وأمس حدثَ، وحدث، وحدث.. وأحداث يا إلياس.. متى تنتهي؟!.. متى تتوقف هذه الدوّامة من الفوضى والعبث؟.. أخبرني؛ هل تمَّ الاتفاق حقّاً على حضورِ رجلٍ من سلالة البيت الهاشمي ليقود العراق؟ هل حقّاً سترسو سفينة العراق المتداعية وسط بحر المشاكل المتلاطمة الهائلة على مرفأ الاستقرار؟ وهل سينتصر ذلك القادم على فوضى صارت تسري في العروقِ كما الدماء؟)

الأخبارُ ترد أنَّ الانكليز يحزمون الحقائب الملأى بذكرياتِ قتلاهم متأسين على أموالٍ خسروها وعِدد تركوها، وأحلامٍ وأدوها. وتأتي أخبارُ استقبالِ رجلٍ

اسمه فيصل نُصِّب ملكاً على البلاد (*)؛ شاهد الناس صورته بذلك الوجه الناحل والقوام الرقيق يتصدَّر الصفحة الأولى من صحيفة العرب جاء بها شاكر حسان من الديوانية يوم ذهب مُقدِّماً التعازي لأقاربٍ نهش ولدَهم الوحيد مرضُ الجدري فأنهاه كتلة حمّى استحالت حجراً بارداً. وجدَ الناس هناك يتصنَّعون تفاؤلاً ينقذهم من عُظم الهول وينهي سني ضياع ظنّوا يوماً أنها لن تنتهي. قيل أن شاكر حسان توجّه إلى بيت وارد السلمان حالما وصل السماوة ليطلعه على صورةِ الملك الجديد ويتركه يقرأ خبرَ استبشار سكان العاصمة بمَقدِمه كونه رجلاً يحمل لواء الإسلام ويضع خاتمة للعيش تحت هيمنة العَلم الأجنبي القادم من ما وراء البحار.

هل هي صفقة يا إلياس؟

أم هذا قدر العراقيين أن يحكمهم حكّامٌ ليسوا منهم منذ الزمان السومري؟

(*) في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران ١٩٢١ رست الباخرة " نورث بروك " في ميناء البصرة فاقترب منها زورق بخاري يحمل علماً انكليزياً وفيه كل من: جعفر العسكري واحمد الصانع وجون فلبي الذي كان مستشاراً لوزارة الداخلية فاستُقبِلَ الأمير الهاشمي استقبالاً حاراً، ونزل في دار متصرف لواء الديوانية احمد الصانع في طريقه إلى بغداد. (ص٤٩) تاريخ الوزارات العراقية ج١

(٨)

عندما يأتيكَ الدخيل يغيّر فيك أشياءً كثيرة..

وعندما تبقى في القوقعة يتأصّل فيكَ الخمول فتتكيَّف، فتتقولب، فتذهب حياتُك هباءً. وتغدو مع الأقوام الدابّة على وقع الرتابة والسير نحو منحدر الموت الحتمي.

الدخيل الأول كان عثمانياً أكلَ الناس جميعاً ولم يتركهم غير كومة عظام وتلال آهات.. اعتصرهم حدَّ الجفاف، وداس على صدورهم حتى لفظت كل الأنفاس إلا نفَساً أخفوه بين طوايا التجمّل والتحمّل والصبر المرير.

وجاءهم الدخيل الثاني ليُطبِّق عليهم ما مُطبق عليه. كان يريدهم أن يخلعوا كل ثيابهم ليغدو عُراة ثم يهبهم ثياباً له قاسها على مقاساته لا على مقاساتهم. لم يتوانَ، ولم يتأمل، ولم يرعوِ. وهذا خطأهُ الفادح. لم يَحسب حِساب زمن صرفه في ارتقاء سلَّم التحضّر فجاء ليلغي حساب ذلك الزمن على شعبٍ داهمته المفاجآت فترجمها تحطيم ارثٍ، وتهشيم كرامة، ونيل من وجود.

عندما يأتيك الدخيل يغيّر فيك أشياءً وفيرة حتى وهو يتركك ويخرج، ولا ترى له قدماً تطأ أرضك، ولا عربةً تهدر لتُعلمك أنه هنا وأنَّ وجودَه جثومٌ لا تطيقه.

خرجَ الإنكليز وجيء بفيصل ملكاً على البلاد؛ أختاره الأعيان والساسة ورجال الدين بديلاً عربياً مسلماً (ظهر الرجل في أول ظهورٍ له على الناس بعقالٍ مُقصّب يتربّع على رأسٍ توشحه كوفية بيضاء، وتنسدل من كتفيه عباءةٌ صوفية ذهبية وشفافة، تقدِّم قواماً متوسط الطول، ناحلاً وضامراً ووجه يذكِّر بفقراء الهند؛ لكنه يحمل قسماتٍ صارمةً رغم فراشات سماحة تتطاير من تحت رموش عينيه.).

جاء فيصل بن الحسين ملكاً اختاره أهل العراق مقايضةً لثورة سفكوا من

اجلها الدماء سواقيَ، وتعرضوا جراءها لبطشٍ الاحتلال ورجالاته الذين ظنوا فعل العراقيين نكراناً لجميلِ صنعوه لهم بتخليصهم من حكم ثيوقراطي جثم على صدورهم لقرون.

جاء الملك فيصل فأقيم له يوم الثالث والعشرين من شهر آب ١٩٢١ حفل تتويج في ساحة برج الساعة. جاء ببدلةٍ كاكيّة يحمل على صدره أوسمةً ونياشين لمعارك خاضها مع أبيه الحسين وأسرته الهاشمية فجلس على الكرسي المُعد له، جاعلاً المندوب السامي البريطاني على يمينه وعن شماله جلس القائد العام. في الحادي عشر من تموز كان قد اعتلى منصةَ مجلس الوزراء ملقياً كلمته الأولى: (أتقدَّم إلى الشعب العراقي الكريم بالشكر الخالص على مبايعته إياي، مبايعةً حرّة دلت على محبته لي، وثقته بي، فأسأل اللهَ عزَّ وجل أن يوفقني لإعلاء شأن هذا الوطن العزيز، هذه الأمة النجيبة لتستعيد مجدَها الغابر وتنال منزلتها الرفيعة بين الأمم الناهضة.). وراح يستعرض تاريخ العراق؛ كيف كان ناهضاً زاهراً، وكيف ألمَّت به المصائب والكوارث مُعلنا أنه جاء لاستعادة ذلك الازدهار والعمل على رُقي البلاد. مختتماً قوله إلى العراقيين بدعوته (إلى الاتحاد والتعاضد، إلى الرويّة والتبصّر، إلى العلم والعمل، أدعو أمتي والله الموفق والمعين.)

شعر الكثيرُ من المثقفين والمتنورين والمتابعين ولو عن بعد أن العراق خسر ثورةً لم تكن لها أهداف، وليست مبنية على آيدلوجيا. كان فيها التحريض دينياً قادماً من تخوم الإطاحة بالهيبة وخشية ضياع الجاه.

كان فيها الرجال الثائرون أميّين. لم تزُر مسامعهم مفردةُ ثورة، ولم تلج ميدانَ أمنياتهم أفراسُ التحرير. كانت الرغبةُ في العصيان إحدى متطلباتِ ديدنٍ جُبل عليه العراقيون في رفض السلطة، أيةِ سلطة، وعدم تقبّل الخضوعِ إلى نظام، أي نظام.

كان ثمةَ هروبٌ من معادلة يتوجَّب تقبلها، تشير إلى مقايضةٍ هي

محصلة نتائج تسبقها أسباب.

فحريةٌ يجلبها لكَ الغير ولا تصنعها بنفسِك لا بدَّ أن يقابلها ثمنٌ يستدعي دفعه. لأنَّ الغير وإنْ جاء طامعاً بشيء من ممتلكاتك فقد جلب لك ما ينير الدرب لوضعِ هذه الممتلكات على درب الاستثمار. يفتح أمامك مسالكَ النور وينقلك إلى تخوم الحضارة ويمنحك صكَّ حيازة العلم ونهل المعرفة؛ والخروج من عتمة قمقم الدولة المهيمنة الجائرة إلى عالم الأمم المُتحابّة المتواشجة ذات العلاقات المزدوجة في احترام السيادة، وبناء الاقتصاد الحر، والتواصل الإنساني البنّاء، والحوار الحضاري المعرفي.

ما ضرَّكَ لو دفعتَ لمن جلب لكَ الحرية فُتات خيرِك العميم وثروتك الجبلية؟.. ما الذي تخسره إن دفعتَ عمولةً بقدر ما هي كتلة مال هي أيضاً دنيا معرفة؟!

بمجيء الملك فيصل شعر غالبيةُ العراقيين أنهم يتحركون بأنفاس عربية لها امتداد هاشمي فتغيرت الحياة وحصل تبدّل كبير خلل البنى الاجتماعية.

تفجّرت حركةٌ عفوية دعت العديد من الشباب إلى القفز على الواقع الأبوي والتخلي ولو بهامش بسيط عن الجذور لصالح العصرنة، فاندفعوا يستبدلون المظهر الخارجي تخلياً عن (العقال) و (الصاية) والثوب والنعال إلى عالم (السترة) و(البنطلون) والقميص والحذاء ولبس (السدارة)، أو(الطاقية)، أو (الفينة) على الرأس.

كان ذلك من دواعي سرور جعفر ابن حسن درجال وإثباتاً له على حُسنِ فكرةٍ طبّقها قبل أعوام؛ فرمى بصايته ونعاله ودخل فضاء التمدّن والتحضر وكان لأشهرٍ حديثَ المدينة عن فعلٍ ارتكبه بمحض إرادته فلم يأبه لنظرات سخرية واجهته ولا لكلمات تأنيب كانت الأفواه المتذمِّرة ترشقها في مسمعه، ولا حتى التعجّب أو الاندهاش. صار عليه أن يدخل مسلك العمل الحكومي بعد أن وجد أنه يناسبه، وأنها فرصة لا يجب أن تضيع. (أنت تستحق أن

تكون موظفاً في دوائر الدولة، تستلم راتباً ثابتاً وتعمل لساعات محدودة. تمسك عملاً يخدم أبناء مدينتك، وتنتهي من صرف الزمن وقضاء العمر بائع قماش في دكان حسير.). طرح الأمرَ على أبيه فما وجد معارضةً؛ بل تهللَّ وجهه وأبدى صراحةً سعادته كون ابنه سيصبح ذا حظوة اجتماعية ويتسلَّم مركزاً وظيفياً سيحسده عليه الكثيرون.

كان حُسن خط يكتبه وشهرة فن يميّزه كافيان لأن يُعيَّن موظفاً في دائرة ري المدينة. دائرة كان يديرها رجلٌ قضى أربعة عشر عاماً وحاول مراراً الانتقال إلى سامراء، مدينته التي أُجبر على النأي عنها من أجل لقمة العيش. كان الرجل فرِحاً لتعيين الشاب جعفر لاسيما وأنه ابن المدينة؛ وهذا بالنسبة إليه مسوّغ رصين يدعم محاولة انتقاله إلى مدينته سامراء. سيقدمه إلى رؤسائه في متصرفية لواء الديوانية التي تتبع لها السماوة إدارياً بعدما انفكَّ ارتباطها بلواء المنتفك / الناصرية أولئك الذين كانوا يتذرَّعون أن لا بديل له يمسك زمام الدائرة ويسيّرها السير الصحيح.

ذلك الصيف من العام ١٩٣٠ مات الشيخ فارض العلوان وكان الموت خلَّف جابر الدخيل قبله بثلاثة أعوام يوم راح ينحرف في مشيته ويتعثَّر فيما ثقلت يده اليمنى وبات يحس بخدر يتسلل أليها كتسلل أفعى على سيح رملي ما لبث لسانه أن راح ينطق الكلمات ثقيلة غير مفهومة ولم ينقذه من كل هذه الأعراض سوى فراش ضمّه لأشهر ثم تركه جثة هامدة.. مات العلوان عندما داهمته حمّى قاتله لم تمهله غير أيام ما نفعت محاولات "الميرزا حسن"، طبيب المدينة وملازمته رجاءً بشفائه. وبذلك انطوت آخر صفحات العداوة والدم المُراق.. بدت المدينة كأنها لفظتهما فاستحالا مجرد أحاديث تتناقلها الألسن، وتختتمها بالقول المعهود: "أذكروا محاسن موتاكم". لم يبقَ في ذاكرة الناس سوى الخاتمة التي ظلت تحكي عن ذلك النهار اللافح من أحد أيام آب حيث غزا الفضاء صليلٌ من رصاص ناري انطلق من جموع بنادق تُعلن

خبر تلك الوفاة حصل خلالها غلق لمعظم محلات السوق وعلى الأخص تلك التي ينتمي أصحابها موالاةً للمتوفى. لم تكن ثمَّة غرابة في ذلك، فهي "عراضة " تقام لكل فرد مهم له أتباع كُثر أو لرجل دين له خصوصية كبيرة عند الناس يتم فيها أطلاق الرصاص في الفضاء كتحدٍّ للموت الذي تسلل خلسةً وسرق أعزَّ ما لديهم مُعلنين أنهم هنا، وعليه أن لا يقترب مرة أخرى ليسرق عزيزاً ثانياً، وفي الوقت نفسه يعلن الأتباع عبر هذه الملحمة من الرصاص المُلعلع قصيدةَ بطولةٍ يُسمِعونها للمتوفى باعتبارها شهادة منهم وتذكير إليه: ما أغمضت العينين إلا على أصوات الرصاص، شجاعاً، صلباً لا تخاف الموت، ولا ترهب دنوّه.

الغرابة أنَّ مجزرةً حصلت بفعل كثافة الرصاص المُطلق وكثرة مَن استخدموا البنادق وراحوا يتبارون لإظهار مهاراتِهم في الإطلاق ما جعلَ بعض البنادق تنحرف فتقتل طفلين وأربعة شبّان وعجوز كان يلوّح بذراعه مُحذِّراً من أنَّ عملهم هو من باب الطيش غير المقبول. فكان ذلك اليوم يوم مأساة؛ واليوم التالي يوم تشييع جماعي لسبعة قتلى حملهم زورق أعدَّ لنقلهم إلى الديوانية، ومن هناك حُمِلوا برّاً إلى النجف لدفنهم في مقبرة الغري. (*)

(*)

جاء على ألسنة عدد من الذين شهدوا المجزرة أو ساهموا فيها:

(١) هويدي عبد الجبّار والد أحد الشبان القتلى قال: كنت ومجموعة من حاملي البنادق في الشارع المطل على الفرات نستعرض ببنادقنا البرنو والشنايدر نصطف ثلاثاً فنطلق رصاصنا باتجاه الفضاء، ثم يتقدم ثلاثة آخرون لأخذ مكاننا ويفعلون بمثل ما فعلنا. المشاهدون يقفون بمحاذاة البيوت يتفرجون على ما نؤديه وسط (هوسات) وهتافات من مثل (خوَّفنا الموت وما خفنا)، و (وياك أحنه بهاذي الجنة)، و (حي أنت وصوتك ويانا). النساء من شرفات السطوح تطالع وقد ارتدين العباءات السود وتكوَّمن ككتل سوداء ولم تُبن منهن

الوجوه لكننا كنا نسمع الصرخات الطويلة والعويل المتواصل ما زاد من حماس المستعرضين، فأندفع الشبّان حاملو البنادق لم يتقيدوا بأسلوب الرمي ثلاثاً بعد ثلاث فتُطلَق رصاصة من هنا وأخرى من هناك. وبلغت حمى الاستعراض أن صار بعضهم يرفع البنادق بيد واحدة ويطلق بها في الهواء وسط حماس المشاهدين من الناس الذين احتشدوا أكثر فأكثر. أفواه الأزقة أضحت تضخ كتلاً بشرية معظمهم من الصغار الفضوليين غير الآبهين لخطر الرصاص وتلك اللحظة التي اقتربت ملغومة بالمفاجئات وعلى وشك أن تطيح بذلك الاستعراض الجليل حيث تمردت إحدى البنادق على حاملها باليد الواحدة فمالت وانحرفت ليتوجَّه الرصاص صوب الحشد ويفجّر مشهد دماء تفور. وأجساد تتهاوى، وذهول يعم المكان.

(٢) شرعَت امرأة تقص: شاهدناها كأيةِ امرأة ثكلى.. سيحُ الدموع يجري على الوجنتين الضامرتين. الكفّان يضربان الفخذين الممدودين على أرضية الحوش المتربة والفم الصارخ: ولدي!.. مات ولدي!.. قتلوا ولدي! لا تكف عن الصراخ والعويل. نحيط بها كجارات نطعمها المواساة، ونشاركها الدموع والألم.. لِمَ لا والقتيل ولدَها الوحيد؛ لم تحظ به إلا غب أعوام طوال طافت مختلف الأئمة والأولياء، وشربت شتى الوصفات الدوائية التي تتنبأ لها بالحمل. ويوم حملت به انتشرت الزغاريد ساريةً في الأزقة والدروب تحكي حملاً عُدَّ معجزة.

شاهدناه بأنظار اللوعة، والحزن، والذهول، والصرخة المكتومة في الصدور يخر بأعوامه العشرة مضرَّجاً بالدماء الوردية مثلما أبصرنا فمه يُفتح وصوت استغاثة خُيل لنا أنه كان يفوه بـ "أمّاه، تعالي! أمّاه، خذيني إليك.. ضمّيني إلى صدرك!"

(٣) شاهد عيان ثالث قال:

من قُتِلوا لم يسقطوا بفعل بندقية واحدة، بل حدث القتل جراء أكثر من بندقية. فعندما مالت بندقية سالم الراضي وتوجهت برصاصِها صوب الحشد المنشغل بالنظر إلى الرماة ارتبك هويدي جبّار وأخذه مشهد ابنه الذي خرَّ أرضاً فتمايل السلاح الذي بيده وتوجهت اطلاقاته صوب لا هدف فتسببت بمقتل الحاج علي آلحسن حيث لفظ أنفاسه سريعاً تاركاً أعواماً ستين وكفّاً ارتخت فلم توصل احتجاجاتها لفعلٍ شاهدَ أنّه يخرج عن المألوف.

****

كان يومُ التعيين انعطافةً في مسارِ حياة جعفر.

ألفى نفسه يتسلَّم مهامّاً هي من عِداد مسؤولية لها تأثير اجتماعي وتوازن مالي بين أناس أغلبيتهم أمّيون لم تدرك مرافئَهم سفنُ العلم والمعرفة.. تلتها انعطافةٌ أخرى جاءت رضوخاً لتوسلات أمّه ورجاءات أبيه بالزواج. هو الذي لم تستطع الأيام شفاء جُرحه الغائر في دفين قلبه، ولم تقدر الفرشاة على سكب محتوى آهاته على الورق وتفريغها من دروب روحه الممتلئة بصدى الفقد ووطء الضياع.

وإذا كان اعتبر قضاء الأيام مع بهية نزوة عابرة أو فخ عاطفي سقطَ فيه وتهرَّب منه كلّما ومضت رؤوس ذكراه باعتباره انتكاسة في طريق الحياة فإنَّ وهيبة ظلت جُرحاً نازفاً في تواليات أيامه. حملت عهده لها في أن لا ينساها على كاهل تصميمه وعزمه كصخرةٍ سيزيف لا تكف عن حملِها كلما مرّت الأيام ونأت المسافات وظنَّ الأهل أنه نسيها ولم يبق منها سوى ذكرى شاحبة لعشق طارىء يمر به المارّون على سيح المراهقة الزائلة.

لم يأته منها خبرٌ منذ أن غادرت وأهلها. وكان استمرارُ القتال يضاف له عدمُ رغبة بعض المتنفذين المحسوبين على الانكليز في رفض كل ما هو تركي قد أضاع فرصة عودة الموظفين المرحَّلين وعائلاتهم. ويوم عاد مدير البلدية والمفتي ومدير الطابو إلى أعمالهم ساوره شيءٌ من الأمل في عودةِ الآخرين. غير أنَّ الآخرين رفضوا العودةَ مفصحين أنَّ ما جرى لهم ولعائلاتهم لا يُحسب من باب الضيافة العربية ولا السلوك الإنساني. لم ينسوا ما حصل لهم في طريقهم إلى مدنهم من سلب ونهب وسوء معاملة من قبل بعض أفراد عشائر مرّوا على أراضيها. فضاعت فرصةُ عودة وهيبة؛ وأمنية مشاهدتها غدت من عِداد الحلم الذي مرَّ وانتهى.

ها هي الثلاثة عشر عاماً تنصرف وتوشك الرابعة عشر على التهامِه فتنأى عنه ساكنة القلب.. وها هي الأم تحثّه على الزواج ليعيش الاستقرار

مُكحِلاً عينيها كما ترجَّت بقدوم ولدٍ تعيش من أجله جَدّةً، ويعيش من أجلِها حفيداً. والأبُ يدعوه إلى إكمال دينه بإنهاء مسيرة عزوبية غدت لا مبرر لاستمرارِها.

بين الرفض وطلب التأني توخّى جعفر عدم أغاظتهم فأعلن قبوله على مضض.. وكانت زكيّة بنت كريم الراشد من نصيبه؛ زوجة تمتلك يفاعة الفتاة الناضجة، وحسن الخلق المطلوب.

((خطبني جعفر ابن حسن درجال على الطريقة المعهودة في مجتمعنا . زارتنا أمّه زيارةً استطلاعية تملّت فيها قامتي وحركتي، وتابعت ملامح وجهي الأسمر الحنطي وشعري الذي أفضّل ومنذ صغري عمله جديلة طويلة اتركها تتهدّل على ظهري فتتعدّاه وتنزل نهايته على ردفي، كانت الجديلة تهتز مع اهتزاز ردفي في نهوضي وتحركي داخل الحوش بأمر من أمّي في تقديم كأس لبن للزائرة مع صحن تمر. وبخطفةِ نظر أبصرتُ اشراقات وجه الزائرة كمحصّلة لقناعة شرعت تنمو في رأسها.

وإذ تركتنا ذلك العصر من احد أيام نيسان الربيعية شرعت أمي بالاستفهام والتساؤل عن سبب الزيارة هي التي تعرف عن أم جعفر أنها شحيحة الخروج من البيت بفعل نظام صارم أوجده حسن درجال في نسيج تلك العائلة . لقد تربّى جعفر تربية خاصة كانت العاطفة فيها بعيدة عن ذهن الأب بل الجدّية والصرامة ما جعل الابن يعيش نظاماً يختلف عن بقية أقرانه في المدينة. ألزمه ومنذ صباه بتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن عند الملا أحمد معلم الصبيان فنشأ بعيداً عن نزق الطفولة التي يخوض غمارها الفتية عادةً. زارتنا جارتنا الحاجّة خديجة عمّة جعفر فوجئنا بعد بضعة أيام بزيارة والدته تود أقتران ابنها بي وأنها تطلب رأي الأب والأم.

كان اقتراني بجعفر اقترانَ المحظوظ بمن تمنّى، والحبيب بما أراد. فقد كان والده حسن درجال رجلاً ميسوراً أعادت جدّتي تلك الحكاية التي تقرب

من الخيال. هو شاهدٌ على حصولِها ونال ما لم يخطر في البال. حكاية كان يردّدها دائما حين يأتي الحديث عن الشهامة الممزوجة بالحظ، والكرامة المدافة بحسن البصيرة.

تقول جدتي أنها سمعت من حسن درجال نفسه يقص حكاية أبيه وحكايته، فيقول:

– كان أبي يحبني ويزداد تعلقه بي كلّما زادت أيامي وتراكمت في جيوب عمري. كان يقول أن ولدي حسن يشبهني وأنا أرى طفولتي من حركاته ولعبه وملامحه. يومها لم أكن أتجاوز الرابعة عشر سنة عندما رغبَ في أن أصاحبه في رحلةٍ باتجاه البادية الغربية، أنا الذي اعتدت مرافقته في سفرات قصيرة إلى الريف أو القرى القريبة من مدينتنا. يمتلك أبي فراسة كشف المرض والعلل لدى الناس عند حصولها وكان يحمل معه في كل سفرةٍ حافظة من القماش تحتوي قرآنا، وأوراق كتبت عليها رموزٌ وخطوط يقول عنها أنها تمائم تبعد تسلل الأمراض إلى الأجساد فتصنع سدّاً منيعاً بوجهها؛ كما تحوي حافظته أعشاباً بأكياس خيش يعطيها لمن يجدهم قد أوغلوا في العلل وسكنت الأمراض أجسادهم فتعمل على تهدئتها رجاءً في أن تضمحل وتزول. انطلقنا مع الفجر تاركين السماوة بعدما اجتزنا سورها الطيني وضاربين باتجاه البادية يحملنا حصانه الأشهب العزيز لديه (دائما يردد حسن درجال أمام معارفه عبارة: "انه صديقي.. أنه أخي" ويقصد الحصان) . دخلنا بعض قرى وبعنا ما نستطيع بيعه وكان أهلها يعرفون أبي فيستقبلونه استقبال أهل البيت. كنا قضينا يومين نلفُّ القرى ونقضي ليلتنا في احد بيوتاتها فأجد أبي يتحدث بلسان العارف والجميع ينصتون إليه. هو في نظرهم حكيم وعارف وابن مدينة. الظن لديهم أن ابن المدينة يعرف كلَّ شيء فيسألونه عمّا يسمعون من هنا وهناك. يطلبون منه نقل التحيات إلى معارف لهم فيها: عطار يمدهم بالسكَّر والبن التبغ.. قمّاش يبتاعون منه ثياباً لأبنائهم

ونسائهم.. آخر يحصلون منه على حِبال لنصب خيامهم وربط جمالهم ومواشيهم.. وآخر يقصدونه يبيعونه بعر الجمال لاستخدامه ناراً وجمراً لليالي الشتاء، يبث شذا النوّار والعريعرة.. وبعد سؤال منهم عن أماكن يتواجد فيها بدو رحّل يمكن أن يفيد ويستفيد اعلموه عن بقعةٍ مهمّة تنتشر فيها إعدادٌ كبيرة منهم.

على نسائم غسق اليوم الثالث انطلقنا وسط عتمة تشيع في أرض لم يصلها أبي من قبل لكنّه اهتدى على توصيف صاغه الرجال. رحنا نضرب بعيداً فاجتزنا (العميد) ومررنا بـ (فيضة الشيح) وبعدها (فيضة الكليب) ثم (فيضة السادة) والأرضُ صحراء، مدى شاسع، وفضاء لا ينتهي حتى عندما بزغت الشمس وقدِمت ساعة الضحى ورأينا الأرض تنتشر في خلاءٍ من يباب ورمل وليس ثمَّة ما يشير إلى مضرب بدوي أو رقعة عشبية تُنبىء بوجود حياة. كانت الخشية تتنامى داخلي وأنا أعلن للهواء عن خوفي على أبي أكثر منه عليَّ ولم أشأ إعلان ذلك له فلربما أضيفُ لهمه همّاً أنا الذي اعتلي الحصان خلفه فلا أرى قسمات وجهه أن كانت تعلن الخشية مثلي أم تظهره صابراً صامداً، موقناً أن سيصل لا محال؟...

ومن بين الهواجس والخشية لاح لنا خطّاً رمادياً ما لبث إن اسودَّ وزاد اقترابه، فأعلمتني حمحمة الحصان أن شيئاً سيحصل لكن هذا الشيء جاء كلاماً نبا عن فم أبي عندما أعلن ارتياحاً كشفته نبرةُ بهجة سالت من صوته:

– ها قد وصلنا!.. لم نخطىء المسير، ولم يعطونا توصيفاً خاطئاً.. ها هي فيضة غابد.

كان المضرب الأول عند الفيضة هو ما وجدنا أنفسنا فيه. لم تكن الفيضة هذه كفيضات الشيح والكليب والسادة شحيحة المياه وضحلة توشك أن تجف وسط هجير لاهب وأرض مكشوفة تستقبل الرياح المحملة برمال

ساخنة؛ بل وجدناها كما لو كانت بحيرة تضم مياهاً صافية عذبة، تحيطها أشنات من الصريم والطرطيع والعرفج وإعشاب الكرط البري والخبّاز والزبّاد، ناهضة تهفهف مع مرور النسمات عليها... هرول إلينا بعضُ صبية دون العاشرة؛ فرحين مبتهجين لحظة أبصرونا من بعيد. تقدَّم إلينا صبيان كانا يلعبان في الرمل يرحبان بنا ترحيب الكبار. ووجدنا أنفسنا مُساقين صوب خيمة فارهة منفرجة كأنها تستقبلنا. دخلنا.. رمينا جسدينا المتعبين على البساط الصوفي منتظرين أن يأتينا صاحب المضرب بعد أن هرع إليه احد الصبية وبقي الآخر يواصل ترحيبه بنا.

لم تمض غير لحظات أسمعتنا صوتاً نسائياً يرحب بنا يطلب من الصبي أن يخرج. دخلت علينا تكلمنا بكلمات ترحيب غاية في الرقة.. كانت الظهيرة حلت؛ ووقت الغداء أزف. بعد أن شربنا ماءً قدمته إلينا تحدثت المرأة بصوتٍ كسير عن عذرها عدم مقدرتها على تلبية طلبنا للغداء لأنها لا تملك شيئاً وأن أولادها الصغار يقضون النهار والليل جائعين وإن زوجها مسافر في سفرٍ بعيد لقضاء عمل، ولا تدري كيفَ ولماذا تأخر؛ هي قلقة عليه.

لم يمتعض أبي سوى أنّه صرف لحظات شرد بها: إلى أين؟.. لا أدري. كل ما فعله هو أنه طلب منها جلب حاوية السَّمن. وعندما قالت له معتذرة أنها فارغة أجاب أنه يُصدقها القول لكن لديه غرض في ذلك.. حين جلبتها له وجدها فارغة تماماً . راح يبرمها كما لو كان يبرم ثوباً رطباً كي يسقط آخر قطرة عالقة به. نزَّ منها سمنٌ يسير. راح أبي يدهن أصابعه ويمررها على شاربيه الكثّين، ويمسح بها حول فمه، ويستدير لي فيدهن شفتيَّ وسط ذهول المرأة البدوية ودهشتها.

صرفنا ما يزيد على النصف ساعة جالسين ثم نهضنا متوجهين إلى مضرب خيام وسيع لا يبعد كثيراً.

استقبلنا الرجل الأكبر للمضرب. وجدنا خيامه تزيد على العشرة، موزعة

بشكل دائري، يضم عائلات تأخذ لها تجمّعاً صغيراً تبتعد الخيمة الواحدة قليلاً عن الأخرى.. كان استقباله وديّاً، ومتزناً، وحميمياً. عرفنا أنَّ اسمه الشيخ لهمود يقود جماعة هم فرعٌ من عشيرة تضم أولاده وأبناء عمومته بعائلاتهم وممتلكاتهم من الجِمال والماشية.

تقول جدتي مُستذكرةً كيف واصلَ حسن درجال حديثه عنه وعن والده، وكيفية التعامل مع الآخرين والحصافة التي يتمتع بها الإنسان حين يكون نبيهاً، وذكيّاً:

عندما أشارَ الشيخ لهمود على ولدٍ له يأمره بأن يهتم بنا كضيوف، وأن يعدَّ غداءً يليق بنا (كان وقت الغداء فات وعرف الشيخ أننا كنّا في مضرب المرأة جالسين ما يزيد عن نصف ساعة) أوقفه أبي، مُعلناً أننا تناولنا غداءً وفيراً أشبعنا وتركنا لا نطيق أكلاً حتى لو كان عسلاً، وأنَّ رائحة اللحم ما زالت عالقة بأفواهنا وبأصابع كفوفنا.. لم يكن الكلام فيه هروب من إقامة الضيافة فقد شمَّ الشيخ والجالسون على يميننا وشمالنا رائحة الدسم فلم يساورهم شك في كلام أبي، لكننا بقينا جائعين لم نذق غير قهوة تُقدَّم لنا بين هنيهات الحديث الذي يدور؛ إلى أن قدمَ العشاء فمال أبي برأسه نحوي هامساً في أذني أن لا آكل بشراهةٍ فنبدو أمامهم كأننا لم نتناول طعاماً منذ ساعات. ولم يكن الأمر صعباً عليَّ فقد وجدت في حركات أبي وهو يمد يده لتناول الرز الذي علته قطع من لحم الضأن موجهاً لي في اقتفاء حسن التصرف. كانت الصينية التي وضعت أمامنا وشاركنا فيها الشيخ لهمود وسيعة. أكلنا منها ما يسد الرمق؛ وما يجعل أبي يقدّم الشكر لكرم الضيافة... صباح اليوم التالي ودّعنا الشيخ ضاربين باتجاه مضارب أخر.. ترك أبي أنواعاً من الأعشاب والتمائم عند الشيخ لاستعمالها متى استدعت الضرورة بعدما أثنى على المرأة التي ضيفتنا ممتنّاً من حسن استقبال واجهتنا به، مصرحاً أننا لم نذق طعام غداءٍ لذيذ كالذي تناولناه عندها.. هذا القول

نقلته المرأة إلى زوجها حين عاد من سفره، شارحةً كيف ستر جوعِها وقلة حيلتها في تقديم ضيافة لائقة. وكيف أنه تحدث أفضل حديث أمام الشيخ لهمود وأتباعه.

تبتسم جدتي وهي تطالعنا ننصت إليها شغوفين، قائلة:

عندما يُقبل الحظ على بني آدم – يا بنات – فانه يقبل بكل عنفوانه. لا توقفه السدود ولا تعيقه البرازخ.. فقد مرت الأيام والأعوام، ومات درجال ميتةَ الإنسان الذي جابَ البراري وشقَّ القفار، مُقدماً ما يمكن تقديمه من معرفة بهيئة تمائم وأدعية وأدوية وأحاديث فيها قصص جميلة ذات مرامي نبيلة ونصح مفيد.. مات درجال تاركاً ولده حسن يحتضن عشرين عاماً ومجموعة تحضيرات لأدوية عشبية وتمائم مليئة بأحرف ورموز وأدعية مأخوذة من كتاب الله ودعوة أن يواصل خطاه في درب الصلاح ومساعدة الناس.. ولم تمض أشهر معدودات وسط حيرة الشاب الذي لم يجد في ما خلّفه الأب من جدوى لإقامة حياة مستقرة بعيداً عن الترحال الدائم بين القرى والانطلاق صوب البوادي.

وذا يوم حزيراني – تقول جدتي – طُرقَ باب حسن درجال، وخرج بنفسه يستطلع هوية الطارق، فإذا برجل بدوي خمسيني العمر يصحبه فتى يمسك عصا يهش بها على جموع أغنام تتجاوز الخمسين يسأله: أليس هذا بيت درجال؟ فيجيبه حسن: وصلت... وفي لحظة فالتة من عنق قارورة غير المعقول قال الرجل أنه أتى بهذه الشياه لأنها ملك درجال... وراح يقصّ له حكاية المرأة التي هي زوجته وكيف أن درجال أبدى موقفاً شهماً وستر أمراً يوم جاءها ضيفاً ولم تكن تمتلك مهمّات الضيافة، وكيف تصرَّفَ تصرُّف الرجالِ ذوي الكياسة فتحدَّث عن كرمِ ضيافةٍ، لم تحصل في الواقع، أمام الشيخ وأتباعه. وحين عاد حكت له زوجته، ومنذ ذلك اليوم قرر جعل نعجة هدية لموقفه النبيل. وقد توالدت النعجة عبر سنوات عشر هذا العدد من

الشياه التي غدت ملكا له الآن.

أعلن الرجل البدوي أسفه لسماع خبر وفاة درجال. أخبره حسن أنّه كان بصحبة أبيه ذلك اليوم، وأنه وأبوه استُقبِلا أحسن الاستقبال من قبل المرأة، قائلاً: إن ظروفها كانت قاهرة ولم ترد أن تطأطىء الرأس فتذهب لتستدين من الخيام الأخرى، يبدو أنها كانت تعاني حتى قبل وصولنا لكنها كانت صلبة، وصابرة بغيابك.

تبتسم جدتي وهي تطالع تأثير الحكاية علينا، وتختم ما تبقى منها:

تلك الشياه كانت ثروة كبيرة دفعت حسن درجال بناءً على نصيحة أمّه إلى فتح محلٍ لبيع الأقمشة. وذاك هو الدكان في السوق المسقف يسمع صوتنا ما زال يعرض محتوياته، وما زال حسن يواصل عمله كقمّاش مستعيناً على ولده جعفر الذي كبر فتولّى مهمّة مساعدة الأب في مهنته.

جعفر ابن حسن درجال صرتُ الآن زوجةً له، وبتُّ أنظرُ في وجه أبيه فاستعيد تلك الحكاية التي تبدو آتية من دروب الخيال.]]

صار يوم تعيين جعفر انعطافة في مسار حياته، ودكّان الأقمشة استحال مكاناً للراحة ما بعد الدوام.. يُنهي ساعةَ القيلولة فيخرج على إيقاع الترفيه. يدخل السوق فيتَّخذ من علوٍّ – في مدخل محل أبيه – تصطف على جانبيه أطوال القماش مكاناً للجلوس. يتلقى السلام من المعارف ويقدم التحيات لمن يعرضون الود.. ولم يحسب لمفاجأة تمثلت أمامه لحظة أبصر ساسون يترجَّل في خثرة هواء السوق وقد لمحه من بعيد قادماً فترك محل والده حيث يتواجد.

أفرد ذراعيه واحتضن جعفر مثلما ضمّه جعفر إلى صدره، كأنه يقول: تعال فلديَّ الكثير لأقوله لك!. اكتشف ساسون كبر عمراً، وزاد ترفاً، واتسع ابتسامةً. عرضَ عليه الجلوس في واجهة المحل ففضل المشي والحديث.

كانا على شوق؛ تماماً كما كانا على بوح.

حدَّثه عن السنوات العشر التي قضاها في انكلترا متنقلاً بين مدن المملكة وأريافها؛ بين لندن وضواحيها؛ ناهلاً من بحيرة معرفية لأخرى، مُعرّجاً على طبيعة عيش رغيد يعيشه الانكليز؛ راثياً لحياة يصرفها الناس هنا في رتابة زمنية وشقاء قاهر. (نعم! كان ساسون يفكر بعقلية مَن لا يرتضون الركود، ولا يجد في الماثل مبررات للرضا وأبجدية للقناعة. توجهاته علمية ورغباته تعلو لبناء مستقبل يرى فيه نفسه مؤثِّراً بعلمٍ ومال، ومبدعاً في خلق وإنتاج. يعينه في ذلك وقوف أبيه إلى جانبه مذ كان صبياً. كان الأب دافعا ومحفِّزاً. يلوّح له بضرورة حيازة مستقبل باهر يوازيها استعداد لتقديم ما يتطلَّبه.) سأله عن عمله، واستفسر إن كان قانعاً بوجودِه، مُثيراً فيه حالة الإفضاء عن طموحاته ورغباته القادمة..

كان جعفر موقناً أنَّ ساسون لن يأتي أبداً حين غادر العراق قبل عقد من السنين ولن يراه مجدداً. إلى أين يأتي والحياة هنا لا تمنحك غير الألم ولا تبعث فيك سوى الاندفاع للقيء وتفريغ ما في جوفك من غذاء تكمن في ثناياه فايروسات أمراض متعددة باتت تفتك بالقوامات وتترك أناساً أشباحاً، ومناحات تكاد لا ترى زقاقاً إلا وسمعت من بين التفافاته نواح النسوة الثكالى وآلام الأطفال المصابين، واندفاع الرجال مذعورين من هجمات لا مرئية لا يدرون في أية لحظة ستداهمهم لتجعل منهم هدفاً للنواح ولافتة تتناقل خبر فحواها الكاتم أفواه الأحياء الرابضين على سكة الموت القادم.

– كنتُ احتاج إليك في أعوامي المنصرمة يا ساسون لأستأنس برأيك واطلب نصيحتك. أما لقاؤنا الحالي فلقاء شوق وليس لتداول في أمر. حصلتُ على وظيفة، وتزوجت من زكية بنت كريم الراشد.

ابتسم ساسون ابتسامة كأنه قرأ ما خامر جعفر وراح يسخر إزاء زمن يتبدل فينزع قناعاً ليرتدي آخر. ابتسم كما لو أنه على وشك أن يفجّر بوجهه سؤال: أين غدا حبُّك لوهيبة؟ ولماذا رحل بلا تحققات لصالحكما؟.. ابتسم

كما لو كان يعلن غلبة الأعراف على العاطفة، والرضوخ لمشيئة المتوارث لا الرفض لجثومية الماثل.

– حدّثْني عن عملِك في الري، كما سمعت.. كيف هو تعامل المراجعين من المزارعين معك، وكيف هي علاقتك بموظفي دوائر القضاء؟

((فهمته!!..

أدركته!!..

غيَّر موجة الحديث متفادياً إحراجي. نأى عن إثارة الكوامن كي لا اسقط في هوّة الضياع.. تجنب سؤالاً معهوداً يطلقه الآخرون ممن لا يحسبون لتأثيرات المواقف. سؤال من مثل: وأين غدا ذلك الحب الجنوني لوهيبة؟ أو: وهيبة أين أصبحت؟ أو: كيف سارت الأمور بحيث لم تصبح وهيبة من نصيبك؟ أو: أرفضَ أهلُها أم أنَّ اهلك أصرّوا على عدم التقدم؟ .. هاجمتني تلك اللحظة رغبة أن أنزوي في غرفتي، أرفع القماشة البيضاء التي جهزتها منذ أشهر لأضعها على منضدة الكتابة التي جعلت منها قاعدةً للرسم فأسكب على مساحتها الناصعة قَسمات وهيبة، مبتدِئاً بالعينين اللتين تشكّلان مأزقاً للرسامين ومحكّاً لكبر موهبتهم وعظم قدراتهم على إتقان هذا الفن الصعب. ثم تنامي المحجرين، وإظهار الشفتين؛ وبعد كل هذا تكون وهيبة كاملةً. بورتريت لا يمكن لمن شاهدها أن لا يقول هذا وجه بنت عبد الكريم.

ساسون! أريد أن انخلع عنك الآن، وأعدوا لاهثاً إلى البيت قبل أن تموت جذوة الرغبة، وتتلاشى قَسماتها المتوهجة هنا.. في الأعماق! في القلب! في الرأس المشوّش!))

– لم تجبني! قالها مبتسماً..

– علاقة تقليدية! قالها القلب مضرجاً باللامبالاة. دعنا نجلس في مقهى الحدادين لنتناول أقداح الشاي، ونكمل الحديث.. رغبت في مشاهدة لوحتي على جدار المقهى.

((لا يا جعفر! لم تعد تميل للرسم. ولوحتك على حائط المقهى تتكرّس كابوساً يذكرك بذلك الشاب المتمرد على أعراف ثقيلة. أنت الذي كسرت طبقات الزجاج الذي تغلف حياتك مثلما تغلف حياة الآخرين! وخرجت إلى عالمٍ فيه هواء غير معهود! خرجت ولم تفتح أبواب الاهتمام بالرأي المضاد. خرجت وقد كلَّمت أمي ذلك اليوم الذي رايتك فيه أفندياً وحسبتُك مجنوناً بينما تعاطفت أمي معك: "شاب ويريد أن يتشبّه بالناس المتحضّرين، فما ذنبه؟!" وأسمعتُ أبي رأي في تصرفِكَ غير المعهود، فردَّ: "هذا يتجاوز أقرانه في أفكاره. هكذا هم المُغيّرون، يا ولدي.. لا يقبلون بالسائد.".

أنتَ لا ترغب في رؤية الرسم.. أنت ترغب في تعنيف ذاتك. أيها المغمور بالنقاء. ولكن مع هذا لا يجب أن أتركك تجذف بزورق الضياع.. أنا معك))

خلّفا زحمة السوق وحركة الريفيين المنهمكين في البحث عن احتياجات جاءوا من أجلها. دخلا سوق الحدادين. كانت المطارق تنهال على الحديد المحمّر الخارج توّاً من عمق النار لتصنع منه مناجل ومطارق ومساحي وحدوات أحصنة ومرابط أبقار ومسامير كبيرة مدببّة بينما العرق يسيل على الوجوه السمر الموحلة بفعل هياج الحرارة الهاربة من كوم الفحم اللاهث. دلفا إلى المقهى فخفتَ إيقاع الضربات. استقبلهما حضيري أبو عزيز"عمّي بيباع الورد" أغنية تتَّمي في الروح بساتين الجمال، تنبثق من صندوق خشبي قالوا انه الراديو بعد أن كانوا يسمعون نفس الصوت يصدر من الغرامافون تلك الآلة السحرية ذات الفم البرونزي الواسع. أبصرا باقر الحمّال ينزوي في عمق المقهى يقضم رغيف خبز، ومع كل قضمه يرتشف الشاي ثم يدلقه في فمه مستعذباً ممارسة ديدنية تأتي بعد عملٍ جهيد.. على يمينه اتخذ ريفيان مجلساً بانتظار أقداح شاي طلباها من عامل المقهى بعدما أفرغا في جوفهما حاوية ماء وضعها أمامهما. كانا ضامئين كأنهما لم يشربا ماءً منذ دهر. أطلقا

عيونهما تسوح على موجودات المقهى لتقف عند اللوحة الزيتية الموجودة على الحائط. حتى وهما يرتشفان شايهما استمرا يحدقان فيها ويتهامسان كأنهما يتساءلان ويجيبان في ما بينهما. وإذ ملاّ من التطلع فيها انتقلت نظراتهما إلى جعفر وساسون، يحدقان في ملبسهما ويتأملان وجهيهما وما إذا كانا يتحدثان العربية أم ينطقان بلغةٍ غيرها.

– ما الذي دعاك إلى العودة؟.. تترك لندن وتأتي؟!... جاء سؤال جعفر.

– لا شيء، إنما استفدت من عطلةٍ طويلة قلت لتكن بمثابة زيارة يتبعها فراق طويل. فالدراسة بدأت تصعب وعليّ البقاء هناك طويلاً.

– وماذا وجدت الحياة هنا؟

– للحق أقول إنَّ ثمة تغييراً واضحاً في طريقة العيش؛ لكن ليس هو المُرتجى.. وجدت أن الدولة منحت وظائف للمتعلمين، والحركة التجارية أوسع مما تركتها. الناس باتت تحتفي بالملبس بعد أن كان يثير الشفقة.

حقّا العمل الوظيفي فتح آفاقاً واسعةً لحياة شرعت هي الأخرى تتسع. حركةُ الناس نشطت؛ والتغيير الذي طرأ على المجتمع اتخذ مناحيَ عديدة.

جاءت الكهرباء إلى المدينة (من جوف زقاق "العرايـة" اندفع جوق من الصبية إلى البستان المطل على الفرات في الحي الغربي على ضوء أحاديث الآباء عن حفنة عمّال وفنيين قدموا لنصب ما يدخل النور إلى بيوت المدينة فيحيل العتمة إلى ضياء، ويتفادون صهد الصيف بتشغيل مراوح لها اذرع ثلاث طويلة تتدلى من سقوف الغرف فتدفع بهواء بارد تتنجه حركة الأذرع.. هناك! وجدوا العمال منهمكين في تنصيب آلات وعِدد أُنزلت من عربات القطار حملتها من ميناء البصرة في الجنوب استوردها "الأماميون" الذي قدموا مع العثمانيين واستقروا تجّاراً في المدينة لنشر أول ضوء صناعي يشبه ضوء الشمس.. فضول الصبية وحبّهم للاكتشاف جعلهم يحضرون يومياً متابعين خطوات التنصيب، ويشاهدون حركةَ العمال، مُنصتين لأحاديثهم

ونداءاتهم. ولم ينتهوا من الحضور اليومي إلا بانتهاء العمل. غب خمسة أسابيع شهدوا نوراً أصفر تطلقه مصابيح شبّهوها بقطرات المطر الكبيرة).

ودخلت أول سيارة (كانت من نوع الشيفروليت.. ادخلها إلى المدينة عباس الأمامي، الرجل الذي عاش في بغداد أعواماً ورأى أن يؤرخ لإدخاله السيارة إلى السماوة. كان ظهور هذا المنجز الخيالي في شوارع المدينة مبعث أحاديث لا تنتهي. فما أن يسمع الكبار قبل الصغار هدير المحرك حتى يندفعوا من محلاتهم وبعض من بيوتهم ليتطلعوا بتركيز أنظارهم على ما يحدث. يقفون أمامها من أجل إيقافها، ويروحون يدورن حولها متفحصين هذا القادم الغريب أو ينبطحون أرضاً سعياً لمشاهدة الأحصنة التي تحركها، أو الجن المسخَّر لجعل عجلاتها تدور بسرعة خارج حدود التصور.).

ووصل العديد من الصحف والمجلات (افتتح طارق الدَّهان أول مكتبة تبيع الصحف الآتية من العاصمة: صحيفة "التقدّم" لسان حال حزب التقدم الذي يرأسه عبد المحسن السعدون؛ "دجلة" ورئيس تحريرها داوود السعدي؛ "الاستقلال" لعبد الغفور البدري؛ "البدائع" صاحبها داوود العجيل.. كذلك المجلات التي تأتي من لبنان ومصر وسوريا: مجلة " المقتطف " العلمية، ومجلة "الهلال" الأدبية "، ومجلة "المصوّر" السياسية المصرية، ومجلة "اللطائف" المصورة ويرأس تحريرها اسكندر مكاريوس رئيس الماسونية في القاهرة، وقد مرّت على صدورها أياماً فيقتنيها الموظفون وبعض المتعلمين رغبة في معرفة ما يدور خارج حدود مدينتهم بينما يقف المحرومون من نور القراءة والكتابة يتطلَّعون إلى صور تتصدرها هذه المنشورات؛ يبصرون ملكهم فيصل أو ولده غازي مثلما يحدقون في اليزابيث ملكة بريطانيا، وفؤاد ملك مصر، ومحمد الخامس ملك المغرب وغيرهم صارت صورُهم تتصدر الصفحات الرئيسية تحكي عن تحركاتهم وأعمالهم ضمن نشاطهم الدبلوماسي مع الخارج وإدارة دفّة بلدانهم في الداخل...كان دخول الصحف إلى السماوة

بمثابة صاعقة ولّدت لدى الكثيرين رعباً. فبقدر ما رأى فيها الموظفون والمتعلمون أنهم يدخلون عهد الاطلاع على المعرفة ونهل العلم المغيّب عن الناس رأى فيها المتطيرون مفسدةً للأفكار ودافع على انحراف الأبناء لاسيما وأنَّ جريدةَ المقتطف اللبنانية مثلاً تناولت في بعض أعدادها نظرية العالم الطبيعي (دارون) شرحاً وتوضيحاً مشيراً إلى أن المخلوقات الحالية بضمنها البشر جاءت من سلالات مرّت بتطور تدريجي بطيء استغرق ملايين السنين. ونظرية كهذه يراها رجال الدين والملتزمون سلفياً تنفي وجود الله، فهي تعتبر الأحياء على الأرض من بشر وحيوان وشجر وجوداً طبيعياً.).

وارتفعت على واجهات بعض المباني لافتات تشير إلى وجود أحزاب (كانت الأحزاب ترفع شعار الوطنية وتدعو إلى التقدم. كلُّ واحدة منها تبشّر بفحوى وأهداف هذه الشعارات. وكل واحدة ترى أنَّ شعاراته هي الصادقة. تسعى لخدمة أبناء الوطن وتريد لهم العزّة والرفاهية؛ في الوقت الذي لم يلمس العراقي سوى تبختر السياسي الذي يقود هذه الفئة أو تلك، ولم يحصد من الرفاهية سوى صور تلك الحفنة اللاهثة وراء مكاسب شخصية يغدق عليها ذلك الحزب وتلك الفئة وما وراءها من أصابع خارجية تحركها كيفما تشاء. وكثيراً ما شاهد الناس ممثلي هذه الأحزاب يسافرون إلى بغداد، وغب أيام يعودون حاملين أخبار وبرامج تسعى إلى دفع الحركة السياسية إلى أمام.. هل تحركت حقّاً.).

يوماً، وعلى ضوء رسالةٍ وردت إلى جعفر بعثها إلياس وحمل ظرفها ختم مدينة (كيمبرج البريطانية) حيث يعيش يسأله فيها عن حاله وحال السماوة كتب جعفر ردّاً له:

[[أخي إلياس يبدو أنَّ شمس الحضارة شرعت تبزغ نيّرة في سماء مدينتنا، والتطلّع إلى ما وراء السور غدا ديدناً للكثيرين.. لقد تم تشييد سينما بنوعيها الشتوي والصيفي. وأنا اليوم على موعد مع أول فيلم يُعرَض في

الصالة الشتوية. الفتية أراهم يهرعون، وقبلهم الشباب للاطلاع على إعلان الفيلم. الإعلان صورة دعاية بمترين طولاً وبمتر عرضاً؛ ألصقت على عارضة خشبية يرفعها عامل أجير راح يلف بها الشوارع لإثارة حافز الناس ليدخلوا هذا العالم السحري المثير خصوصاً والإعلان يفشي انتصاب فتاة بقامة سامقة وشعر مهفهف يتكىء باسترخاء على كتفين عريضتين بينما فستانها يعلو الركبتين كأنه يشير لساقين بضَّتين يعلنان امتلاءهما. يقف إلى جانبها بحركة شبق شاب يرتدي بدلةً لسكان جبليين.. تحت صورة الفتاة كتبوا (صباح) وفوق صورة الشاب (محمد سلمان). أما الفلم فيحمل عنوان (أحلام الشباب).

بعد الغروب تهافت الناس. ومعهم توجَّهتُ. قطعتُ تذكرةَ دخولٍ لأجلس على كرسَّي في القاعة الواسعة ذات السقف المرتفع البعيد حيث الجُلاس يمتلئون بالفضول لمشاهدة ما يجري على الشاشة البيضاء المستطيلة الكبيرة. الشاشة تمتد أمامنا محتلة الجدار وقد أحاط البياض شريط من قماش اسود. غناء سليمة مراد ينطلق من سماعتين متوزعتين على جانبي المستطيل (هذا مو إنصاف منك غيبتك هلگد تطول // الناس لو تسألني عنك شرد أجاوبهم، شگول).

في الخامسة مساءً تماماً أطفئت أنوار القاعة وشاع الظلام إلا من ضوءٌ باهر انطلق من خلفنا؛ من بؤرة عليا سقط على المستطيل الأبيض فتولدَ عالماً خرافيّاً شاهدنا فيه أناساً بأحجام كبيرة تتحرك، وتعرفنا على مدنٍ تزهو وحدائق تينع. شوارع طويلة وعريضة فيها عربات تجري، وأناس يجلسون في مقاهيَ يتحاورون، أو في ملاهٍ يتطلعون لراقصات يتهايفن على مسارح مغمورة بالنور.

عالمٌ جميل يا إلياس أردناه لا ينتهي بعد الساعة والنصف التي انقضت سريعاً. منَّ الجميع النفس بالمشاهدة منتظرين اليوم التالي ليعاودا الدخول

والعيش لحظةً بلحظة مع أبطال الفيلم والنطق بكلمات ينطقونها أو التمثل بزي كانوا يرتدونه.

ساعات عصر اليوم التالي كانت طويلة وثقيلة.. فيلم اليوم الماضي لم يُشبع ذائقة الجميع.. استمروا جائعين، حتى أن الفيلم الأول أعيد عرضه لأكثر من عشرين يوماً، ثم استبدل بفيلم آخر رأينا فيه مغامرات بحرية لقراصنة يمتلكون باخرة عتيقة وهُم بوجوه موحلة وملابس رثّة، وقد كرهنا القرصان الأعور الذي كان قائداً لجموع يملأون الباخرة، يعاملهم بقسوة مريعة ولا يتوانى عن قتل أيٍّ منهم لأتفه سببٍ؛ وهو نفسه الذي يأمرهم بالسطو على بواخر كبيرة يرونها في عرض البحر وسلب زوارق صغيرة يقتلون أصحابها بلا رحمة رغم توسلات كانت تذيب القلب عطفاً. لم يكن قرصاناً أنسياً إنما وليد مِسخ يحمل شرور الدنيا في قلبه. لكن الحمد لله فقد قُتل في نهاية الفيلم شرّ قتلة عندما انتصر عليه شاب من بين صفوف القراصنة ثار عليه وسانده بعض من أتباعه الموثوقين فصدر الحكم على مضطهِدِهم بقلع عينه السليمة ورميه في البحر أعمى فريسة شهية لأسماك القرش المتحينة فرصة الانقضاض على كل ما يُرمى من الباخرة.

وهكذا ترانا بين فترة زمنية وأخرى نهرع إلى السينما لنطالع العوالم الغريبة التي تأتي بها الأفلام.]]

(٩)

الواقعُ يمور بفخاخِ الحزبية ؛ والشعاراتُ ترتفع كل يوم. وجعفر بن حسن درجال يرومُ الأفضل لبلدتِه وأهلِه بعد أنْ غدا موظَّفاً، له اسمُه المُهم وسمعته الطيبة. كان تطلعه نحو الأحسن من دفين تصميمه مذ غادر (إلياس) وترك فيه بذرةَ التفتّح على الحياة؛ تماماً مثل غواية بهيّة التي أطلعته على عالم الإغراء وجعلته يرى أن الحياة تضم مسالك أُخر للعاطفة ومنافذ مشرعة على حدائق إشباع الغرائز، رفضاً للصرامة المثبتة بدعائم الأعراف الصلبة الصلدة الجبروتية؛ وعلمته أنَّ حبّاً عذرياً لا بدَّ أن يصطدم بجدران الشهوة ويسقط في فخاخ اللذة. كانت تلك ممارسة أبعدته عن صومعة طهر تمثلها وهيبة بصدقها وعفتها. وكان مرَّ ما يزيد على الخمس عشرة سنة مذ حصل فراق وهيبة عنه وانقطاع أخبارها كليّاً. لم يعد يسمع عنها شيئاً. ولم يمتلك الشجاعة ليقطع الفيافي ويخترق البراري من أجل الوصول إليها وإعلان إصراره على الوفاء لها وتحمّل التبعات من اجلها.

كان سمع أنَّ حِزبين جديدين أعلنا نشاطهما وراحا يتباريان من اجل كسب ود الناس وبث أهدافهما على أنها لبناء وطن حديث مستقل سياسياً واقتصادياً. كان "العهد الجديد" أولهما وقد أرسل مندوبين من العاصمة بغداد يطوفون بين المدن فالتقوا بموظفي القضاء وتغلغلوا بين وجهاء المدينة يَعدوهم ببناء عراق ينعم بالازدهار وتنظيم شؤون الدولة على أسلوب عصري متحضّر فيما جاء مندوبون آخرون عن حزبٍ سمّى نفسه "الإخاء الوطني" أعلن أنه يعارض السائد في نظام الدولة معيباً على النظام فوضاه الإدارية وتراخيه في مواجهة الأخطار المُحدقة بالوطن.

بعدما اجتمع به وفد حزب الإخاء ووجد في الحزب ما يمكنه من خلاله انتشال مدينته من واقع الفقر والجهل والمرارة المترسبة في النفوس أدرك جعفر أن عليه الانضمام فأعلن ذلك، متوخياً حرق المراحل في بناء مدرسة

وإنشاء جسر، وتحسين ري، وإقامة مصنع، وتكريس منشأ تجاري. سيكون كل ذلك من أولويات ورغبة توغل في أعماقه، فشرع بالحركة.. بدأ يضم إليه شباباً يرى فيهم ويرون فيه النزاهة والنقاء للهدف الأسمى الذي يخدم السماوة ككيان مديني صغير ومن ورائه العراق بأكمله.. ولم يفقه أن انضمامه هذا سيقوده يوماً إلى أن يجد نفسه في بغداد العاصمة؛ وجهاً لوجه مع عبد الكريم شوكت / أبي وهيبة.

كان تناهى إليه خبر فاه به مرةً مدير المال الجديد الذي نقل إلى السماوة التقى بشوكت عندما عُيّن مديراً للمال في مدينة بعقوبة، مشيراً إلى أنه عمل تحت إمرته هناك شهرين قبل أن يأتي إلى السماوة.

جرى الكلام مصادفةً عندما كانوا جالسين في حديقة بيت القائمقام عصراً يتبادلون الحديث بعد أن انهوا اجتماعاً حصل جراء أمر سري ومستعجل استدعي فيه جميع رؤساء دوائر القضاء ومدراء النواحي. وفيه قرأ مفوض الأمن التابع للقائمقامية برقية سرية ومستعجلة من وزارة الداخلية تحذر من وجود تنظيم حزبي جديد وهدّام لهيكلية الدولة والمجتمع يدعى "الحزب الشيوعي" يأخذ أوامره من موسكو وحكمها الذي يخطط لإشاعة روح الفوضى والكفر في البلدان الإسلامية، ومنها العراق. وشرع المفوَّض يتحدث عن أن أعضاء هذا الحزب من الكفّار والعملاء للأجنبي قائلاً: "أنهم يسعون لتقويض بناء الدولة وعلينا أن لا نسمح لتسلله إلى مدينتنا."

وعلى هامش الحديث الذي ابتدأ بسؤال القائمقام لمدير المال وأعماله السابقة تحدث عن عبد الكريم شوكت وكيف أنه زوَّده بالكثير من المعلومات عن السماوة وموظفيها وأهلها. وكيف أنه رفض العودة بعد الذي حدث له ولأقرانه من الموظفين وعائلاتهم رغم الرسائل التي وردته من الأهالي ترجوه بالعودة وتطالبه بالصفح.

ما هو حال وهيبة؟ أين هي الآن؟ هل تزوجت كما تزوجت أنا أم أنها

ترفض زواجاً لا تريده؟ هل عرفت أنني تزوجت، وأنني على وشك أن أصبح أباً، وأنني يوماً ما خنت عهدا قطعته لها؟.. هذه الأسئلة وغيرها عديدة تلاطمت كأمواج تنتحر على شاطئ أفكار جعفر، استغرقته عبر الطريق المبتدىء من عتبة بيت القائمقام خارجاً حتى وصوله البيت.

في منتصف الشهر الأول من العام ١٩٣١ دعي جعفر إلى بغداد كأحد الأعضاء الممثلين لمدينة السماوة ونواحيها. كان ثمّة حفل مشترك تم في حديقة الحزب الوطني العراقي المنظم حديثاً إلى حزب الإخاء الوطني ليكونا كتلة حزبية وطنية رصينة. هناك وجد فناء الحديقة مكتظّاً بأعضاء الحزب والمدعوين وقد جلسوا حول مناضد تغطيها أقمشة بيضاء تنتشر فوقها أقداح عصائر وصحون حلويات. منصَّة عُملت لغرض إلقاء مسؤولي الحزب وممثلي الأحزاب التي تتوافق. كانت قاطعته أحزاب أخرى رأت فيه معارضاً ومناهضاً لطموحاتها وتوجهاتها فقاطعته. بل راحت وبلا هوادة تشن عليه وعلى أفكار يجاهر وأهداف يعلن انه يسعى لتحقيقها حتى وصلت رائحة تلك الحرب إلى الملك فيصل فعمل على التهدئة داعياً إلى إتِّباع العمل السياسي الخالص بعيداً عن التشهير الشخصي.

وكان إن قُدِّمَ جعفر إلى بعض أعضاء الحزب والمدعوّين على أنّه ممثل السماوة. وما أن سمع أحدهم اسم السماوة حتى نهض من كرسيه مستأذناً صحباً يجالسهم ويتجه إلى حيث يجلس جعفر.

خمسينيّاً كان. قربته الخطى إلى الذاكرة، وجذبت ملامحه؛ فإذا هو أبو وهيبة.

(أي قدر هذا الذي تحرّك ليجعلني وجهاً لوجه أمامه لأستعيد ليالي الهناءات ونهارات البهجة وملامح ذلك الوجه المضمّخ بالوله، وأحاديث قلبها المحتشد بالحب الصادق البريء؟)

أفردَ الرجل ذراعيه واحتضن جعفر بلهفة مَن حمل الشوق الوفير..

((سحبني لنجلس عند منضدة فارغة راح بعدها يسألني عن هذا وذاك بعدما عرفته على نفسي وأعلمته أنني اعمل موظفاً في دائرة ري المدينة مثلما أعلمني أنه الآن مدير لمال بعقوبة وأنه من أعضاء حزب الإخاء جاء ممثلاً عن فرعه هناك.

سألني عن أبي وحالته وعمله وانطلق سؤالي عن أحواله والعائلة في بعقوبة. وكان السؤال عن وهيبة هو ما أردت تسلله من بين أسئلة طرحتها عليه. قال أنهم جميعهم بخير، وأنَّ ابنته الكبرى وهيبة دخلت المدرسة وتدرَّجت في الدراسة، وهي الآن معلمة وغير متزوجة، وأن إخوانها يواصلون دراستهم بتفوّق وهو ينوي إرسالهم إلى خارج البلاد لتحصيل شهادات مميزة. ومن بين أسئلته عني وعن أهلي أعلمته أنني متزوج حديثاً وبانتظار وليد بعد أشهر. أعلمته أن السماوة شهدت تغيرات كثيرة منها إيصال الكهرباء من مولِّدة نُصبت حديثاً تزوِّد البيوت بالنور ليلاً وأنَّ الأمنَ مستتب في المدينة ليس كما كانت أيامه، فحمد الله لحصول ذلك، قائلاً: كانت المشاكل أيامنا لا تحصى.

إذاً لم تتزوج وهيبة!

ما زالت مصرّة على رفض فحوى اللوحة التي أنجزتها ذات يوم بهيئة (اسكج) وعرضتها عليها.. كانت تطلعَت فيها فأعُجبت: فتاة تطل من نافذة في الطابق الثاني. تقطع وجهها قضبان معدنية بمثابة عوازل. وجه الفتاة يحمل قسماتها. قالت مندهشة: هذه أنا!.. كيف استطعت رسم وجهي بهذا الوضوح والدقّة.. ظلت تتفرس بها طويلاً قبل أن تتنامى علامات استنكار تسكبه عيناها وهي ترى شباباً كان التخطيط يظهرهم مصوبين نظراتهم باتجاهها... قالت محتجّة: "امحُ هؤلاء من الصورة وارسم بدلهم شخص جعفر فقط يقف ليستقبل شغفي وشوقي".. تلك اللحظة اعتراني خجل الاستنكار.. وجدتُ وهيبة صارمة لا تتقبّل خطأً بمثابة خطيئة.)

لم تتزوج وهيبة إذاً!

((أتراها تحمل قرارَ العهد في قلبها أم أنَّ أحداً لم يتقدّم للاقتران بها.. هل حقّاً بقي ذلك الحب في وجدانها فلا تسمح لأحد الدنو منه ومحوه بفرشاة الأيام ولا أن تطليه تقادمات الأعوام مزيلةً أثره من ذاكرتها نهائياً؟!.. ماذا لو أعلمَها أبوها بلقائه بي ورماها بخبر زواجي ونقضي لعهد الحب الأبدي؟.. كيف ستكون تلك اللحظة؟ وبأي ردّة فعل ستقفز لتكتسح قسمات وجهها؟ كيف ستنام ليلتها، وكيف ستصرف الزمن بعد ذاك؟))

غيوم الكآبة شرعت تتجمع في فضاء روحه. تمنّى لو أنه لم يحضر إلى بغداد، ولم يدع القدر يسوقه ليجعله وجهاً لوجه مع عبد الكريم شوكت. وبدلاً من الشعور بالغِبطة في حضوره لهكذا لقاء كان تاريخيّاً له ومهمّاً لمدينته انتابته مشاعر الحزن وهاجمه الكمد بكل أسلحته وانتهاكاته الساحقة. لذلك كانت عودته إلى السماوة عودة المهزوم في معركةٍ فقدَ فيها كلَّ مَنحى للشعور بنصر ولو بحجمِ اضمامة كف؛ حتى أن زوجته زكيّة لحظت ذلك من أول نظرة. عزته لثقل السفر أول الأمر، لكنها عبّرت عن الغرابة حين استمرت الكآبة تنشر سطوتَها على تحركه وتترك نظرات الذهول تشيع في عينيه. ولم تصل إلى فحوى الهمِّ فاستكانت، وصمتت..

لم يعر جعفر همّاً لتعليمات زوِّد بها من قبل الحزب في ضرورة التحرك على المتعلمين ليكونوا حاملي راية تثقيف ونشر وعي بأهداف الحزب وغاياته في بناء عراق ديمقراطي يؤمن بالمساواة وتسوده شمس المعرفة والعلم؛ ولا تحركَ على عشائر حُسب أنهم سيكونون قاعدة مهمة لانتشار الحزب ومعاضدته في تحقيق مراميه.

لقد نسي كلَّ شيء إلا وهيبة!

تخيلها تدخل ساحة العتاب لتقرّعه بكلمات اللوم، وتوصمه بالجحود ونكران العهد معيبةً عليه أعماق لا تحتفظ بأيامٍ قضياها تحت شمس واحدة

كانت تضيء مرابع عشقهما البريء، وتعنّفه على عهد أهمله فتركه لا يستظلّ بأفياء الإخلاص المطلوب..

شاع الجزع في الروح، وامتلأ القلب بغيوم الكدر.

لكن الماثل يا جعفر يضعك أمام حقائق لا يمكن تجاوزها؛ ومن البلاهة التخلّي عنها. فأنتَ زوج صارت بعهدتك امرأة ستمر الشهور القريبة لتجد نفسك أباً، وأنتَ سياسيٌّ الآن دخلتَ في حياة انفتح المجتمع فيها على آفاق ديمقراطية جلبها لك من يحملون الحضارة ويبشّرون بها، وبات على هذا المجتمع تقبّلها شاءَ أم رفض. فالحياة لا تعود إلى الوراء، والزمن مع مَن يبغون النور تخلصاً من الظلام فلا يرحم متقاعساً ولا يبرر لمتلكىء. وما وهيبة سوى حبٍّ سعيت لتكون نهايةُ مشوارِه الاقتران وبناء حياة مبتغاة لكن القدر لم يرد ذلك، ولم يُجز لما ارتأيت. وما عليك بعد الآن غير أن تفكّر بمدينتك وتبحثَ من خلال انتمائك إلى تيّار حزبي عصري ينتشلها من فقرِها، ويُخرجُها من نفقِ الاقتتال الساكب منافعُه في بوتقةِ المتنفذين الذين لا همَّ لهم سوى مصالحهم الذاتية.

ولكن يوم تتمخض من رحمِ الرتابة مفاجأةٌ بحدوث زلزال في حياة، ويأتي القدر بما لم تأتِ به ربّة التوقعات.. يوم أن ترحل غمامات اليأس بعربات التشبث بخيبة الأمل وتحل محلها سهوب نهار منبثق من محفّات التفاؤل.. يوم أن يجابهك الحظ مخادعاً أو مشفقاً قائلاً: ها قد رتّبت لك ميعاداً تمسك على خمائله طيور الأحلام لتطلقها في فناء روحك الضاج بالمتهافتات من الأحداث والرؤى هل تعلن الرفض، وتصر على التحدي..

جاء ذلك اليوم الذي رنَّ الهاتف ليأتيه عبر أسلاك الخيال صوت عبد الكريم شوكت يلقي التحية، ويشير إلى أنَّ لهم لقاءً سيتم في بغداد حدد الحزب ميعاده لتداول أمورٍ هامّة تستدعي وضع خطة لفترة قادمة، وأنه سوف يحضر وعائلته لأنَّ ثمّة حفلاً عائلياً سيتم على هامش انعقاد

الاجتماع.. وتمنى اللقاء به.

قفزَ إلى سطحِ الذهنِ حدسُ أنَّ وهيبة ستحضر..

حضورٌ بقدرِ ما هو مبعثُ لهفةٍ سيغدو مثارُ ألم أيضاً .

فماذا ستفعل أيها الغارقُ في يمِّ الجحود، وكيف تولي لعينيك تحمّل مشهدِ حضورِها، ولساقيك قدرةَ حملك وبقائك منتصباً أمام أعتابِ نظراتها؟

((أدري أنها ستسعى جاهدة للقائي ونثر سِني لهفتها على بساط البوح.. ادري أن دموعَها ستكون بهدير نهر جارف؛ بعظم إعصار مجنون. ستتجاوز حدود الانضباط أمام الأب؛ ذلك أنها تجاوزت الثلاثين وارتقت نواصي الثقافة وقدرة المواجهة. ستسأل إن كنت صرفت الأعوام على لظى جمر الفراق وكيف تحملته وتجاوزته. ستفوه بكل ما في صدرها من آهات اختزنتها كبتاً، وآلامٍ جمدتها جَلَداً لتكون رصيداً للصبر.))

أيامٌ ثلاثة هي الحد الفاصل للسفر واللقاء صرفها جعفر في دوامة قلق وارتباك!

يدفعه موج الرغبة في السفر وحضور الحفل. " أيها الله القادر على صنع المعجزات كرّس معجزةً انتظرتها منك.. دع الوقت يمضي خاطفاً كيما تقرب لحظة اللقاء، ودعه يتوقف وينجمد آنْ تقف وهيبة أمامي فأتحنط أمامها. ".. آه! يردُّه موجٌ آخر يحمله لشاطىء تجنب اللقاء.. يتخيل أنه يقف إزاءها فينثر على مسمعها عبارات شوقه لها، ثم بعد قليل ينكفىء، مردداً: ما نفع لقائي بها، أنا الذي بتُّ زوجاً ولي غب أسابيع مولودٌ ؟ ما جدوى لقاءٍ سيحطم قلبها، ويهشّم كيان حب احتفظت به صادقةً واثقة من صدقي لها، وثقتي بها؟.. من أين لي القوة والطلاقة للإجابة على أسئلة العتاب حين تكتشف جحودي وتجاوز عهدي.. من أين لي إمكانية التبرير والإقناع؟

راجعَ تبعاتِ الأمر فتوالدت أسئلةٌ من عِداد الهرب وتجاوز الموقف.. هل يدّعي المرض فيستثني السفر تجنباً للقائها؟.. هل يحضر الاجتماع ليتصل

بعد ذلك بعذرٍ يستدعي خروجه فيقص شريط فيلم لقاء سيحصل مؤكداً بعد الاجتماع؟ هل...؟ وهل...؟

(انظر إلى زكية فأجدها الزوجةَ المثلى؛ وإلى عملي فأتلمسُه البحرُ الذي يُغرقني بفحواه؛ وإلى وهيبةِ البعيدة القريبة فألفيها حبّاً احتلَّ فضاءات واسعةً من القلب، لكنه احتلالٌ شرعت الأيام تهيل عليه ترابَ التراجع وتوشّحه بحقيقةِ أنَّ ما كان كانَ حلماً قد تفتَّت آجرات تماسكه ومثوله. لذلك صار همّي لقاءها لمجردِ معرفةِ تأثيرِ الزمن على قسماتِها وثقل البعد على مشاعرها.).

(١٠)

أقلَّه القطار وكان يعجُّ بالمسافرين صوب بغداد. قِطار ينطلق كعادته يومياً من البصرة صباحاً فيصل السماوة في الواحدة ظهراً، وسيصل إلى بغداء وقت الغروب ماراً بقرى وأريافٍ ومدن.. العين تبصر تغيراً واضحاً في الحياة لكنه كما قال ساسون من قبل تغير محدود لا يتعدى الملامح البسيطة في المظهر وتشييد بيت هنا وهناك لمتنفذين إقطاع هبّوا للدخول في مفاصل السلطة حفاظاً على هيمنتهم على جموع الفلاحين الرازحة تحت رحى العسف. دخلوا الأحزاب، وصعدوا إلى مجلس النواب اعتماداً على انتمائهم لها... تغيُّر لا يتواءم ورغبة الناس وحاجتهم.. كان التعليم شرع يأخذ دوراً لكنه محدود؛ والاقتصاد ينمو ولكن بنموٍّ بطيء متعثر.. يُساجل الماثل فيجد الأرياف لمّا تزل تفتقر إلى وسائل العيش الحضري. وما زال الناس ينظرون بريبةٍ لمن يأتي غريباً. وقد تُفصح عيونُهم عن دهاء دفين ذكّرته إحدى لحظات النظر في وجوههم وترجمة قسماتهم بحكاية تناقلها الناس قبل ثلاثة عشر عاماً يوم قدِمَ عدد من الرجال يربون على الثلاثين عراة إلا من سراويل داخلية تخفي عوراتهم وطاقيات كاكية داخلين على قائمقام السماوة مفصحين

أنهم من الجندرمة كان بعث بهم قائدهم لحراسة القطار الذي انحرف ليلاً في منطقة (أم الواويّة) بفعل إزالة قضبانه من قبل الثوار المناهضين للمحتل الإنكليزي فهجم عليهم أولئك الثوار بعد كمين محكم مستولينَ على أسلحتهم ومجردينهم من ملابسهم الكاكية، تاركينهم عراة جوعى، واهبين لهم الحياة كهديةٍ لا يمنحها غيرهم من ثوار العالم.

القطار أرساه عند محطة قطار الوشاش، ومن هناك حملته عربة يجرها حصانان إلى فندق "الزيتونة" في علاوي الحلة لقضاء ليلته. كان ذلك يوم ١٠ من الشهر الثاني من العام ١٩٣٤.

صباح اليوم التالي كانَ عليه أن يستأجر عربةً تقلّه إلى منطقة (السنك). يطلب من الحوذي التوقّف عند مقر حزب الاتحاد.. يتطلب هذا اختراق شارع الرشيد حصدت خلاله العين رؤية المحلات تعرض معروضاتها على الجانبين: محلات لبيع الحبوب من قمح ورز وشعير وذرة بيضاء وأخرى صفراء، وحبوب مستوردة: حمص وعدس وماش.. محلات لبيع البهارات والعطور النباتية أمكنه مشاهدة الصناديق الخشبية المكعبة وقد بانت عليها الكتابة بالرموز الهندية والانكليزية سوداء ثخينة .

مرت العربة قرب جامع الخلفاء فشاهد دكاكينَ، تحتشد أعماقها ومعروضاتها الخارجية ببالات قطن مستورد وصوف محلي تجاورها محلات نِدافة تعرض أفرشة أحشاؤها من القطن والصوف: لحف ووسائد وفرش منام وبسط صوفية.. دكاكين تعرض جلوداً مدبوغة مُعدة لصناعة الحقائب والأحذية؛ وأخرى تبيع القِرب والحِبال وأفرشة مصنوعة من وبر الجمال كأنها تنتظر بدواً من مناطق شتى من البلاد لابتياعها.

المقاهي كثيرة في هذا الحيز من شارع الرشيد تضم تخوت خشبية مفروشة بسجاجيد عتيقة، أبلتها عجيزات الرواد فأفقدتها نقوشها. جل الجلاس جاءوا من مدنٍ وأرياف قريبة للتبضّع بحاجيات ينقلها حمالون يجوبون المكان

إلى شاطىء دجلة القريب، فتتقلها من هناك سفن راسية شمالاً باتجاه الموصل أو جنوباً صوب البصرة وما تمر بمدنٍ على الطريق.

سحب الحوذي لجام حصانه فتوقفت العربة،: قائلاً: تفضل بيك، هذا هو مقر حزب الاتحاد. لم يكن يجهل المقر لكن فضوله في التطلع أنساه إعطاء إشارة للحوذي بالتوقف.

الباب الحديدي المشبَّك مشرعٌ على ممرٍّ عريض تمتد على جانبه حديقة واسعة ارتفعت عند حافاتها المجاورة للجدران شجيرات رمان وليمون بأغصان تجاهد أن تكون أشجار بعرف التوصيف يسيِّجها سور كثيف من شجيرات آس مُخضرة الأوراق تبث رائحة منعشة في الفضاء القريب. استطاع جعفر التقاط حركة مستقبلين يرتدون ملابس إفرنجية سوداء وأربطة عنق زرق منتصبين على جانبي الممر يتولون كما ظهر له استقبال أعضاء الحزب والضيوف من العائلات. استقبلوه بابتسامة ود وتحية. تقدمهم رجل كهل بابتسامة حيية مستفسراً عن اسمه ومن يكون. زادت ابتسامته وتهافتت كلماته الترحيبية وهو يجيب على سؤاله كممثل للحزب في السماوة .

قاده عبر باب ساجي صوب صالة تتخثّر فيها العتمة ويتسلل إليها الضوءُ من بابٍ بعيد عريض مفتوح ونافذتين على جانبي الباب تسحبان الضوء ليساهم بالقدر الممكن في إضاءةِ الصالة. تلك الباب تقود إلى شرفةٍ عريضة تطل على نهر دجلة يتخذها قادةُ الحزب والضيوف مكاناً للاسترخاء عصراً وفي المساءات الرائقة، والتداول الحواري كذلك.

لفت انتباهه تناثر بعض العائلات في الحديقة. بعضها يجلس في حلقات حول مناضد مترفة أُعدّت بتنسيق يليق بعائلاتٍ لها سمعتها المبجلة وصيتها الذائع بالاحترام. لم تكن عائلة عبد الكريم بين الجالسين، ولم يلمح عبد الكريم في قاعة الاجتماع.

كانت كلمة ترحيبية تبث بهجة وارتياح تنهال من فمِ أمين عام الحزب

تعلن نجاح الحزب في توسعه وحذَقَ مسؤوليه في المدن والأرياف في كسب الأعداد التي تتوافق والخطة الموضوعة. شاع الارتياح على الوجوه وتكللت القَسمات بملامح الابتهاج وهو يتحدَّث وفقَ إحصائية ايجابية عن التوسع الحاصل مفتخراً للنشاط المميَّز حققها خلال أعوام قصيرة استقبل فيها الأعداد الوفيرة من المنتسبين والمناصرين.

رجلٌ أربعيني دخل مستأذناً.عرَّف نفسه بأنه مسؤول تنظيمات الحلّة مبرراً سبب تأخره لحادث سير متسلسل ضربت فيه إحدى السيارات سيارةً أمامها توقفت فجأةً فصُدمت الثانية بسيارة من خلفها، والسيارة الصادمة صدمتها التي خلفها، وهكذا كان سيلاً من صدامات بقدر ما تسببت بخسائر مادية أثارت المشاهدين وهم يرون صفاً من سيارات متصادمة بشكل يدعو على التفكّه. ضحك الحضور لتصوير الموقف من قِبل المتحدّث. وعاد القائد يواصل حديث الارتياح لنشاط الحزب، قطعه دخول عبد الكريم واعتذاره بعذر شخصي سيوضحه للقائد لاحقاً.

بعد وقتٍ تُرك الحديث لمسؤولي الحزب في المدن والقصبات أن يطرحوا ما لديهم.

وما أن همَّ مسؤول الكرخ بالحديث حتى دخل الرجل الكهل الذي قاد جعفر قبل قليل وقدّم قصاصةَ ورقٍ وضعها أمام القائد الذي ما أن رست عيناه على فحوى الورقة حتى تجهَّم وعلت سحابةُ شدهٍ وحيرة على وجهه. ذهب في صمت وسهوم قبل أن يفوه:

– أنقلُ خبرَ وفاة الأميرة رفيعة كريمة ملِكنا فيصل.. إن حداداً سيعلن لثلاثة أيام.

توقّف كما لو كان يستجمع الكلمات لاتخاذ قرار فوري:

– اعتقد أننا في موقف يُحتِّم علينا تعليق الاجتماع، وإلغاء الحفل العائلي جراء هذا الحدث الجلل، ومواساة الملك المُعظم.

ساد الصمت، ورُفع الاجتماع ؛ وشعر الجميع بحزن ثقيل.

أشار القائد على جعفر واثنين آخرين كي يبقيا لموضوع سيطرحه سريعاً فيما شاهد عبد الكريم يخرج مع الخارجين مرتبكاً. لا يبدو أنه شاهد جعفر عند دخوله؛ لعلَّ فكرة رمادية طرأت له لشيء ما سيحدث في العاصمة وعليه أن يعود إلى بعقوبة سريعاً، أو أن الذي أبداه للقائد هو ما جعله يخرج مسرعاً.

لم تُجدِ محاولات جعفر التملّص من القائد وتحقيق رغبة الخروج للحظات لمشاهدة وهيبة، فقد ألحَ عليه في البقاء لملاحظات سيبلغه بها. لكن حين قرأ القائد قلقه قال: "خذ راحتك! توقع طلباً سأبعث بتفاصيله إليك برقياً.".

خرج على وقعِ لهفته للقاء عبد الكريم ومعرفة ما إذا اصطحب العائلة معه كما اخبره في اتصاله الهاتفي، وما إذا كانت وهيبة ضمنِهم، وما إذا أفرد الحظ أبوابه ليدخل على فناء رؤيتها والحديث معها.

الحديقةُ تشهد حركةً غير اعتيادية، يشيعُ فيها الارتباك. العائلات تحاول الخروج واستئجار عربات تقلّها في حركةٍ سريعة فهم منها أنهم يخشون عدم حصولهم على وسائط تنقلهم إلى مدنهم حيث ستزدحم الشوارع بالمعزّين القادمين من أماكن مختلفة.

عندما تُقدِّم لك حواءُ الحظ تفاحةً، ويأتيك حسن الطالع بمائدةِ مشروبات الجنة: عسل وسلسبيل، وماء نقاء ومتواليات من المثيرات الفاتنات لا بدَّ لك من أنْ لا تفقد الفرصة، ولا تجانب اللحظات التي إن أتت عاريةً فلن تمسك بلدانة حضور فتنتها!..

تحرَّك فلا تترك لعقلِك يغترف قدحَ البلاهة ، اندفع ولا تدع قلبكَ يقضم حجرَ البلادة.... هيّا!

اندفع يبحث عن عبد الكريم!.. لا وجود له بين المنتشرين المتبقين في الحديقة. طارت عيناه بقلقِ مسروقٍ تبحث بين الأشجار فلم يحظ بأي منهم..

يـا إلهـي، لا أثـر لهـم.. (أنـتَ ابـن الغبـاء وحفيـد الجنـون إن أضـعتَ هـذه الهُنيهة التاريخية! اندفع !) .

اندفع خارجاً!

ثمة عربة يقودها حوذي تقف عن بعد. أبصر عبد الكريم يرفع قدماً على دكّة الصعود ويهمّ برفع الأخرى، ثم يدخل إلى جوفِها. رفع الحوذي سوطَه وضرب على ظهر حصانيه فدبّت الحركة. وبالحركة مرّت العربة من أمام جعفر، خاطفةً. ثمة امرأة وبجنبها فتاة، وفي المقابل عبد الكريم وشاب بعمر العشرين.. هل أبصرَ وهيبة، وهل شاهدَ أمَّها؟.. هل كانت الفتاة المرتديةُ بدلةً خضراء بلون ورق الكالبتوس هي وهيبة؟.. هل صاحبة الشال ألأزرق ذات الوجه الأبيض الناصع هي وهيبة؟.. هل أبصرته بحيث تجمَّدت نظراتُها عليه وهو يقف متصالباً على الرصيف؟.. أيركض عدواً ليلحق بالعربة ويوقفها؟

الأسئلة سرقت وقتَ المبادرة.

الأسئلة حجبت نورَ وجهِها الوضّاء..

الأسئلة تهافتت لتتآمر على لحظة اللقاء الهاربة من فضاء الغيب.

الأسئلة كادت تقذف به على قارعةِ البكاء طعيناً، نديماً، حسيراً.

آآآآه الأسئلة!

الأسئلة!

لا يوجد ثمَّة ضياعٌ أثقل من هذا!.. ولا خيبةُ قدرٍ أكثر رماداً من إيقاف القلب وهتكه، وتمزيقه!.. ولا جنونٍ تتحقق فيه كلُ هذه الخسارة الأبدية!

استسلم إذاً أيها الضائع؛ وارمِ في هوة خساراتك حقبةً كانت لديك بمثابةِ حُلمٍ أردته أن يتحقق..

فأبى!!!

الفصل الثالث

بقيــت جُمــوعُهمُ كأنَّــكَ كُلُّهــا وبَقيــتَ بيــنهمُ كأنَّــكَ مُفــردُ

المتنبي

رقد "انكيدو" مريضاً أمام جلجامش، وأخذت الدموع
تنهمر من عينيه.. فقال له جلجامش:
يا أخي العزيز علامَ يبرؤونني من دونِك.

ملحمة جلجامش.. ت / طه باقر

(١)

فوجئ جعفر وهو يدخلُ الزقاق بانتشار الشرطة ببناطيلهم الكاكيّة القصيرة فوق الرُكب وسداراتهم التي تشبه زوارق مقلوبة على الرؤوس في حالة متابعة ورصد للمارة وتركيز في الوجوه. ثلاثة منهم يحملون الهراوات يأتمرون بإمرة مفوَّض تميّزهُ بدلةٌ كاكية مهندمة نوعاً ما ونجمتان فضّيتان تتكئان على طرفي ياقته وقد بدت على وجهه سيماء الصرامة.

الزقاق يخلو من الحركة.

لا يوجد هناك شيءٌ سوى صهد الشمس يحتل الفضاء وتوترٌ يُشعرك بضيق صدر الزقاق من هكذا مشهد غريب، رغم أنَّ الغرابة لا تبتعد عن المكان ببيوته الصغيرة الحسيرة المتهالكة التي تنامت منذ الثلاثينات بيتاً فبيتاً بعد أن كانت صرائف تتشكّل من القصب وبيوتات كالأكواخ ترتفع من الطين. بيوت أخذت تزحف بفعل أناس قدموا من شتى الأرياف والمدن الصغيرة. مروّا من هنا فوجدوا السماوة مدينة يلتزم أهلها بالكرم. القادم إليها لا يُحسَب غريباً بل واحداً من أهلها حين يحلُّ ضيفاً، مرددينَ قولاً هو من عسلِ الشعر: ((يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحنُ الضيوفَ وأنتَ ربُّ المنزلِ)) فيعود هذا الضيف بعد أيام إلى موطن سكناه يحدّث أهله وصحبه عن السماوة وقومها حتى غدا لقب " أهل السماوة العزاب " يطوف إرجاءَ البلاد ويُذكرون حيثما يردُ الحديثُ عن سمة الكرمِ وحُسن الاستقبال ومدِّ الضيافة. ويوم جاء احدُهم ممن فضَّلَ العيشَ فيها وتركَ مدينته استقدمَ معه آلةَ ندافةٍ تحوِّل الصوف إلى خيوط تستحيل بسطاً صوفية، والقطن المنفوش إلى أفرشة ووسائد وثيرة صار الناس يُسمّونَ الكيانَ المستلَّ من بيتٍ مستأجرٍ يحوي هذه الآلة العجيبة في نظرهم معملاً وصار الزقاقُ الذي يسكنُ فيه جعفر يسمى (عَجد المعمل)، تتصل به أزقةٌ جديدة مستحدثة عاماً بعد آخر حتى غدا اليوم ونحن في العام ١٩٥٩ من أحياء المدينة الداخلية أو قصبةً كما يطلق

عليه الآخرون. زحفت الأحياء الجديدة ببيوت صغيرة كالأقنان زحفاً تجاوز محطةَ القطار وترك وراءه مستنقعات كان ينمو فيها القصب وتتكاثر فيها الضفادع والأفاعي المائية وتلجأ إليها الكلاب الضالة لتكون ملاجىء إيوائها نهاراً حيث تنتظر الليل لتطوف في سوق المدينة الكبير والواسع بتفرعاته، وتبحث في سوق القصابين على الأخص علّها تحظى ببقايا فضلات حيوانية لتلتهمها كأسلوب من أساليب الغريزة الأبدية في حب البقاء حيّةً، وإذ لم تجد ما يسد الرمق تروح تبحث في المزابل التي تنتظر مقدم الصباح ليرفعها زبّالو البلدية. ويوم جاء إلى هنا قائمقام اسمه علي حيدر أول شيء فكَّر فيه هو تخليد ذكراه فعمل على توزيع الأراضي المترامية خلف المستنقعات. تلك الأراضي كانت قد كُرِّست مقبرةً يُدفن فيها الصغار حين يموتون فسميت باسم (الحيدرية) تيمناً به.

واصل السير مجتازاً المفوَّض المنتصب والشرطة الثلاث الذين تحركوا فاتخذوا مواقعَ عند مبتدأ الزقاق ووسطه ونهايته التي تربطه بزقاق ثانٍ يفضي إلى أزقة متداخلة سيخبره انحرافه إلى الزقاق الذي يوجد فيه بيته أنَّ هناك شرطة آخرين توزعوا ليتولوا مهمّة الرصد.

لم يوقفه أحد؛ ولم يسألوه عن هويته؛ ذلك أنَّ عمر الستين لا يمثل هويةً للشك، وصورته لا تبررِ جهلَهم به فقد توقفوا كثيراً عند دكانه يتفحصون أقمشة يودّون شراءها، وربَّما بعض من نسائِهم ابتعن ما فتنَهُنَّ من أنواعٍ مناسبة لكلِّ الأذواق اعتاد جلبها وعرضها في واجهة دكانه.

طرق الباب كعادته.. والطرقات تتم برفع كفٍّ برونزية تمسك أطرافُ أصابعِها كتلةً حديد كروية ينهال بها على قاعدة برونزية سميكة فينتج صوتاً خاصاً يُعلم مَن في الداخل بوجود قادم عند الباب ويتطلَّب من هذا الذي في الداخل أن يسأل: "مَن الطارق؟" قبل أن يُفتح الباب وتتم عملية الاستقبال... لكن هذه المرّة لم يأتِ السؤال؛ حتى وهو يكرر الطَّرق، فأدرك بحكم الموقف

أنَّ الخشية والخوف يتسيّدان المكان، وأنَّ زكية وابنتهما فاطمة مصابتان بالهلع فاضطر إلى إطلاق النداء... لحظات وانفرج عن أم فاطمة يهتف وجهُها الكهولي بالشحوب وتطفح من عينيها الكليلتين غيومُ الخوف الصارخ.

توترٌ يشيعُ بلحظاته؛ يفرض وجودَه الثقيل، ويعدم الحركة.

– ما الذي يجري؟!!

يأتيه صوتُها خفيضاً:

– لا ترفع صوتك!

وتسحبه من يده إلى غرفتهما، فتفوه هامسةً:

– الشرطةُ داهمت الشيوعيين في مقرِّهم؟.. المتواجدون في المقر هربوا من الباب الخلفي المنفتح على زقاقنا وقد اندفع احدهم إلى بيتنا لائذاً، دخيلاً. المسكين كان يرتعش خوفاً. صعدتُ به إلى مرسمِك. انه هناك خلف اللوحات والأدوات. لقد اقتحم الشرطة البيت وفتشوا الغرف والمطبخ والحمام وعندما صعدوا إلى السطح طالبوني بفتح المرسم فتعذّرت بأنها مقفلة من قِبلك ومفتاحها لديك. لا أدري كيف اقتنعوا بكلامي فنزلوا بلا إصرار على تفتيشها، لعلّ حظَّ الشاب أعمى قلوبَهم.. ألم تشاهدهم يرابطون في الأزقة؟

– وهل ما زال في غرفة المرسم؟ سيموت من الحر! لا بدَّ أن ترووا عطشه؟

– سأفعل؟.. قالتها وقد تناثرت مفردات التأسي عليه. تحركت إلى كوز الماء .. ومن خثرة الظل الذي ينتصب فيه الكوز تناهى صوتُها متمتماً بمرارةِ التي تحمل وطء ذكرى ثقيلة: "هذه حال السياسة في العراق."

تحفَّزت الذاكرة وهو يهم بخلع القميص والبنطلون اللذين غزاهما العرق ليستبدلهما بالبيجاما القطنية تحرراً من رِبقة الحر وهيمنته في هكذا يومٍ قائظ.

تحفَّزت الذاكرة..

تحفَّزت لاستعادة مشاهدَ وأحداثاً مرّت قبل ثلاثين عاماً..

"هذه حال السياسة في العراق!".. كلماتها ظلت تتردد بحسرتها، وألمها، وشعورها الجارف باليأس، وهي نفس النغمة اليائسة التي كانت ترددها أمُّه عندما نصب القدرُ حرابَه وراح ينهال على ولدها بفتكه وأذاه. يتذكّرها جعفر الآن:

((أعود إلى ثلاثين عاماً خلت. وذلك الصباح الذي قادتني لحظات ضحاه إلى دائرة البريد لأكتب برقيةً طويلة على هامش إصدار وزارة الداخلية ونحن في العام ١٩٣٥ أمراً بمنع إقامة شعائر "الزنجيل" و"التطبير" واقتصار طقوس عاشوراء على إقامة جلسات الوعظ وتنوير العامة من الناس بخطأ إقامة مثل هكذا ممارسات لا تمت للدين الحنيف بشيء، وإنما هي سلوكيات جاهر بها الغلاة ودفعوا بها البسطاء ليجعلوها طقوساً ترتدي معطف التقديس.

أتذكَّر أني ضمَّنت البرقيةَ كلماتٍ تقول: "منع الناس من أداء طقوسهم – وإن كانت بمنظورنا طقوساً دخيلة خاطئة – بهذه الفظاظة يخلّق توتراً، ويغذّي كُرها، ويفجّر رفضاً للحكومة ولحزبنا الذي يشارك فيها بقوة؛ حزبنا الساعي لضم وكسب أكبر عدد من الأتباع بغية الأخذ بيدهم إلى مرافىء النور لا إبقائهم في مراتع الجهل وتركهم صيداً سهلاً لمن يستغل بساطتَهم وعفويتهم وبراءتَهم. إننا نسير على خطأ سيكلِّف مسيرتنا السياسية أثماناً فادحة".

نعم كل عاقل يُقر بأن هكذا ممارسات تتصف بتعنيف النفس وتعذيبها بأسلوب مازوشي ليس من موجبات الدين الحنيف، وما يدور سنوياً مع قدوم ذكرى مقتل الإمام الحسين بن علي ما هو إلا من فعل غلاة أحبوا هذا الرجل القويم الذي أحب دينه القويم. ابتدأ سيناريو المغالاة لأول مرة في كربلاء يوم دخل حفنة من زائري مرقد الحسين قيلَ أنهم أتراك حليقو الرؤوس يرتدون أوشحة بيضاء ويحملون سيوفاً تبرق راحوا ينهالون بها على رؤوسهم وهم

يصرخون بأصوات فاجعة: "يا حسين.. يا مظلوم" وسط دهشة الناس وذهولهم من مشهد أبصروا فيه الدماء تتدفق من هامات الرؤوس وتسيح منسابة على البياض الناصع فيعكس لوناً دموياً ورديا جعلَ يغمر الأوشحة. يدورونَ حول المرقد لمرات عديدة، تنطلق من أفواههم مفردة (حيدر.. حيدر)؛ حتى إذا تسربلوا بالدماء وبُحَّت أصواتهم من الهتاف انسحبوا، والناس تتساءل من يكون هؤلاء... وفي العام الثاني وبنفس الموعد قدِم عدد اكبر مؤدّين نفس الطقوس ما ولَّد لدى الشيعة من محبّي الحُسين سؤالا: لماذا يأتي هؤلاء من بلدانٍ بعيدة متحمّلين مشقّة وعَناء الطريق ولماذا ينزفون الدماء من اجل الحسين ولا نفعل نحن مَن نشم دماء الحسين في الأرض عندنا؟.. لماذا لا نسفح دماءنا من اجله؟.. هذه الأسئلة وغيرها سرت بين شيعة العراق ليشهد العام الثالث جموع الحليقين المتَّشحين بالبياض والحاملين السيوف وهم ينهالون بها على الرؤوس فتتفجر الدماء ويغدو الأمر طقساً سنوياً، استحال تياراً جارفاً لا احد يستطيع الإفتاء بإيقافه وإعلان أنه مغالاة تبعد المسلم عن دينه والشيعي عن رضاء الحسين لدماء تنزف هدراً.

لم تمضِ غير ساعات على إرسالي البرقية والدوام في الدائرة يوشك على الانتهاء حتى رنَّ الهاتف يطلب حضوري العاجل إلى بغداد للتداول مع قيادة الحزب دون أن أرسو على أمرٍ رضا القيادة أو رفضها لما كتبت.))

تناول الجرّة الفخارية الممتلئة ماءً بارداً من يدِ أم فاطمة وارتقى السلَّم صاعداً بعدما طلب منها أن تصاحبه لتكلِّمَه من خلف الباب حتى لا يُفاجأ به كصوتٍ رجالي فيظنّه شرطياً اقتحم البيت وتوجّه إليه.

– افتح، يا ابني. جئت لك بالماء. توجَّه صوتُها بهمسٍ اكتشفه أكثر حناناً، وأعمق عاطفة.

انتظرا حركة تبدر من داخل الغرفة. أرهفا السمع مخمّنين أن الخوف والحذر يستدعيان أخذ القرار بالفتح أو عدم الاستجابة وحسبا أنْ ما هي إلا

لحظات وتنفرج الباب عن وجه شاب قالت عنه "كان خائفاً كالطير المكسور الجناح اقتحم البيت واسترحمني بحمايته وإخفائه". غير أن ذلك لم يحصل. وعندما كرَّرت النداء الهامس ولم يأتِ الجواب أدار جعفر أكرةَ الباب ودفعها فإذا به وبها وسط الغرفة.

لم يكن الشاب هناك. ولم يريا ما يشير إلى أنّه بقي طويلاً. يبدو أنّه كان أكثر خوفاً مما رأته المرأة وأقل شعوراً بالاطمئنان في غرفةٍ كهذه لا بدَّ إن بدأ التفتيش في البيوت من فتحها عنوةً حتى لو أصرت هي أو رب البيت على عدم فتحها استناداً إلى مبررّات لن يحسبونها ذات جدوى عندهم.

– إذاً هرب عبر السطوح ووصل إلى طريق قد يأخذه إلى بيته، أو هو الآن في بيت يعتقده أكثر أماناً.

تفقَّد جعفر محتويات الغرفة واطَّلع على اللوحات المركونة أرضاً أو المتكئة على الجدار. لم يساوره اعتقاد أن عدد اللوحات كان ناقصاً لكنه أيقن أن الهارب الشاب شاهد بعضاً منها ولم يسمح له رعب اللحظات من مشاهدتها جميعاً. اكتشف ذلك من طبعات أصابعه على لوحة هنا وأخرى هناك مكتفياً بالنظر السريع.

هبطا السلم. يسمع أم فاطمة تُتمتم خلفه مجدداً بلعناتٍ تصمُ السياسة، وتتأسى على سياسيين لا يجلبون لرؤوسِهم غير الصداع. يشترون مشاكلَ يُفترض هُم في غنى عنها ولا ينقلون لأهلهم غير العذابات اليومية والقلق الدائم.

من عتمة المطبخ الصغير الذي توجهت إليه أم فاطمة لإعداد الغداء، ومن مكانه في الغرفة حيث يتكىء على وسادة تاركاً ساقيه يأخذان امتدادهما للاسترخاء من طول انثنائهما في الدكان إذ الجلوس على كرسي طيلة ساعات الصباح يسبب احتقانهما بالدم سمعها تصرخ كحديث تظنُّه لا يصله إلا بهذه الوسيلة:

– طالما أنَّ الولد خرج فلأحدِثُكِ عمّا جرى.

قال:

– كنتُ في الدكان عندما حدثت جلبةٌ غير اعتيادية من الناس في السوق، وسمعنا من أفواه صبية يقولون أن الشرطة داهمت مقر اتحاد الشعب.

من عتمة المطبخ جاء صوتُها مؤيداً:

– صحيح.. أنا كنتُ هنا بالضبط، في المطبخ أُعدُّ لطبخةِ الغداء، وكانت فاطمة بالصدفة تغسل الصحون عندما سمِعت جلبةً، فنهضت مسرعةً وهي تخاطبني: يا أمي حركة غير اعتيادية في الزقاق. قلت يا حافظ يا حفيظ. مدّي برأسك وتأكدي. قد يكون صِبية نزقون يلعبون فيحدثون كما هم كلَّ يوم جلبةً إثر جلبة. غير أنها ردت عليَّ: لا يا أمي أرى رجالاً وشباباً يعدون خائفين كأنهم فعلوا شيئاً خطيراً.

اعتاد الناس في هذه المدينة المحكومة بالرتابة، المأسورة بالآلام أن يبصروا أموراً كثيرة تحدث؛ بعضها شجارات لأسباب لا أهمية لها يخلقها الفقر والبطالة فيصنع منها معارك يذهب جرّاؤها جرحى ودعاوى قضائية لا تنتهي فتتوتر أجواء المدينة ويروح العامّة يتناقلون الأخبار مضيفين عليها من الخيال سيناريو أوسع ورغبة إظهار الشهادة بوجودهم لحظة الحادث فتكبر الحادثة كما تكبر كرةُ الثلج المدفوعة من سفح جبلٍ باتجاه الوادي. وكم من رجالٍ سقطوا في مقهى وهم جالسون أو في السوق وهم يتبضَّعون بفعل تصفية حسابات لقرويين يتربصون لأعدائهم فلا يجدون الفرصة إلا في سوق المدينة أو شوارعها فيُطلق عليهم النار وسط أنظار الناس بسببِ ثأرٍ مُبيَّت ونوايا دفينة تنمو وتكبر في رؤوس طالبيه حتى لو استدعى ذلك عقداً أو عقوداً من السنين. ولقد أضافت التناحرات السياسية وظهور الأحزاب تضادّات وصدامات ومعارك لعلَّ آخرَها ما حدث العام الماضي من الهجوم

على مقهى البعثيين في الصوب الصغير والعبث بمحتوياتِه ونهبها ورمي بعض منها في الفرات الذي يطل عليه المقهى ما ولّد تشنجاتٍ وإرباكاً في أحياء المدينة جميعاً. وقبلها بأشهر لا تبرح ذاكرةَ الناس تلك التظاهرة العمّالية الحاشدة التي اخترقت سوق المدينة فووجهت برصاص السلطة وسقط خلالها احد الشباب صريعاً ثمناً للحرية التي كان يطالب بها.

استمرت أم فاطمة من مكانها في العتمة الدفينة تفوه كأنها تخلَّصت من ثقل وجود الشاب وشعورها أنْ لا مسؤولية على الكلام:

– ما أن هممتُ باستفهامها عن السبب حتى انقطع صوتُها ووجدتني وأنا أستدير خارجة من المطبخ بشاب لا يتعدى العشرين ينتصب إزائي شاحباً، حائراً يحاول النطق عن اعتذار لاقتحامه البيت أو رجاء لحمايته فيما كانت فاطمة جامدة في وقفتها، يتّشح وجهها بالخوف والذهول لهكذا مشهد لم يخطر في بالها. تطلعت إلي كأنها تتخلّى عن مسؤولية إدخاله أو أنها تعبّر عن شعورٍ بالذنب لأنها لم تربط جأشها وتمنعه. وعندما رأتني أتصرَّف ببرودٍ فأقول للشاب لا عليك يا ولدي، أنت في بيتك، هل رآك أحد وأنت تدخل أحسَّت بالطمأنينة وتقهقرت الصفرةُ من وجهها. أبصرتُ في عينيها دهشةً وإعجاباً لتصرف أمومي أقوم به تجاهها وحنو إنساني صوب الشاب. قلت له: لا عليك يا ولدي، تعال معي إلى فوق عندنا غرفة هي مرسم لزوجي سأخفيك فيه، وستكون في أمان.

دخَلت الغرفةَ ترفع صينيةً حَوت صحنَ رز وصحنَ مرق باميا ورغيفي خبز مع أناء خضروات جمعت فيه خليط من ورق الكرفس والرشاد والريحان وجذور الفجل. اجتمعا حول صينية الأكل بعد أن ندها على فاطمة، وافتقدا (جميل) ولدهما الذي يضمّه بيت الزوجية الآن حيث الجلسة الحميمية لم تكن لتكتمل بغير وجوده. هذا الافتقاد حصل كثيراً حين واصل دراسته في معهد الصناعة العالي في بغداد بعد إنهائه مرحلة الثانوية وتخرجه بعدها

ليعين في معمل سمنت السماوة.

– لحظة فاه الصبية عمّا يحدث لمقر اتحاد الشعب نهضتُ مسرعاً، واجتزت السوق وسط حديث المارة من المتسوّقين أو أصحاب الدكاكين وصولاً إلى المقر لأشهد بعيني ما يجري. فهكذا أفعال تعيدني إلى تلك الأعوام التي كان العسف يجري بشتى المستويات ومختلف الذرائع.

دفع لقمة الرز المخلوطة بمرق الباميا إلى فمه وانتظر ازدرادها قبل أن يكمل:

– رأيت النهب والسلب والهتك البشري. رأيت المُحرِّضين مَن كانوا قبل أيام يدفعون بأحاديثهم المشحونة بالكراهية إلى حدثٍ كهذا وسط شعور الناس بامتعاض لما يفعله هؤلاء الفضوليون الذين لا همَّ لهم سوى إثارة بلبلة لا حاجة للمدينة لها، ولا رغبة للناس في حدوثها.

– كُل يا رجلّ ! السياسة تهرب منك وأنت تلاحقها وتتشبث بأردانها.. السياسة في هذا البلد هباء. لا نفع فيها ومنها، بل ضرر. وفي كل زمان ومكان هناك العابثون المحرِّضون الفضوليون الذين لا ينامون إلا على آهات المتألمين، فما لكَ ووجع الرأس؟.. لقد آلمني ذلك الشاب وأنا أقرأ في عينيه سور الرعب. كان بريئاً مثلما كان ضائعاً لا يعرف ماذا يفعل. مؤكداً له أبٌ وأمٌّ قلقون عليه الآن سواء وصلهم أو لم يصل.

أكلَ على تفاصيل مرارةِ الحادث، وانتهى مع سيل الحسرات. حسرات تطيح بهيبة أيامٍ أرادها يوماً سجلاً للتحضّر وارتقاءً بالبلد نحو مصافي البهاء.

تهاجمنا الذكرى فتفتض بكارةَ نسيان عقود أردناها مطمورةً لا جمر لها، بل رماد بارد..

تهاجمنا الذكرى لأننا بغضناها لكونها مبعث ألم، ونكىء جراح.

ولأنها تاريخ مدفون تحت أديم الذاكرة فإنَّ ضربة أول معول للأحداث

يُظهرها جليةً واضحة، يتعالى بريقها شيئاً فأشياءً، لا تريد أن تتطمر إلى الأبد. وحده الموتُ المهيمن المختلس مَن يمتلك مجارف الحفر وإهالة تراب النسيان.

الذكرى تعود بجعفر، فيرى مشاهد الجوع وصور الفاقة وانتشار الأمراض وتفشي الجهل تطيح بهيبة اتزانه. صور يومية تمد لسانها ساخرةً من كونه انضم إلى حزبٍ كانت شعاراته أطول من ألسنة مؤسسيه وأقصر من تحقيق فعلهم.. البؤس يترجمه في وجوه النسوة صفرةً وشحوباً، وصدورهن يكتشفُها مستعمرات للسل الناهش بلا حدود.. الضياع يقرأُه على شفاه الشباب التائقين لعيشٍ يضمن لهم كرامةً تليق بفتوتهم الراهصة وسواعدهم المشحوذة بحب العمل، واندفاع مَن يريد أن يخلق.. الطفولة مستباحة والمدن صورة لإهمال مقصود وإطاحة بهيبةٍ تسعى لأن تنمو وتكبر وتزداد لتعبّر عن هويةٍ استقلالية رفضت المستعمر المُحتل يوماً فصارت تتمنّى عودته سنيناً لما يملكه من قدرٍ ولو ضئيل لا يملكه السياسي ابن الوطن الماسك لتقاليد المصائر؛ وجعفر المشحون بطاقةِ رغبةِ التغيير والانتقال من جزيرة الفقر إلى قارة الرفاهية كي يعيش هذا الشعب البريء حياة حرّة كريمة يجد نفسه يستعيد تلك الذكرى وقوةٌ خفية تقوده للاستذكار. فمع أولى طلائع فجر الأول من آب ١٩٣٥ كانت السيارة المشبّكة التي بمثابة سجن متنقّل تلتهم الطريق الترابي فتثير زوابع من غبارٍ طحيني يقتحم فضاءَ سجنهم المتحرك فتغيب وجوهُ الشيخ خوام وثمانية من السجناء كان جعفر ضمنهم. استعانوا بيشاميغهم لتفادي الغبار فكمَّموا أنوفهم وأحكموا إغلاق الأفواه. فقط هو ألأفندي بينهم. استل منديله من جيب البنطلون لاتقاء جنون هذا المهتاج الذي يؤمي بأنَّ ويلاً ينتظرهم.

كانوا سحبوه فجراً وسط جلبةٍ مقصودة تبرر لديهم كبر الفعل المتهمُ به واقتادوه إلى سيارة شرطة خضراء يعتلي ظهرها المكشوف على الهواء شرطي

يمسك رشاش "فيكرس". وفي حوضِها الداخلي يجلس شرطيان مدنيان يبدو أنهما شرطةٌ أمنيون حذرون من فعلٍ يتوجَّسونه سيبدر منه أو من جماعةٍ مسلحة ستترصد في الطريق لإطلاق سراحه مع أنه كان مُقيَّد اليدين والقدمين بأصفادٍ حديدية مُحكمة. غادرت السيارة السماوة لتقف عند مركز شرطة الرميثة حيث رأى هناك الشيخ خوام وصحبه مثله مُكبَّلين ومقيَّدين بعد أيام من قتالٍ شرس رمت الحكومةُ برئاسة ياسين الهاشمي ووزير دفاعه رشيد عالي الكيلاني بكل ثقلها العسكري لكأنها تجابه جيوشاً عدوَّةً جرّارة، فقُتل الكثير من الأبرياء الريفيين (*). لم تمر نصفُ ساعة إلا وكانت السيارة تنطلق بهم جميعاً. قيل أنهم يُنقَلون إلى بغداد ليمثلوا أمام محكمةٍ عُرفية كونهم دبَّروا مؤامرةً لقلب النظام الملكي ولن يكون الإعدامُ سوى عقوبة يسيرة ستكونُ ضمنَ عقوباتٍ تترتب على هولٍ ارتكبه المناهضون للحكومة الوطنية ونظامها الحضاري.

(*) كانت الشاعرة الفراتية حزينة لمقتل أبناء عشيرتها على يد الأخوة الأعداء. فاندفعت متألمة غاضبة، بل حانقة على ياسين الهاشمي رئيس الوزراء ووزير دفاعه رشيد عالي الكيلاني، متوعدةً تردد، وهي تلاحق الأبناء بعينيها يتساقطون صرعى على أرض أحبوها، ووطن اقسموا أن يكون لهم مدفناً، متفانين، مخلصين:

تـــونين يـــا روحـــي تـــونين ... مثل يوم (ابو صخيرة)١ تريدين
بيــه الصــبايه املطخــه بــالطين ... وجــر الــزلم جــر الجصاصــين
ولابــد نفجــس عيــون ياســين ... ونـــذبح رشـــيد وناخـــذ الـــدين
ونستقصـــل الواحـــد بخمســـين ... بـــدال الـــذي مـــاتوا امعرســـين
ابيـــوم الرميثـــة اوعجَّـــت البـــين ... ودخانهـــا ينشـــاف صـــوبين
حـــيهم عمـــامي المـــا بهـــم شـــين ... يحمـــاة يـــا ســـور الخـــواتين

١ (ابو صخيرة) نهر في قضاء الرميثة. وقعت فيه معركة بين العشائر والأتراك عام ١٨٨٠.

٢ (ينظر منشورات دار البيان، الحلقة (٣٠)، فنون الأدب الشعبي (الحلقة الرابعة)، بقلم علي الخاقاني، مطبعة الأزهر، بغداد ١٩٦٢، ص٧

الطريق متعثر، والمطبّات تتواصل يؤانسها الغبار العميم والسيارة السجن تجاهد مُقاوِمةً هذا البلاء الحاصل، تنحرف لتتفادى الهبوب الطحيني فتواجه ببقعة تثير زوابع طحينية اشد ثورة.

لم يكن خوام بملامح تشي بالتذمّر بل بصرامةٍ تُدين معتقليه ومعه جعفر وآخرون وجدوا أنفسهم يُزجّون بتهمةٍ عظيمةٍ اسمها التآمر. يرى في الشيخ خوّام الكبرياء رغم أمّيته، والصلادة رغم أصفاد تقيده، وابتسامة استهانة بحكام يقودون الحكومة قال عنهم: أنذال، أذيال الأجنبي.

يتفرَّس الشيخ في الوجوه المحشورة فيجدها تستلهم منه قوتَها ومقدرتها على امتصاص موثِّرات صدمة القادم. هُم يدركون ذلك، وقد قال يخاطبهم من بين فورة الغبار:

– "مثلما قلت لكم بالأمس سيحاولون ترهيبنا، وسيصدرون أحكاماً جائرة متكئين على أسيادهم. يظنون أنهم سيخيفوننا هؤلاء العبيد!

– أين سرحت؟

سحبته زكية من الرحيل الذاكراتي. أطلق حسرةً، جابهتها هي بـ:

– أشغلكَ هروبُ الشاب؟!.. أتمنيته ما زال يقبع في الغرفة لتزجَّ نفسَك في ورطةٍ مع الحكومة بسببه؟.. كُل يا رجل؟

– أتعرفين يا أم جميل؛ لقد أعادتني حادثة اليوم ومحنة الشاب إلى الثلاثينات.. إلى اعتقالي! أتذكرين؟.. أرى الناس هذا اليوم مثل تلك الأيام سريعي التقلّب على متحمّسين كانوا أنفسهم يحرضّونهم على الانتفاضة؛ حتى إذا احتدم الأمر انسحبوا تاركين المخدوعين عِرضة للعقاب.

– هذا هو حال العراق؟ ألم تتَّعظ من كلامٍ كنت تقول أنَّ جدتي ظلت

تلقنني به لأعوام؟!

يأتي على مرمى همٍّ، ويقف عند نُصب حزن...

يروح يتساءل: أيُّ رجلٍ هذا الذي سقط في هوّة الوهم منكسراً؟ وكيف خاض في وحل التيه مندفعاً لم يفقه توالي تحذيرات كانت الجدّة تسكبه في مسمع أعوامه حتى لكأنه أراد الوقوف موقف المناكفة معها، وسعى للإطاحة بـ: إيّاك! إيّاك... يا جعفر!.. إيُّ رجلٍ هذا الذي كان عليه أن يركبَ سفينةَ الفن ويُبحر إلى شمال الكرة الأرضية ليجد الفضاء الذي يستقبله ، والدنيا التي تبتهج لمَقدمِه كخلاّقٍ، بانٍ، مُرهَف؟!

كان عليه الاستعانة بإلياس مَخرجاً للعالم الجميل!.. كان على إلياس أن يدعوه أو يحفّزه على الأقل للانخراط في عالمٍ هو الأَولى بأن يعيشه استعانة بشعرٍ كان يسمعه من أبيه عن جّده يعدد مُحببات السفر كفوائد خمس يجنيها الراحل عن الديار يوم يتلمَّس أنَّ تينك الديار مجافية له لا تلبّي سيلَ حاجاته ولا تحقّق شيئاً من أمانيه.. كان أبوه يردد وهو يستمع فلا يأبه. ذلك أنه لم يضع في الحسبان خارطةَ التحرك خارج مدينته رغم أنه حفظَ الشعر بأبياته (أسفر ففي الأسفارِ خمسُ فوائدٍ). وها هي تعود، يتمتم بها فتستحيل خنجراً يطعن خاصرةَ هدوئه.

كانت السيارةُ السجنُ تقطع المسافات فتمرُّ بين بساتين وتعبر قناطر وخوّام يتفحَّص صحبه بعينين تبرقان ضوءً من شجاعة مختزنة تبدد مشاعرَ قلقٍ تأخذ طريقها إلى أعماقهم.

((كانت علاقتي بخوام ابتدأت من زيارته لي في الدائرة قادماً من الرميثة. أعلمني انه عرّج عليَّ بعدما قابل قائمقام السماوة وسمع أنني من المناهضين لإيقاف مراسيم التعازي السنوية وأنني معترض بشدة على إجراء الحكومة، وأنه يود اللقاء في ديوانه في الرميثة لاتخاذ إجراء حاسم تجاهها بمطالبتها بالتراجع عن هكذا فعلٍ يؤذي الناس ويبعدهم عن جنّة الله فكيف تُلغى تعازي

ابن بنت رسول الله.

طمأنته إلى أنني سأزوره في ديوانه، فالمكان الحكومي لا يفي الحديث في هكذا أمر يستدعي النقاش المُطوَّل وتداول الآراء ثم اتخاذ قرار يتفق عليه المتحاورون.

عصر ذلك اليوم استأجرتُ سيارةً تأخذني إلى الرميثة وفي ديوانه استقبلني الشيخ بالترحاب. قُدمت القهوة، وتبعها الشاي المُهيّل ووسط الحشد من الرجال احتواهم الديوان وتعالت التحيّات المُرحِّبة، تحدَّث الشيخ خوام بعدها، قائلاً:

– يا أخوتي حكومة ياسين الهاشمي تمادت في إذلال الناس بعد أن ضربت الوعود في تحسين حالة الفلاحين وتحقيق مطالبهم في بناء المدارس والمستوصفات الصحية. وانتم ترون أن الكثير من أهلنا يموتون لأبسط الأمراض ولا من يقدم لهم الرعاية الصحية والعلاج.

وجَّه نظراته إلى العيون التي كانت متصالبة على ما يقول، وما يقترح:

– واليوم يتجاوزون على مقدساتنا فيصدرون أمراً بإيقاف شعائرنا ومنعها، بل جعلوا من لا يلتزم يعرض نفسه لأقسى العقوبات.. ليتساءل أحدنا إذاً ما الفرق بين الإنكليزي المُحتل الذي ليس من ديننا ولم يجلب لنا غير قتل الناس بطائراته وبين هؤلاء المحسوبين على الإسلام ويريدون تدميرنا؟

توقَّف ليعرض تعاطفي معه في رفضه وإعلان احتجاجه واتخاذ قرار عصيان قبيلته وقيادة هذا العصيان بنفسه:

– بيننا ومنّا جعفر حسن درجال الموظف الذي من روح الحكومة ومن جسد الحزب القائد للسلطة يقف إلى جانبنا، وظنَّي أنه مستعد للوقوف معنا والانضمام إلى مطالبتنا بإسقاط الحكومة وإلغاء القرار الجائر الذي يمس حرمة المسلمين.

تركته يتحدث ويتحدث حتى إذا انتهى من كلامه وجاء الحديث لي،

خاطبته ومعه الجالسين:

– إنني معكم في مطالبتكم إيقاف تطبيق هذا القرار الذي احسبه جائراً لكني ليس معكم في طلب إسقاط الحكومة والوصول إلى العصيان ضدّها حتى يتحقق سقوطُها. نحن لا نريد أن تسقط حكومات لتأتي أخرى تعيد الجور على أهلنا بأسلوب آخر. إنني أفضل مطالبتها بالوسائل السلمية الحوارية أن تتراجع بعدما نقدم توضيحاتنا بأن قراراً كالذي أصدرته ليس من صالح الدولة، وإذا كانت الحكومة محقّة في منع ما ليس من صميم الدين. فعلى الأقل أن تؤجل مثل هكذا قرار يفرق أبناء البلد الواحد.. ثم هل انتهت كل مشاكل العراق حتى نصل إلى هذا الأمر فتتخذ الحكومة مثل هذا القرار الذي لا يُشم من رائحته إلا زرع بذور الطائفية وخلق مشاكلٍ الوطنُ في غنى عنها؟

نعم! كنت أريد أن تتغير الحال شيئاً فشيئاً لا تنتزع من عقول الناس انتزاعاً. فممارسة لطم الصدور بالأكف والضرب على الظهور بالسلاسل وهدر الدماء بضرب الرؤوس عادات متأصلة وإن جاءت مستوردة، ومثلما دخلت وانتشرت وتفشَّت عاماً بعد عام فإن إزالتها والانتهاء منها يتطلب جهداً كبيراً، ووعياً تنويرياً، وصبراً مدافاً بالتأني والتحمّل.

أبصرتُ ملامح الامتعاض ترتسم على وجه الشيخ وهمّته تتضاءل في كسبي وجعلي من إتباع رأيه، وأبصرته يترك الحديث للرجالات أصحاب الرأي الذي يعتد بهم وذوي الخبرة في أمور الناس. راحوا يتماوجون بين مؤيد له ومطالب بتخفيف اللهجة تجاه حكومة تحشد شرطتها وتعد جيشها لمواجهة كل مَن يتجاوز على القرار.

لم يفت على لقائنا هذا يوماً حتى تناهى خبر عصيان يقوده خوام كانت ابتداءاته حدوث "مظاهرة " جابت طرقات الرميثة وتجمعت أمام مبنى السراي تعلن العصيان؛ ما لبثت إن امتدت في اليوم التالي إلى السماوة . سمعت وأنا

وراء مكتبي في دائرة الري اطلاقات نارية دخل على إثرها فراش الدائرة يعلمني أن "مظاهرة" مسلحة تعبر الآن الجسر الخشبي من الصوب الصغير وأنها تتوجه إلى سراي المدينة لتسليم القائمقام قرار العصيان والمطالبة بإسقاط الحكومة.. أدركت أنَّ خوام اتخذ القرار ونفَّذه، وأنَّ العواقب لن تكون حسنة!)).

لا يدري جعفر كيف انتهى من تناول الغداء؛ فحادثةُ اليوم خلخلت حياته الروتينية اليومية.. وجاءته أم جميل بالشاي ارتشفه سريعاً واندفع إلى الفراش المُمدَّد أرضاً يرمي برأسه على الوسادة مستعيناً بوسنةٍ تأتي بها فترة القيلولة، وخبرٍ حملته أم جميل من أنَّ بعض المحرّضين ومعهم شرطيان يجوبون الأزقة القريبة ويطالبون بتفتيش البيوت بيتاً فبيتا. يسمعها تتمتم بكلمات الجزع وتوشك أن تطلق نحيباً على ما وردها من أخبار أن شبّاناً كثيرين اعتقلوا وإنهم يسامون العذاب من قبل رجال الأمن الذين كانت الأخبار تشير قبل أيام إلى توتر يشيع في المدينة وأن الأمور لن تمر دون أن تُسلب الإرادة وتُهرق الدماء. فالبلاد تجيش بالتناحرات والأزمة السياسية تمور والحكومة بدافعها الوطني المستقل لا تريد أن تسفك الدماء ولا ترغب في أن يتأزم الوضع بين أحزاب فتية قُدِّر لها أن ترى النور فلم تدرك معنى الحرية فراحت كل واحدة ترى بالآخر مناهضاً لمشاريعها ومحطماً لطموحاتها، تغذيها جهات خارجية معادية، تدفعها إلى مناهضة الحكم والعمل بما لديها من وسائل إلى الإطاحة به وتغييره.

كان جعفر صرف الأشهر الماضية يستقرىء الماثل فلا يجد ما يشير إلى أنها أزمات طفيفة ستزول كغيمة مارّة في سماء البلاد، ولم يتنامَ داخله شعور أن الأحزاب ستتجاوز بغضها وكراهيتها في ما بينها كقوى تتنافس بشرف ونزاهة ما جعله يوقِن أنَّ الزعيم عبد الكريم قاسم ألذي أراد للبلد الرخاء والازدهار لن يقدر على تحقيق مُناه، ولن يحقق ما وعد به الشعب. ذلك أن

الأعداء أقسى من أن يرحموا الطبقات المضطَهَدة، وأعتى من أن يوقفوا سيول أحقاد تتراغى وتجيش في نفوسهم. لذلك كان جعفر يخشى على وارد السلمان من أذى سيلحق به حين أكتشفه غب سقوط الملكية يسعى جاهداً لأن يُحقِّق للمحرومين بعضاً من حقوقهم مُجاهراً بأنَّ الشيوعيةَ هي خلاصهم، وليس لهم إلا أن يَزجّوا بوجودهم في حكم تقوده البلوريتاريا ويساندهم الفلاحون، أمّا الأنظمة الأخرى فليس إلا أنظمة تبغيهم مطايا يحملون على ظهورهم المنهكة ثروات ليست لهم. لذلك وقبل مداهمة المقر بأسبوع أغلق الدكان عصراً وانحدر في سوق الحدّادين حيث الطريق يقوده إلى بيت وارد.

طرق الباب فإذا بصديقه يطل كأنه كان في انتظاره. دخل البيت، ووجد جعفر نفسه بعد تناول قدح شاي يفتح حديثاً حسبه على قدر كبير من الأهمية:

– أنت على مقربةٍ من الشيوعيين، يا وارد وترصد تحرّكات الحكومة، كيف ترى الوضع هذه الأيام؟

سحب السلمان نَفَساً طويلاً من سيجارة "الجمهوري" التي كانت بين أصابعه قبل أن يجيب:

– لا أرى في الأفق ما ينم عن تجاوز ألازمة.. أبصر هناك قطيعة واسعة وكبيرة ستحدث بين الشيوعيين والحكومة.. ما حصل في الموصل وكركوك أزعج الزعيم وأظهر الشيوعيين مرتكبي أخطاء تاريخية لن تنسى مع أنني أبرر لهم في بعض الحالات الدفاع عن ثورة وجدوها تعينهم على الإفصاح عن آرائهم، هم الذين ظلوا مقموعين منذ إشهار تأسيس حزبهم علناً.

– لم آتِ إليك لأدخل في جدال عن الأخطاء والتبريرات؛ إنما جئت لأطلب منك أن تكون على حذر. فعهدي بك انك كنت وما زلت نقياً. وكلُّ

همّك أن ترى عراقاً يعيش أهلُه في نعيم وقد تخلَّص من مظاهر البؤس. لذا أرجو أن لا تندفع كثيراً.

تطلَّع السلمان في وجه جعفر كأنه ينتظر خلاصة القول، فنطق جعفر قبل أن يجعله يستفهم:

– مجتمعاتنا لم تخلع ثياب البداوة يا وارد، وسرعان ما سيتخلّون عنك في أزمةٍ قد تحصل لك مثلما تصرّفوا معي قبلَ خمساً وعشرين عاماً، وكنتَ أنت شاهداً على ذلك.

تلك الليلة شعر جعفر أنه أزاح همّاً كبيراً كان يجثم على صدره، فاعتزازه بوارد السلمان أقضَّ مضجعَ أيامه، وأراه أنه سيكون مُجحفاً بحقه إن لم يقدم على نصيحته، ويظهر إخلاصه في رغبة أن لا يصيبه مكروه، ردّاً على مواقف شجاعة وقفها معه في وقت تخلّى عنه الكثيرون يوماً ما.

منذ ذلك اليوم وحتى حدوث الهجوم على مقر الشيوعيين اكتشف جعفر أنَّ السلمان جعل يُضئِّل من اندفاعه ويكبح جموحه. يبدو أنه نظر إلى أسرةٍ ستضيع إن اعتقل وسُجِن، وأبصر مستقبلاً لن يكون له لو بقي يجاهد وسط بيئة تطفو على مراءات، ودجل.

_ "ذلك أفضل ما فعلت، يا أبا جميل" .. خاطبته أم جميل وهي تقدم له صينية العشاء "وارد السلمان يستحق أن تنصحه. وما ذهابك إلى بيته وتبصيره بواقع الحال إلا عملاً من عداد الشهامة. لقد وقف معك يوماً وأنت في سجن الخنَّاق فلم يجبن كما جبن الآخرون.".

(٢)

– لقد ألقي القبض على جعفر حسن درجال.

– مَن قال ذلك، يا شاكر حسّان؟!

– حديث المقاهي هذا الصباح، يا وارد. يقول جبّوري السائق أنه أقلّه إلى الرميثة بسيارته وهناك بقي لساعات يتحاور مع الشيخ خوّام.

– وبعد!

– وأنَّ خوّام بعد ثلاثة أيام أرسل إليه مبعوثاً التقى به في مكتبه بمقر حزب الاتحاد. ودار حديث عن ضرورة اشتراكه في العصيان، وأن جعفر كان متحمساً بشدة.

– أيعقل هذا؟!

– الأحاديث في المقهى ذهبت إلى ابعد من ذلك فقالت أن الشرطة داهمت بيت جعفر في منتصف الليل ووضعت يدها على بنادق وأعتدة خَبِّئت لتزويد العُصاة في السماوة.

– لا أصدق مطلقاً! جعفر ليس من أولئك الذين تصل بهم الحماسة إلى العصيان والخروج على الدولة؛ ثم أنه في حزب من أقطاب الحكومة فكيف يرتكب فعلاً كهذا؟!

– هذا ما تناقله الناس، يا وارد.

– هي مكيدة .. وهناك من وشى به بغير حق.

كانت ليلة ١٧ مايس ١٩٣٥ داكنة وكامدة وثقيلة وجعفر يجد نفسه خلف القضبان، مرميّاً على أرضية نضّارة السجن في مركز شرطة الخناق. لا يعرف لماذا دوهم بيته في تلك اللحظات الهادئة الساكنة وهو يغط بنومه وإلى جانبه زكية تضم بدفئها ابنهما "جميل" الذي مرَّ على ولادته ما يدنو من عام. اعتاد العودة من عمله مسرعاً ليرتشف من ضحكات الصغير البريئة وحركاته العنيفة وهو يهفو إليه ليرفعه ويضمه بين ذراعيه ليرتوي من حنانه الأبوي

واضمامته الروحية الغامرة. لا يدري لماذا ساقه جابر مفوض الشرطة الذي قبل ساعات كان يكن له الاحترام ويرى فيه صديقاً تُتحببُ عشرته، وتُمتدَح صداقته؛ ولماذا يحيطه شرطيان ما كانا ليجرؤا على فعل ذلك لولا الغل الدفين في صدور من وجَّههم لأداء أمر تملأه الغرابة، وتفيض من محيطه الدهشة.

يقطع الزقاق بين الشرطيين والمفوض يتقدم صامتاً. لا يجيب على استفهاماته في لحظات ذلك الليل البهيم سوى بـ: "لا ادري! كنت في خفارتي عندما رن هاتف متصرفية الديوانية ومدير أمنها يوجه أمره بإلقاء القبض عليك! لماذا.....؟ لا ادري.".

في زيارتها له في اليوم التالي حكت أمّه من وراء القضبان التي تحجزه عن سرقة حاجياته ومقتنياته، سواء تلك التي في مكتبه في الدائرة أو هاته التي في غرفته في مقر الحزب.

قالت: عندما سألنا عنها جاء الجواب أنْ لا أحد يعلم كيف اختفت، ولا من هي الأيدي التي امتدت.. السرقة يا ولدي خصلة متأصلة في نفوسنا منذ الأزل. السرقة عند أقوامنا صفة من صفات الرجولة أو صفحة من صفحات الفروسية.

ويتذكر جعفر جدَّته وكركراتها وتحذيراتها عن وجوب الاحتساب من المحيط القريب:

– لا تثق بمن حولك حتى وان طيّروا أمامَك عصافير المودة، وزغردوا لك بأفواه الوفاء.. أولئك الذين يهلّلون لطلعتك هُم مَن يكيدون لتحطيمك؛ والذين ينشرون إزاء ناظريك عسلَ الكلام هم مَن يلاحقونك بسكاكين تمزيقك.

تسحب نفساً بعد أن أرهقتها الحماسة:

– أمّا العامّة فلا رأي ثابت لديهم. إنهم يسيرون مع المد، وينسحبون مع الجزر.

يستعيد جوقةَ الذئاب ومجتمعَهم المحكوم بالدهاء والقوة والانقضاض على الذئب حالما يضعف أو يجُرح. تعود تلك الذئاب المخملية تتسلل من بين ثقوب جدران نظارة السجن كُتِّلت عليها تواريخُ سجناء خطّوا ما يساورهم من ألم وضيق، ويهبط بعضها من تشققاتٍ في السقف. تتجمَّع لتشكِّل حلقةً ترعبه بأنيابها النافرة وتكشيرتها الباعثة على انتظارِ حَيان الفرصة للانقضاض والنهش والتمزيق والأكل بشراهة وحشية تليق بمجتمع الذئاب البرية.

يستعيد مرأى ذلك الضيف الذي أُستقبل يوماً من قبل إحدى القبائل في خيمةٍ يراها المار تفتح باب الكرم، وتُجزل عطاءَ الضيافة كأفضل ما يُحكى عنها. ثلاثة أيام أستضيفَ مُعززاً مُكرَّماً. حتّى إذا ودَّعهم مثنياً على حسن صنيع يغور بجذوره الأبيّة إلى مكارم الأقوام في زمن العرب السحيق وضيافة حاتم الطائي الذي نحرَ فرسه كآخر ما يملك من أجل إكرام الضيف وإبقاء صفة الكرم طابعاً للعربي في بادية الحياة – أرسلوا مَن يقطع عليه الدرب ليجردونه من ماله وراحلته، ثم ليكملوا ظلام الفعل بقتله وتركِه نهشاً للوحوش.

فقط وارد السلمان مَن زار جعفر بن حسن درجال في سجنه..

بحضوره حضر المتنبي وهو يرفع ذراعه إثارةً لانتباه السجين وجعلها قرينةً لرفع عقيرته:

وفي الأحباب مختصٌّ بوجدٍ وآخر يدَّعي معه اشتراكا

إذا اشتبهت دموعٌ في خدودٍ تبيَّن مَن بكى مِمَّن تباكى

فمن بين القضبان المتوازية المتكرِّسة حاجزاً يعكس القبض على الحرية؛ مُجسِّداً فكرة الاستلاب تقدَّم وارد السلمان بعقاله المنتصب على رأسه كتاجِ عفّة، وعباءته " الجوخ " كما خيمة تضمُّ كياناً حييّاً، وصايته المانحة جسده متانةً كأنها هويةٌ تُفصِح عن قامة ناهضة لرجل رصين؛ ونعليه الجلديين

وهما يحملان ثقل الكياسة والأبهة والجود ويأخذانه صوبَ أعمال رجولية تترك أثراً حفرياً على جدار الشهامة.

يتَّجه إلى زنزانة الحبس، يقوده شرطي كان ينظر إليه بريبةٍ.

تقدَّم إلى القضبان الحاجزة بقلب الواثق، وملامح المتَّزن، وقامة الاعتداد. لم يُظهِر أسى؛ ولا عبَّر عن أسف.

ببسمةٍ جعلها تتسع لتغدو لقاءَ بهجةٍ وانسجام فاه:

– هذا اختبار الرجال يا جعفر.. الأفكار الصادقة في النفوس الواثقة دينٌ مفروض ومطلوب رغم ثقله. كان علي بن أبي طالب يردد وهو يلبّي حاجة أهله ومن يأتيه طلباً لأمر "لقد حملت الجندل والحديد فلم أرَ أثقل من الدَّين." وهو بهذا لا يقصد الدين المادي بالعملة النقدية فحسب بل الدين المعنوي الذي لا يعيره الآخرون اهتماماً ولا ينظرون إليه على أنه رسالة.

يقرأ السجين فيه لغة الواثق. يتأمله كما لو كان حكيماً واجه منعطفات والتواءات وتقلبات الحياة مثلما خَبِرَ يُسرَها وسرورَها وإقبالَها. عاقرَ فراسخ الألم مثلما اصطحب أمَّهات الفقر.

يجاهر بابتسامةٍ يدري السجين أنه يبغي من خلالها كبح جماح تيار التوتر حدسهُ يستبيح أعماقه. يضع كفَّه بحنوٍّ على كفّه القابضة على القضبان المتوازية الفاصلة بينهما.

يقول:

– اجعل عليَّ بن أبي طالب هدايةً لك في أمرك. فأنت وإيّاه اليوم ترددان قوله: (أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإنَّ الناس قد اجتمعوا على مائدةٍ شبعها قصير وجوعها طويل.). عرفتك يا جعفر شاباً تحب مدينتك وتعشق وطنك سالكاً طريق الهدى، وعرفت الناس لا همَّ لهم سوى الشبع القصير. وهذا ليس ذنباً يرتكبونه عمداً وإنما جهل يخوضون في رماله. شعبنا يحتاج إلى الكثير. لن ينقذه هؤلاء الساسة المترفون بل العمال

والفلاحون والمثقفون هم الأحق بقيادته.

كلامه أفعم قلب السجين جعفر بالجَلَد وأراه إنساناً ينطق ثقافةً ويتحدث كما لو كان قائداً.

قال وقد تفاقمت في قلبه مفردات الشكر، وازدحمت عند طرف لسانه حسرات أرادها كلمات تترجم له بهاء تصوراته:

– شكراً لك يا أخي، بكلامك هذا تمنحني دافع الصمود وتجعلني اشعر أن الدنيا لن تقلب؛ وما تخلو من الرجال الانقياء أمثالك... أقول لك صدقاً أننا رمينا بأنفسنا في بحيرة الوهم ببناء وطن على طول قامة أبنائه المتطلعين للبهاء، وكنا نتعفَّر بغبارِ أرضه التي أحببناها وأخلصنا لطينها وملحِها، لكنَّ القادمين من براري المصالح الذاتية والدهاء النفعي خدعوا الجميع بالشعارات وكنّا نظرنا إليهم على أنهم رجال صنعتهم المحن ليصنعوا على صفحات التاريخ مجد الوطن لكنهم سرقوا الأحلام الخضر والأماني العذبة واندفعوا يبنون لهم أمجاداً على حساب شقاء المسحوقين والمعذبين.

– نعم!.. قالها واثقاً، وأكمل.. ستُريك الأيامُ الأكثر.

تكررت زيارة وارد السلمان ثلاث مرّات قبل أن يتم نقل جعفر لينظم إلى خوام ورجالاته في المُعتَقَل المتنقِّل. ذلك الذي انتهى بهم إلى سجن مركز (الشوّاكة) في جانب الكرخ من بغداد حيث وصلوه عصراً ليجدوا شرطة المركز مُستَنفرين، حاملين أسلحة فهِمَ السجناء بعد أيام أنهم كانوا على أهبة الاستعداد لرميهم إن أبدوا عصيانا أو تصرفوا بعدائيةٍ فهم يخضعون كما عرفوا بعد ساعات لنظام عرفي أصدرته الحكومة في ١١ مايس من عامهم الذي هُم فيه ١٩٣٥. أنزلوهم من السيارة المشبَّكة يتقدَّمهم الشيخ خوام. قادهم أربعة من الشرطة المدججين بالسلاح إلى ردهة سجن اكتشفوه يعجُّ بالموقوفين.

– خوّام ابن عمّي عندنا! يا مرحباً.. يا مرحبا!

انطلق صوتٌ جهوري مرحِّباً بالشيخ خوام وسط بهت الشرطة واندهاش السجناء.. تفرّس الشيخ بصاحب الصوت فصاح مندهشاً:

– محمد صالح بحر العلوم!.. يا شاعر الجياع، ما الذي جاء بكَ إلى هنا؟

– ثورتُك!.. ولوعةُ المسحوقين وتضوّر المحرومين ندهت عليَّ. لقد صرختُ من هنا؛ من بغداد: أين حقّي؟ أريد أن نحقَّ الحق لا أن نتظاهر به ونتحدث باسمه وهو بعيد عنا.. صرخت من هنا أوافقك الثورة، يا شيخ.

تهللَّ وجهُ الشيخ وراح فمُه يسكب كلمات المديح متصفّحا فِعال آبائه التاريخية ووقوفهم المستمر مع المظلومين ومجاهرتهم بلا خشية بضرورة أن يتولى الحكم مَن هُم أهلٌ له.

_ ستكون إذاً شاعر الثورة.

– ولم لا؟! طالما أنها تنادي بإنصاف هذا الشعب المسحوق.

نهض السجناء من أماكنهم وهيئاتهم البائسة التي تُظهرهم في أشد حالات الإهمال. وقفوا باهتمام يتفرسون بالقادمين. تستقر نظراتهم على قوام الشيخ ودواخلهم يتعملق فيها سؤال: من يكون هذا الرجل الذي لا يبدو مظهره مثيراً للشك ولا نظراته نظرات مَن يؤتى بهم إلى السجن مجرمين؟.. مَن هذا الذي هيأته تشير إلى رصانته؟.. نظرات الدهشة انتقلت إلى باقي السجناء المجلوبين.

((وجدناهم يتحركون مندفعين يرتبون المكان ويعدّون مجلساً حاولوا أن يكون لائقاً بمقام القادمين. قال بحر العلوم يخاطبهم:

– هذا صوتُكم.. صوت المحرومين! هذا ضميرُكم ضميرُ المسروقةُ حقوقُهم. ما جاء إلى هنا إلا لأنه ناهض الظلم وصاح بأعلى صوته بإنصاف المقهورين.

توقف يمسح بنظراته عيون الذين ابدوا انتباهاً شديداً وبدوا كتلاميذ

ينصتون باهتمام إلى أستاذهم:

– كان يمكن أن يكون وزيراً أو نائباً في البرلمان أو متصرفاً في لواء من ألوية البلاد، لكنه أبى نيل هكذا مراكز وعيناه تبصران المسحوقين كما هم في سحقهم من قبل الأتراك والمستعمرين.. كان يمكن أن يتلقى المال ويجني المراتب له ولعشيرته بمجرد أن يضع يده بيد القافزين على كراسي السلطة وسارقيها. لكنه رجلٌ أصيل. وقف يطالب بحقوقِكم، بحقوقنا جميعاً، منادياً أن لا يأكل خيرات البلاد أولاد الساسة ومَن لا هم لهم إلا إشباع نزواتهم وتوجيه المراكز لأبنائهم وأحفادهم غير عابئين بنا نحن الذين نتشبث بالأرض ولا نحب غير العراق.

((انبثقت بواكيرُ ألقٍ في عيون السجناء، وطفحت رسائل اعتزاز بهذا القادم وأتباعه. استقبلنا تعاطفهم معنا، واهتمامهم بنا. ولم ننم تلك الليلة سوى على غيوم الترحاب، وأمطار الود أمطرونا بها من سماء أرواح نقية. حتى أن الأيام الخمسة التي صرفناها معهم في ردهة السجن موقوفين بانتظار إنجاز إجراءات محاكمتنا كانت أياماً للحميمية والود قرأنا كم هم بسطاءٌ وطيبون أبناء شعبنا: وكم هم مظلومين ومتهمين بقضايا لا تدنو من الجريمة وليس لها مساس بالفعل المشين سوى ارتكاب الفقر وعيش الحرمان.))

(٣)

ظلَّت السماوة كمدينةٍ نسيّاً منسيّاً في التدوينات التي تؤرّخ المدن، وما يمكن التعرّف عليها يوجد في دائرة الطابو كتضاريس جغرافية تحدد ألاماكن والمواقع على شكل أرقام وتسميات: (أم التلول والجلاجة) و(الخناق) و(القشلة)، و(بستان اليهود)، و(الخزاعل)، وأخرى تدوينات لا نصيّة محفورة في ذاكرةٍ جمعية تعتمد المنطوق الشفاهي المتجسِّد على ألسنة الكبار. هذان المصدران هو كل ما تُرِكَ عن السماوة. لذلك كانت المدينة مع بدايات القرن

العشرين لا تتعدّى سوراً يراه القادم من بعيد يحيط بهياكل بنائية متهالكة لبيوت كأنّها أقنان دجاج لا تتعدّى مساحةُ أكبرِها خمسين متراً مربعاً، ولا تجد غرفةً أو فناءً يمكن أن تقيسه بمقياس بناء يعكس حياة أناس يعيشون في بحبوحة أو حتى في حياة اعتيادية، بل بيوت شيدت كما لو كان يُراد منها أن تكون مآوي لأوقات يسيرة لا غير. وللناس في ذلك الحق. فهم لا يحيون سوى حياة اجتماعية راكدة ونظام اقتصادي بائس عليل. فلا ارتباط بمدن كبيرة لدول كبيرة تعيش التحضّر وتصرف الزمن في الرفاهية، ولا بلدة تتَّصف بالغنى بناء على مستهلكٍ غني يهمّه العيش الرغيد؛ بل مدينة جُلُّ عيشِها يعتمد على ما يدخلها من سكان الأرياف والبدو القادمين من البادية الجنوبية للتسوّق. ريفيون يحيون على سحائب فُقر تنقلهم من غمٍّ لآخر ومن كدرٍ لكدر، ومن مفاجأةٍ لأخرى، ومن تحسُّبٍ لتحسب. فهم على موعد مع الفيضان الذي يأتي به الفرات في ربيعيات الأعوام فَيُغرِق الزرع، ويطيح بهيبةِ المزارع، ويهدّ البيوت، وينفق المواشي وبذلك يصنع الخسائر المُدمرة ولا تعويضات ينتظرها المنكوبون من دولةٍ مركزُها بعيد في الاستانة وحكومتُها لا يهمّها سوى أن تجمع الجبايات والضرائب لتعيش في بذخ الحكم والدولة والجاه لذا يبقى الريف في حالة ضياعٍ دائم ويظل الناس يَحيون كما قش في مهب رياح عاتية تزورهم زيارة المواسم الماحقة.. بدوٌ يأتون من البراري القصيّة تحملهم جِمال ينوخون بها في مَناخةٍ أعدَّت لهذه المخلوقات داخل المدينة قريباً من السوق. يأتون بوجوهٍ ممصوصة لفحها هجيرُ الصحراء وصفّرها سوء التغذية، وبعثرت سموم الريح شوارِبَهم وشعَّثت لحاهم. يجيئون بمصاحبةِ نساء لهم طَمَرَ الخمارُ الأسود وجوههن ولم يسمح سوى لعيونهن بالنظر. الرجال يتوجهون إلى دكاكين تخصصّت باحتياجاتهم الشخصية: تبغ، وشاي، وسكر، وعطور هندية، وزيت زيتون يدعكون به شعورهم المعمولة جدائل يفخرون بإطالتها مثلما ينهمكون في شراء خيام مصنوعة من

الوبر الأسود والقِرب الكتانية منها للشرب الآدمي والمطاطية منها لجلب الماء من الآبار أو الغدران المنتشرة في البوادي للطهي ورواء الماشية فيما تتحرك النساء والجات السوق لينعمن بخثرة ظلّه وهواء فيئه البارد. تأخذهن الخطى عائمات على خفقةِ جناح فُضول ما تعرضه الدكاكين من بضائع غريبة عليهن مُعظمها لم يشهدنها أبداً ذلك أنهن لا يدركن المدينة إلا حلماً فحياة الكثير منهن تبدأ في الصحراء وتنتهي في الصحراء؛ وما وراء الصحراء عالمٌ مبهم يسمعن به ولم يشاهدنه. يتوجهن إلى سوق الصفّارين على هدي أسئلة ينثرنها كل خطوة أو خطوتين على مسامع مَن يرغبنَ أن يسألنه لسماع نبرة كلامه ومن أجل ألا تأخذهن أقدام التيه فيضِعنَ في دروب المدينة وأزقتها. في سوق الصفّارين يلجنَ سيمفونيةَ المطارق والمداخن المعدنية وتداهمهن روائحُ النحاس المتلظّي والمعروضات النحاسية والبقايا العتيقة المهملة المرمية في بطون الدكاكين تنتظر زمناً يعيدها عبر مراحل الصهر والتذويب والتصنيع إلى واجهات تُلفت الاهتمام والانتباه. يتطلعنَّ على ما تحتاجه ذائقاتهن من أدوات الطبخ والتعرّف على ما يعرضه الصفّارون من أوانٍ وقدور وصواني وجفاجير وملاعق وأباريق ومساخن نحاسية ومرشّاة عِطر وشمعدانات وكفوف مشرعة تتوسطها عين الحاسد مفتوحة على سعتها لتبيان أنَّ هذه العين ثقبت يد النبي لذا تبقى هذه الكف التي دائما ما يروجُ بيعها من شيئيات غرف البيوت تدعوك حين تنظر إليها إلى أن تردد: " قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد. "يعشن دوّامات النظر والتيه تفحّصاً لكف الصفّار وهي تنهال بمطرقة حديدية على الشرائح المعدنية فتطوّعُها وتصنع منها واحدةً من شيئيات تلتمع ببريق محمَّر كأنه بريق أفول الشمس في أفق الصحراء حين يبصرنه كلَّ يوم من أمام خيامهنَّ فيظنن الشمس تبكي بكاءً دموياً ؛ حتى إذا انتهين من ذلك دخلن على ما منَّين النفس به وما سمعن

ممن سبقهن في المجيء إلى المدينة من صويحباتهن البدويات، وبالذات إلى هذه الأماكن المليئة بالسحر والإدهاش. ينعطفن يساراً للوقوف أمام دكان غريب مثير تسيح فيه عتمة مُغلّفة بأسرارٍ وأحاجي مبعث أسئلة يلفّها الغموض. دكان موبوء بعطور فوضوية كأنها في شجار دائم مع الصمت الذي يشيع في جوفه كي تخرج منتفضةً لتترجَّل في انعطافةِ الدرب ثم تهبطُ ثلاثَ درجاتٍ لتتغلغل في السوق الكبير مطيحةً بصحو المتسوقين الجائبين أرضيته بحثاً عن حاجةٍ حضروا لأجل ابتياعها أو مرّوا مجرد مرورٍ عابر. دكان أُختزِنت شتى النباتات العشبية في جواريرِه الخشبية المصفوفة طوابق تبتدىء من مستوى العارضة الخشبية فاصلة البائع عن المشترين صعوداً إلى السقف الذي يستعين هذا البائع ببرميل متوسط الحجم لاعتلائه وصولاً إلى أعلى صف من الجوارير. أعشاب تطيب لها النفس علاجاً أو تحليقاً. سيقفن محمّلات بالفضول يتطلعنَّ إلى حلقات برونزية متدلية من وسط جوارير مهمتها سحب الجارور بإصبع رجل أربعيني يشاهدنه ألآن، هو خبير الأعشاب وبائع الأدوية العشبية الجافة المجلوبة من مناشىء متفاوتة بعضها محلية صُدِّرت إليه من شمال العراق بجباله الهائلة وغاباته الداكنة، أو من جنوبه حيث البصرةِ وأقصاها (الفاو) و(رأس البيشة)، وأخرى مستوردة من دول مجاورة، تركيا وإيران والشام واليمن، أو بعيدة نائية: الهند والصين وأذربيجان وتركمانستان شرقاً. ومن غابات أفريقيا وسواحلها العاجّة بالأشجار الكثيفة المتوَحشة غرباً والضّاجة بمختلف النباتات والورود والبذور العجيبة في تأثيرها العطري أو الدوائي. يسألنه عن محتويات الجوارير فضولاً عبر سؤال عن مادةٍ قلن أنهن نَسين اسمَها، فيروح بدافع بريق عيونهن الذي شعر أنه يخترق صدره وصولاً إلى القلب فيعوم هناك مرفرفاً في سمائه الهادئة. بريقَ فسَّره ألقَ فتيات جئنَ يتعرفنَ لا غير فصار يشير على كل جارور؛ يمد سبابة كفّه الأيمن يسحب الحلقة البرونزية فيتجاوب الجارور ويتناول حفنة

من بذور يفرشها على كفّه المصطبغة بصبغات أحدثها فعل خلطاتٍ لدهون ومعاجين وصوابين وأعشاب من أجل استخراج دواء بناء على " روشيته " بعث بها إليه الميرزا حسن طبيب المدينة الوحيد بيد مريض سحقه المرض فعللّه. ومن جارور آخر يتناول خلطة أعشاب قال أن اسمها ورد لسان الثور مع ورد البنفشة الكيلاني والزعتر والصخبر، تُعطى للمحمومين بتأثير البرد القارص. ومن ثالث يستخرج بذور الكرفس، ومن الرابع بذور الرشاد، ومن الخامس بذور الذرة الصفراء، ومن السادس بذور الذرة البيضاء، ومن السابع بذور القرنابيط، ومن الثامن بذور الخس، ومن التاسع بذور العدس، ومن العاشر بذور الماش. ثم تنتقل الكف إلى الطابق الأعلى فيستخرج من أول جارور بذور الخروع، ومن الثاني بذور عباد الشمس، ومن ثالث بذور الحبّة السوداء، ومن رابع فاحت رائحةٌ عرفنها رائحة النّوار، تلك الورود التي تشيع في الصحراء بعد كل زخّة مطر فينتشر في الفضاء ضوعُها. وعندما تأكله الجمال يكون بعرُها شذيّاً يومَ يشعلون نيرانهم ويكون البعر ذاك وقوداً بعد يباسه.

وعلى إيقاع فضولهن تروح عيونهنَّ تتعرف على المحتويات نظراً أو تساؤلاً ثم تحط عند قوارير زجاجية بعضها بنّي اللون وبعض أخر شفّاف حوت سوائلَ قال عنها الرجل الأربعيني المأسور ببريق عيونهن أنها لعمل العطور المفضلة لدى الناس أو مزج الزيوت التي تدخل في انسيابية الشعر، فهذه القارورة تحوي زيت السمسم، وهذه زيت الزيتون، وهذه زيت البصل. هنا زيت الخروع، وهنا زيت الحبة السوداء، وهنا زيت الحيّة، وهذه فيها زيت البابنج، وهذه القارورة فيها العطر الطيّار الذي ينبغي أن يدهن مع زيت الزيتون ليحتفظ به الشعر طويلاً. تستثيرهنَّ آخر عبارة يقولها فيبتعنَ منه كميةً وضعها في عبوة زجاجية كان سائلها بلون الزعفران، ثم يستدرنَ ليدخلن السوق الكبير عائدات إلى حيث الرجال المنتظرين عند بائعي التبغ والسكّر

أو قريباً من الجمال في المناخة.

بين الريفيين القادمين من قراهم والبدو التاركين الصحراء، وسكان المدينة الغالب عليهم الفقر كانت عجلة السوق الاقتصادية تدور وتدور.. تدور ببطء فتطمر الطموحات وتقضي على التطلعات، وشجاعٌ مَن مزَّق جدار الأعراف وانتهك الفقر وخرج إلى حلبة المدن البعيدة يصارع الحياة ويأتي بما لا تعرفه المدينة من وسائل حضرية تفتح عيون الراقدين على وسادة اليأس. ويوم استحدث سجن نقرة السلمان في الصحراء وصارت السماوة محطةً لنقل السجناء إلى ذلك الضياع الطامر والوجود المنسي أو حضور ذويهم قصد الزيارة قاطعين ١٦٠ كم من الرمال والأخاديد والمجاهيل من السماوة إلى النقرة محمولين بعربات الفورد القادرة على تجاوز مطبّات الرمال سرت سحابةُ انتعاش أخذت تمطُر تحسُّناً، ففُتِحت في المدينة المطاعمُ واستحدثت الفنادق. ساعد في ذلك زيادة الغرباء القادمين لأعمالٍ تخصّهم أو الذين ترمي بهم الحكومة موظفين مُعاقبين من رؤسائهم من مدنٍ بعيدة بعد أنْ كان الغريب الداخل إلى المدينة يحلُّ ضيفاً على الجميع في بيوت تستحيل دواوينَ استقبال مُرحِّبة. فاستحقَّت بفعل هذه التغييرات التي تُعد من مسبّبات حِراك الاقتصاد اسم مدينة، ونقل المارة فيها أو القاطنين لأجل العمل اسمها. ولم يعد الآخرون حين تقول لهم أنا من السماوة يسألونك مستفسرين أين تقع ؟ في الشمال أم في الجنوب؟!.. في الشرق أم في الغرب؟

(٤)

بعد أنْ تسللَّ إلى العقل هرجُ الصباح، ومرارةُ الفعل، وحكايةُ زكيّة عن الشاب الدخيل وذكريات الماضي البعيد نام جعفر نومَ قيلولةٍ مُربكة استحالت كوابيس وتقلّبات دفعته إلى النهوض قبل وقته المعهود الذي يصرفه كعادته يوميّاً.

خرج مُلاحَقاً بطلبِ زكيّة مَعرفة ما يجري في المدينة، وهل ما زالت الشرطة ومعهم الناقمون الموتورون يجوبون الأحياء والأزقة التي سلكها الفارّون دون أنْ تطالهم أيدي الشرطة، ورجته معرفة ما يدور بالسوق وما هو ردُّ فعلِ الناس هناك؛ لكأن دخول الشاب بيتهم أحدث زلزالاً في داخلها فجعلت تبدي قلقاً عليه وتوجّه عتباً له على تركهِ البيت وهروبه.

لم يكن الزقاق خالياً رغم شيوع الصمت في المكان؛ فقد أبصرَ المفوَّضَ يجلس على تخت جيء به من مقهى في السوق ووضِع في فم الزقاق في زاوية انحرافه لزقاق آخر ليكون بمقدور الشرطي الجالس مشاهدة حركة ما يحدث في الزقاقين وإلقاء القبض على مَن يشتبه به ويحسبه من غير سكانهما اعتماداً على دليل وضع ليوشي بالمتسللين الخارجين عن الدِّين. هكذا حُسِمت الإشاعة.. وهذا ما أُريدَ أن يكون سبباً للفتك ببعض من الشباب المنحدرين من عائلاتٍ تحيا تحت طائلة السحق والقهر.

يدخل السوق من فم الزقاق الذي تواجهه الدكاكين ويخترقه المارة.

الساعة الرابعة عصراً أقرب إلى ساعة ظهيرة. ذلك أنَّ الصيف لمّا يزل ينشر أشرعة حرارته، وسخونة لا يمكن تلافيها إلا في الشهر التاسع ونحن ما زلنا في الشهر الثامن من العام ١٩٥٩. الدكاكين تفتح أفواهها بمحتوياتٍ تخاطب المارة.

دكاكين لعطارة تتقدمها مصاطب تفصلها عن جوف الدكان وضِعت عليها قفف كحاويات تُصنع بفعل أيادٍ ماهرة من عيدان قصب الأهوار

تعرض رزّاً بأنواعه العنبر والأحمر والحويزاوي، وحاويات أخرى تعرض قمحاً وشعيراً وذرة بيضاء وبذور دخن أصفر لامع، وفي الداخل تتراكم أكياس خيش كخزين بضاعة يُحتمَل أن تُشترى جميعاً في أية لحظة يأتي فيها تاجر مسافر صباحاً ليحملها بعد الظهر بضاعة مُشترات ودكاكين تفرغ وقلوب أصحابها تطفو على غيمة سعادة البيع سريعاً والربح وفيراً.

دكاكين عطارة صُفَّت علب زيوت نباتية وحيوانية تدخل في الطبخ، وعلى الرفوف انتشرت لفائف الشموع وأسلاك تنظيف الصحون، وزجاجات الفوانيس والكازات، وعلب زجاجية حوت عصائر البرتقال وأخرى عصير العنب الأسود، وقناني (ماء الغريب) تعطى منها ملاعق صغيرة للرضيع تخلصاً من ألم غازات يسببها له حليب الرضاعة، وسكّر بأنواع مختلفة: مُكعبة وبلّورية وقناديل مخروطية صلبة ملفوفة بورقٍ ازرق يميِّز جودةَ الشركة المصنِّعة ذات العلامة التي تحمل فناراً متعالياً يبثُّ رأسُه ذو النوافذ المربعة نوراً بمثابة شعاع ينشر خيوطاً صفراء إلى البعيد وسط لون أزرق يمثل سماء مطلقة.

رأى أصحابَ الدكاكين بين منهمك في تلبية طلب تقدم به متسوق وآخر يجلس على محفّة انتظار. وجوم لا يمكن إخفاء مخالبه من قَسمات الوجوه. والخشية من القادم هاجس يومي ليس من اليسر أن يموت أو يتلاشى. قد يختفي لأيام لكنه يعاود الظهور لأسابيع. المدينة وسط هدير قلق مستديم تأتي عدواه من قلق أعظم يسود مدن البلاد جميعاً.. صحيح أن حكومة وطنية جمهورية جاءت على أعقاب سقوط حكومة مشبوهة ملكية إلا أنَّ الموقف لا يؤتمن، والصراعات في مجتمع أقرب إلى البداوة لا تبدو أن قاموسها يفرز مفردات للسماحة والانفتاح. فقبل أيام حصلت مجازر في الموصل، وقبلها في كركوك، والأحزاب تتصارع ليس على فكرٍ تستوعبه بل على كراهيةٍ بشكل إفرازات رعوية تُقر بالغزو منهجاً، وبانتهاك الحرمات

فوزاً.. إفرازات لغزارةِ قيحِها غَدت متجذِّرة في النفوس. كل يوم يتناهى إلى المسامع انتهاكات إنسانية ! حتى لتمنَّى غالبية الناس العودة إلى العهد الملكي رغم أن البلد يقوده حاكمٌ نقي أحب الوطن والشعب غير أنه يخطو على أرض تخفي تحتها وعليها مراءات لا تنتهي. هذا ما تُقرُّه الأفواه الهاتفة صِدقاً بحبّها للوطن، وتضمره النفوس التائقة إلى استقرار مستديم. وجعفر يسير في خثرةٍ في السوق أستطاع توصيف الموقف بأنه رغم الهدوء الحاصل اللحظة إلا أنه هدوء يشي بعواصف قادمة. وإذا جاء تحرك الحكومة اليوم لتضرب هذا وتوقف ذاك فان فعلها لا يعدو مسكّناً لمرض خطير اسمه الكراهية. كراهية تسببها جرثومة ضغينة دفينة مردّها الجهل في إدراك آلية العمل الحزبي التنظيمي المُجاهرة بحرية الأحزاب في التعبير عن رأيها بالطرق السلمية لا باليد البدوية.

يسحب المزلاج ويرفع "الكبنك". يضغط على زر إشعال الكهرباء فيدخل الدكان ويجلس على كرسيّه المعهود. يده تتجه إلى المذياع فتعلمه إذاعة بغداد بزيارة يقوم بها الزعيم عبد الكريم قاسم إلى (مدينة الثورة). المدينة التي وجَّه رعايتَه الخاصة لها فحوَّلها من أكواخٍ وصرائف إلى بيوتٍ تطل على شوارع مُنسَّقة هندسياً؛ أناسُها لأول مرة يشعرون بهويتهم الإنسانية. يدخل إلى محل خِبازة فيرى صورته كبيرةً مزججة مكتوب تحتها "فخامة الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم" بينما يلفت انتباهه صغر حجم عجينة ستستحيل قرص رغيف بعد قليل. يسأل الخباز "هل تحبني؟"؛ فيجيبه البائس: "وكيف لا، وأنتَ أعِدتَ لنا الكرامة!.". لحظتها يضحك الزعيم ضحكةً مبتورة، ويقول: "إذا كنتَ تحبني حقّاً فصغِّر الصورة (ويشير إلى صورته المزجَّة) وكبّر حجم العجينة".. يدير مؤشر المذياع على صوت العرب من القاهرة فيسمع برامَجها موجهة ضد الزعيم مطالبة شعب العراق بالعمل على الإطاحة به. وينتقل إلى إذاعة لندن فتشير نشرتُها الإخبارية إلى نيّة أمريكا صناعة قنبلة

هيدروجينية تذيب المدن وتمحو الجغرافية كردٍّ على محاولات الروس المحمومة في إنتاج اكبر عدد من القنابل الذرية.

تمرُّ من أمامِه دوريةٌ راجلة لشرطيين يحملان الهراوات وفي حزاميهما قابضات الأيدي (كلبجات) وهما في حالة استعداد لتلقي خبر يأتي به أحد الموتورين ليوشي بشيوعي متخفٍّ ينبغي إلقاء القبض عليه أو لحاجة ضابط إلى مال يطعم جيوبه الجائعة. لم يكن ضباط الأمن والمفوضون وحتى الشرطة يغيظهم نَفَس الشيوعية، ولا تحسسوا نظرات الشيوعيين، لكنَّ خمرةً يُترعون بطونهم بها ليلاً سواء في نادي الموظفين أو في عتمات بيوتهم؛ وقماراً يلعبونه على طاولات النادي أو في غرف ضيوف بيوت رواد صحاب تتطلَّب استلاب المال، لأن المال على هاتيك الصخرتين – الخمرة والقمار – لا بدَّ أن يعوَّض.. كيف؟... يجلس ضابط الأمن بملابسه المدنية أو ضابط الشرطة ببدلته الرسمية والصداع ينقر رأسه جراء " عَرق " الليلة الفائتة وانزعاج من خسارة في ورقِ القمار. ينده على الشرطي في قلم الإدارة. يطلب منه ملفات الشيوعيين أو مَن عليهم شبهات سياسية.. يقلّب الملفات.. يعزل ثلاث أو أربع منها.. ينده على شرطيّه المنتصب عند باب مكتبه، يأمره بتبليغ شرطة متابعة الدعاوى بإلقاء القبض على فلان، وفلان، وفلان ممّن يعرف الضابط المهزوم في القمار أو المسلوب من فتاة الخمر أن لدّيهم قدرة إفراغ الجيوب..

يتحرك الشرطة..

الشرطة يتحركون..

يسحبون الأول من دكانه، والآخر من مقهى يجلس على احد تخوتها مع صحب له يتداولون الأحاديث، وثالث يحدث مروره في السوق. يؤخذ الثلاثة من أمام الأنظار، ويساقون ليودعوا في نظارة السجن.. يعلمهم الشرطي المنتصب عند باب الضابط أن برقية مستعجلة جاءت من مديرية الأمن في

العاصمة تأمر باعتقالهم ونقلهم إلى سجن الحلّة أو الكوت أو حتى نقرة السلمان بسبب نشاطهم السياسي الخطير المعادي للدولة... الموقوفون يُقسمون أن لا نشاط لديهم. يسألهم": "أتقولون الصدق؟.. إذا كان الأمر كذلك سأكلم الضابط علّه يتجاهل أمر البرقية ويطلق سراحكم. ".. لم يكد الثلاثة يعلنون الفرح، ويساورهم الأمل، ويشيدون بُحسن فعل شرطيٍّ ظنوه ملاكاً رشقهم بعبارة (حرّكوا أيديكُم)؛ مصطلح يفك شفرة المعرفة لدى المستمع فيفهم أن عليه أن يقدم المال رشوةً مُغلَّفة بمنديل الفكاهة. فيفرغ الذين خلف القضبان جيوبهم.. يستلمها الشرطي..

الشرطي يستلمها..

ويتحرك على إيقاع وعد ينثره على مسمعهم: " سأكلم الضابط، فهو طيّب القلب، رحيم، دائم التعاطف مع السياسيين، ولكن يبغض السارقين والشقاوات والقتلة والمشبوهين وآكلي أموال الناس بغير حق. يقول عنكم وعن أمثالكم بسطاء أبرياء لا يستحقون الاضطهاد. "... غب لحظات يبزغ من عمق غرفة الضابط، راسماً ابتسامة ود وكلام من مثل: " خلاص انتهت! " أو " أنتم محظوظون! " أو " الضابط اليوم بمزاج منفتح ميّه، ميّه.. كلمة واحدة وأقنعته ببراءتكم . ".. يقرأ صحيفة عدم التصديق في وجوهِهم أو يمسك غيوم الدهشة في فضاء عيونهم، فيفوه: " صدّقوني يا أخوتي، سيمزق برقيات اعتقالكم.. هيّا. ". وقبل أن يدفع بالمفتاح في قفل الباب الحديدي ذي القضبان الطولية العمودية، يطلق مفردات التحذير: " إيّاكم وإفشاء موضوع خدمتي لكم، أو التحدث عن إكرامية أهديتموها لي.. سينتقم منّي الضابط الطيب الشريف النزيه.. سأتحطم وتنهار عائلتي! ".. يسحب الباب انفتاحاً، ويجد الثلاثة أنفسَهم أحراراً طلقاء... وهناك في الغرفة، وراء المكتب الساجي تتحرك أنامل الضابط تعدُّ نقوداً أفرغتها الجيوب.

صورة الشرطيين والكلبجات تهتز في حزاميهما تعيد جعفر حسن درجال

إلى رهبة الحكومة؛ إلى الحقوق المهدورة؛ إلى المعاناة المتجسِّدة جبلاً على صدور التعساء لتضيق عليهم أنفاس الهناء، إلى الهم اليومي الذي يعيشه الإنسان الجنوبي حيث الكد والكمد كُتبا عليه، وأُجْبِرَ على الصمت والخنوع.

((كان فناء المحكمة الذي وجدنا أنفسنا نُساق إليها مُعتماً. ينتصب الحاكم وراء منضدةٍ مستطيلة داكنة مرتدياً وشاحاً اسود / يماثله في الملبس الرجلان الجالسان على جانبيه. فوقهم على الجدار ارتفعت صورةٌ مزججَّة للملك غازي بوجهِه الوديع الشاحب وبدلته الكاكية المتواضعة. فجأة دوّى من خلفنا صوت ارتفع جهورياً وصارخاً يعلن: " محكمة! ".. نقف في قفص الاتهام، وخلفنا شرطيان. على يسارنا منضدة تشبه منضدة الحاكم انتصبَ خلفها رجلٌ يرتدي وشاحاً اسود كالذي يرتديه الحاكم ويضع شريطاً أخضر على صدره يمتد من أعلى الكتف الأيسر هبوطاً تحت ذراعه الأيمن . محامونا اقتربوا منّا؛ أشاروا علينا أن نكون هادئين لا أن ننفعل عندما يتحدث ذو الشريط الأخضر " أنه لسان الادعاء العام " قال احدهم " سيطالب بإنزال أقصى وأقسى العقوبات بحقكم، وسيتهمكم بخيانة الوطن والعمل على إحداث عصيان يحفّز على انقلاب يطيح بالحكومة. لا تنفعلوا لكلامه، ولا تقاطعوه. ".. تلك اللحظة وددتُ لو أني أمسك فرشاتي وأمامي قماشة الرسم. لو أنَّ بيدي قلماً وورقة – على الأقل – لقلتُ للقلب المنقبض ارسم بانوراما عسَفِكَ، ودوّن بالصورة هذا التجنّي. ازرع في جبهة الورقة تراثَ أمةٍ لم تعرف يوماً أنها ركبت سفينة التجلّي مبحرة في عرض فضاء المسرّة. ولا هي رفلت على خمائل الهناء.. فقط ظلم، وقسر، وذُل، وتقهقر، وانحطاط، وحكام لا تعرف الرحمة، وحق لا وجود له ولا أثر.. لقلت اكتب أن تاريخنا وصمة عار سوداء على جبين الأرض.. وددتُ لو رسمت اللوحة المُجسِّدة لوجودنا؛ حتماً ستقتصر على اللون الأسود والرمادي.

ردد الحاكم أسماءنا واحداً بعد الآخر مبتدئاً بالشيخ خوام: " أنت متَّهم

بالخيانة والعمل على إسقاط الحكومة، وأعلنت عصيان وحرضت العشائر للانضمام إليك.. نظمتَ تظاهرات مسلحة عمّت السماوة ومعها الرميثة. بيتك وبيوت المتهمين معك جعلتموها مخابىء للأسلحة الممنوع تداولها.. كانت لديكم خططٌ للهجوم على المخافر ومراكز الحكومة في الاقضية والنواحي.. هل أنت بعد كل هذا بريء أم تعترف بما سمعت؟ ".. الغريب أن الحاكم لم يشر إلى توجهات الحكومة في منع الشعائر الدينية، بل جعل أسئلته مركزة على العصيان وحيازة الأسلحة والتحريض الذي يتوجه للإطاحة بالدولة وهذا بحد ذاته جريمة لا تغتفر.))

يأتي صوتٌ يلعلع من عمقِ السوق فتشرئب الأعناق وتتوجَّه الأنظار متطلعة إلى مَن ينتهك حرمة الصفاء في مثلِ هكذا وقت عادةً ما يشهد حركةً ضعيفة وهدوء مُشيع قبل أن تبتدئ حركة ساعات العصر. يخرج حاج فضالة بائع المفروشات القطنية من أغطيةٍ ولحف ووسائد مندفعاً من عمق دكانه الغارق في عتمة لا يصله ضوء سوى القادم من كوّة في السقف تسمح بدخول شريط يشيع في المكان فيمنح بقعة يستغلها لندفِ وسادة أو خياطة لحاف تاركاً الجرذان تسوح بين بالات القطن واللفائف. ويترك جبّار سريح ماكنةَ الخياطة ناهضاً ليستطلع مصدرَ الصوت كفضولٍ اعتاد عليه ليكون حديث جلساء يصرفون الوقت معه في دكّانه ويستأنس بوجودهم بينما ينهض سيد رحيم بائع الخضروات، يعبر قِفاف بضاعتِه ليبادر بالاستفهام:

– ها! ما الذي يجري، يا درويش

بصوتٍ يقرب إلى صوتٍ نسائي، وتعبير ينم عن عمل بطولي مزحوم بدافع تشفّي، يصيح:

– الشرطة ألقت القبض على سالم، دبّاغ الجلود. ظهر هذا الخنفساء شيوعياً خطيراً كان واجبه يوم أمس حماية جحرِهم الوسخ.

وبلسان التشفي راح يُزيد:

– كان يمثِّل الحمَل الوديع وكنّا نتعطَّف عليه وندفع أجورَ شايه لمرات ومرات نحن في حزبنا الديمقراطي، ولم ندرِ أنه من هؤلاء الازبال العالية، الشيوعيين.

يصمت قليلاً قبل أن ينطلق صارخاً:

– لا يهدأ للحكومةِ بالٌ حتى يقع وارد السلمان في شباكها.

ورود اسم وارد على لسان درويش أحدث صعقةً في رأس جعفر، فنهض كمن صُدِم من انفجار هزَّ كيانه.. اندفع خارج الدكان يهتف حانقاً:

– كيف تتجرأ على ترديد اسم وارد؟ هل تريدون أن تخلطوا الدم بالماء؟ اتق الله، يا درويش! مَن حرَّضك على جلب اسم وارد مع أسماء تبغي اتهامَها زوراً.

حدج جعفرَ بنظرةٍ استنكار تنتهي بخشية من شجاعته في الوقوف بوجهه:

– ليس أنا الذي يقول، بل الناس يا أبا جميل؟

– مَن مِن الناس قالها.. لم اسمعها إلا من فمك؟ لماذا تُدخل الناس في أمرٍ لم يقولوه؟

عاد حاج فضالة إلى عمق دكانه ليُكمل ندافة وسادة كان عل وشك الانتهاء منها، ورجع جبار سريح إلى حضن ماكنته فانطلق هديرُها متواصلاً، واتخذ سيد رحيم مكانَه خلف خضرواته مُدمدِماً بينما تحرك الناس كلٌّ إلى وجهته بعدما توقفوا يستطلعون بسمع الفضول ما يقوله صاحب الصوت الأنثوي.

المشهد أثار غيظ جعفر الذي يعرف درويش متزلِّفاً للسلطة المحلية ولمفوض الأمن عِجرم دوخان الذي يمثلها.. عِجرم وجدها فرصةً للفت انتباه الناس في المدينة إليه لتحقيق مآربه في الرشاوي وابتزاز المهربين الناشطين في تهريب المشروبات الروحية إلى السعودية عبر الصحراء وجلب السجائر المُهرَّبة من هناك بأنواعها الـ(كريفن) والـ (روثمن) والـ (دنهيل) و(الكَمِل)

إضافة إلى عطور الـ (ريف دور) والـ (بروت) كذلك القمصان والملابس الداخلية، وبالأخص تلك التي تحمل كلمات وأرقام لاتينية يرغب الشباب في ارتدائها وتمنع الحكومة استيرادها فتكون من عِداد الأمنيات في الحصول عليها والتباهي بلبسها.

تجرؤ درويش على مسِّ وارد السمان أثار حنق جعفر . وارد الذي يحسبه جعفر مَغموساً بعسل النقاء، ابن هذه المدينة المسحوقة. يشعر بآلامها فيتألم، ويتعذب لعذابها فيخرج على الخطأ شاهراً سيف لسانه وداعياً إلى إنصاف المحرومين وإعادة حقِّ المسلوبين..

– يأتي هذا المتحذلق ذو الصوت الأنثوي ليحرّض على توجيه الأذى لوارد السلمان! كيف يحدث هذا؟! " ينطلق احتجاج جعفر جهورياً. وصل إلى مسامع الجيران فلم يجارِه احد أو يؤيده.. جميعهم لاذوا بالصمت كأنهم لم يسمعوا ما قال.

" أُحبُّ شعبي!.. كان وارد يقول.. أحبُّ وطني!.. هذا الوطن ومعه الشعب لم يذق طعمَ الهناء مُذ فتح التاريخ صفحاته، ودوّن أفعاله، ورسم وجوده. شعب لا يعيش إلا على ترنيمةِ براءة؛ ووطن لا يهوى إلا الانقياء يرفلون على صدره الحنون. لكن ثمّة أذناب بشرية لا يُرضيها ذلك لذا تراهم، يا جعفر يسعون جاهدين لإطفاء نوره حتى لو تحالفوا مع الشياطين. يندفعون لوأد كل فتاة حلم تمنحه الأملَ في رغدةِ عيش حتى لو تطلَّب ارتكاب دناءة الأفعال.... ألم يجرّوك إلى مِنصة الإعدام عندما افتروا عليك فعدّوك خائناً؟ هل تساءلوا بضميرِ الشرفاء لحظةً: إذا كان جعفر حسن درجال خائناً فمن هو المواطن الشريف؟ ما الذي فعلته غير أنك لم تجارِهم في غيهم السياسي ومساراتهم البدوية، وطمعهم الدنيوي؟"

لم يجارِ جعفر رأي السلمان واندفاعه عندما مرَّت الأعوام واكتشفه يحمل فكرةَ الشيوعية عند تسللِّها إلى العراق، لكنه لم يعترض عندما عرف أنه صار

عضواً في الحزب الشيوعي. كان يسمع السلمان يجاهر بضرورةِ أن يقود العمالُ والفلاحون العراقَ لأنهم ممثِّلوه الحقيقيون اعتماداً على نسبتهم الكبرى في الوطن، والحتمية التاريخية تدل على أنهم سيقودون العالم نحو بناء أممية اشتراكية تنقلهم في النهاية إلى شيوعية تبني مجتمعاً عالمياً سعيداً مرفهاً ينتفي فيه الاستغلال ويعم مبدأ تكاتف الفرص.

كلامُه الذي كان يردده دائماً أمام جعفر ويثقف من خلاله البسطاء من الناس مبعثَ شعور أنه يخوض في طوباوية جارفة وخيال لا يجب أن يتحدث به، هو الرجل الذي لا يمتلك من الأفكار الشيوعية ذات الفلسفة العسيرة غير مصطلحات آلية صعبة يغلب عليها التعقيد وتبدو جامدة، غير مفهومة. يسمعها ممَّن يقودونه، مصحوبة ببواعث تأجج خيال لا يمت إلى الواقع بشيء. ورغم ذلك يبقى الحلم بالأجمل ديدن الإنسان المتطلع إلى آفاق النور. لذلك عندما انطلق صوت ذلك الموتور للطعن به شعر جعفر بالخوف عليه يوازيه شعور بالشفقة. فوارد أرقٌّ من أن تطال مُعصميه القابضاتُ الحديدية، وأبعد من أن يُساء إليه في مدينة أحبَّها بصدق.

(٥)

كان قرارُ الحكم بمثابة صدمةٍ للمتهمين وصاعقة نزلت على رأس جعفر!

لمَ يحدث كل هذا الجور؟.. وما الذي يدفع سلطة ارتقت على أصواتهم فراحت تريهم العذاب وتتنكَّر لرضا أغدقوه عليها؟!.. ولماذا يندفع القاضي بقراءة أحكام الإعدام دون رحمة سوى ادعائه أنه ينفذ قانوناً موضوعاً بأناس ارتكبوا جرماً فحقَّ عليهم القصاص.

كان يوم ٣٠ حزيران ١٩٣٥ يوم الشعور بظلم صاعق أحسوا أنه وقع عليهم. سينفذ فيهم الحكم خلال ثلاثين يوماً. والأدهى من ذلك جُعل تنفيذ الحكم في مدينةٍ نائية لن يشاهدهم فيها أهل ولا أحباب.

اختاروا لهم (الموصل) ثكنةً عسكرية يُساقون منها هُم المحكومون عرفياً ليتم إعدامهم.

لهذا لم يمر يومٌ واحد حتى قادتهم ليلاً سيارة قفص، كتلك التي نقلتهم من السماوة إلى بغداد. سارت بهم قاطعة شوارع قليلة تضيئها مصابيح باهتة نصب بعض الباعة مصاطب لبيع السجائر والحلويات فيما مارة يعبرون الطرق بتثاقلٍ واضح خارجين من مَحلات مُنارة سمعوا محمد صالح يتمتم معلقاً:

– " وطنٌ لم يؤسسوا فيه غير البارات وبيوت الدعارة! ".

فانتفضت تساؤلاتهم الدهشة:

– ماذا تقصد؟

– الم تبصروا هذه البهرجة والأنوار المتفجِّرة من بطون المحلات؟

– نعم! وماذا بها؟

– لا بدَّ أنكم خمنتموها مقاهيَ أو مطاعم، أو محلات لبيع الملابس، أو دكاكين عطارة، أو مساجد تستقبل المصلين ليلاً!

– .....!

– إنها بارات وملاهي لاصطياد المغفَّلين من الفقراء والماجنين من أبناء الأغنياء.

كانت لديهم استفهامات يبغون طرحها.

عند محطة القطار اتخذت السيارة السجن طريقاً قادهم صوب مركز شرطة يبدو انه خاص بالسجناء المقرر نقلهم إلى مدنٍ أخرى أو بأولئك الذين يؤتى بهم ليرقدوا ليلةً قبل أن تتسلَّمهم مراكز الشرطة المنتشرة في العاصمة.

أنزلوهم فرادى والسلاسل بأرجلهم، وفي معاصمهم القيود .

سادت حركة غير اعتيادية من قبل الشرطة في المركز.. والمركز لم يكن سوى رواق طويل مُعتم يضم غرفةً كتب على بابها (مدير المركز) وأخرى

(قلم المركز) بينما جرّوهم إلى غرفة السجن الكائنة في نهاية الرواق. غرفة بمساحة صغيرة جداً لا تتعدى المترين مربع عرضاً وطولاً وقد أفرغت كما يبدو لتحتويهم جميعاً، هُم الذين بلغ عددهم تسعة أفراد بعد أن ضمّوا معهم متهمين اثنين حُكِما بالإعدام لتمرُّدِهما على السلطة في لواء المنتفك / الناصرية بنفس وقت تحرك الشيخ خوّام ورفضه للقرارت الجائرة \=

لم تمض غير ساعة حين حدثت دربكة عند باب غرفة توقيفهم وفتح احدُ الشرطة الباب ذا القضبان الحديدية. انتصب ضابط يحمل نجمةً واحدة على كتفه عرفوا في ما بعد أنه مأمور المركز. تطلّع في وجوهِهم ثم راح يردد أسماءهم المدوَّنة في ملف يحمله، موجِّهاً أمره إلى عدد من الشرطة المدججَّين بالسلاح لسوقهم إلى عربة وجدوها بمثابة سجن آخر، حتى أن الشاعر محمد صالح ردَّ متهكِّماً يخاطب شرطياً بدا شاحباً وبملامح أظهرت حياداً على عكس ما يُظهره الشرطة الآخرون من صرامة وجَلَف:

– كم هي منظَّمة وحاذقة حكومتنا في إعداد السجون وتقييد الحريات بينما فوضوية وعابثة في تحقيق مرادات الشعب.. أين الحقوق.. "أين حقّي؟!".

الشرطي لم يُجب. استمر محتفظاً بملامح الحيادية وعلامات شحوب تهتف على وجهه الضامر. لم يستبدلها إلا عندما أصعدوهم إلى عربة القطار السجن، أبصروا يدَه ترتفع تلوِّح لهم كأنه كان يتعاطف معهم.. تلك اللحظة هتف به محمد صالح:

– انتظرونا، سيأتي اليوم الذي نعيد لكم كرامتكم فلا نجعلكم العصا التي تذيق شعبنا الهوان.

ضحك الشيخ خوّام للكلام:

– أنت متفائل، يا محمد!.. إلا تعرف انك مُساق للموت؟

– الموتُ حياتُنا التي ستلاحق أولئك الأوغاد وتعيد للشرطةِ المساكين فهم

أننا لسنا أعداءَ الوطن.. الأعداء والمجرمون هُم قادته الأُجراء، لاعقو صحون المستعمرين الدخلاء، وما نحن إلا مشاعل ننير دروب الحرية.

كلامه الممزوج بروح الدعابة والتحدي خفف من غلواء الألم الفائر في دواخلهم والنيران المتعالية وسط قلوبهم. أحس جعفر أن وجود محمد صالح معهم في السجن بدَّدَ الكثير من الأفكار الرمادية التي كانت تتبثق في الرأس ولساعات ثقيلة تتمطى وتطول. فكلما لمح أحدهم يرحل بزورق الأفكار قطعَ عليه الرحلة المؤلِمة معيداً إياه إلى عالم اليقظة، يزيّنه بالنكات والحكايات الكوميدية فيجعل النزلاء يضحكون، ويرون في الحياة بطولها وعرضها رحلة لا يجب أن يقضونها بالكَمد والحسرة بل بالاغتراف قدر ما يستطيعون من سرورها ومفاتنها وضحكها وغنجها. ويوم قُرِءَ عليهم الحكمَ الجائر بالموت وقفَ يلقي أشعاراً تُمجِّد النور وترفض تكريس الظلام فجعلهم يتقبّلون مصيراً رُسمَ لهم حتى وإن كان جائراً.."المهم أن لا نتقبل رضوخاً ذليلاً لمشيئتهم"؛ هكذا كان يقول.

في الساعة الثامنة مساءً غادر القطار المحطة، تضمّهم العربة الحديدية ونوافذ مشبَّكة بقضبان كقضبان سجنهم الذي جُلِبوا منه مُساقين كما لو خُطِّطَ لهم أن يلفظوا الأنفاس فيها قبل وصولهم إلى (الموصل) وتنفيذ حكم الموت فيهم.

كانوا يسمعون هديرَ الماكنة في المقدمة ينتهك سكون الليل ويخترق أجواءَ الأرياف الجاثم عليها صمت كأنه صمت الأموات. لم يكن هناك غير بصيص ضوء يبصرونه من بعيد يتكرر أو مجموعة أضواء صفراء فيدركون أنها لمدنٍ يتوقف عندها القطار قليلاً قبل أن ينطلق من جديد.. مرّوا بسامراء وتكريت وحمام العليل والشرقاط؛ حتّى إذا لاح خيط الصباح وكان معظمهم لم ينم أطلَّ وجهُ أحد الشرطة المأمورين بمصاحبتهم وتسليمهم إلى آمرية معسكر الجيش في الموصل. بادره محمد صالح بالسؤال ضجراً:

– أين نحن؟ ومتى نصل إلى الطامّة؟

– نصف ساعة ونكون في المحطة.. ونصف فوقها وتكونون بيد الآمرية.

كانت الآمرية عبارة عن معسكر كبير.. وضعهم في غرفة سجن خاص بالجنود المُعاقبين.

لم يكن حال الذين يتعاملون معهم كحراس سجن أقل جلفاً من حراس سجن بغداد ولا أهون تعاملاً. كان تعاملهم صارماً بناءً على أوامر مُعطاة إليهم. لهذا كانوا يخضعون لنظامٍ ظاهرُه العقاب البدني، وباطنُه الحرب النفسية. نظام أريد به تحطيم معنوياتهم وصولاً إلى تركيعِهم وإجبارهم على تقديم استرحامات مُذلة للحكومة في بغداد كي ما توقف تنفيذ إعدامهم أو تقليل الحكم عليهم.

في الصباح يُقدم لهم حساءٌ كفطور صباحي مع كتلة رغيف اسمر يحسبه الناظر لأولِ مرة قطعةَ حجر. يعقبها سوقهم من الزنزانة صوب أرض محفورة بهيئة شقوق معدة لتكون ميدان عقاب يومي لهم. حفر كانت مواضع عسكرية بهيئات أخدودية. يدفعونهم للنزول فيها والوقوف منتصبين، ثم يشرعون يهيلون أكوام تراب داخل الأخاديد بغية دفنها وتسويتها مع الأرض فتدفن معها أجسامهم فلا يبقى منها غير رؤوسهم بارزة بمستوى سطح الأرض.. يستمرون في وضعهم هذا طيلة النهار حتى توشك لحظات العصر على الانتهاء وتنسحب الشمس فيُستلّون من الأرض استلالاً، منهكين متعبين. ليس لهم إلا إعلان تذمرهم بالكلمات.

الحراس يستقبلونهم بالسخرية:

– هذا تمرين لدخولكم القبر، فأنتم ميّتون. لم تبق لكم غير أيام معدودات.

لحظتها يهتف محمد صالح حانقاً:

– لا تغترّوا! قولوا لأسيادكم، إذا كان لنا قبور في ارض الوطن

فالعراقيون لن يجعلونهم يعفنون الأرض بأجسادهم يوم تثور الثائرة.

يخشون عليه من هذا الكلام مثلما يخشون على أنفسهم أن يزيدوا القسوة بحقهم. فالكلام لا يُجدي نفعاً مع أفراد ليسوا إلا مأمورين ومنفذين.

كانت أعداد الجنود وفيرة وكان جعفر والمحكومون معه يرونهم يخرجون من قاعات كبيرة بملابس كاكيّة ليتدربوا في ساحات تدريب واسعة. يسمعون ضربات أحذيتهم على الأرض وصيحات يطلقونها ضمن مفردات التدريب. يشاهدونهم يتدرَّبون على استخدام البنادق والقتال بالسلاح الأبيض، وعند انسحابِهم صوب القاعات يمرون عن بُعد فيلوحون بأيديهم كأنهم يواسونهم في محنتهم أو يقفون إلى جانبهم في موقفهم. كانوا يتحاشون الاقتراب منهم خشيةً من عقابٍ سيطالهم حتماً. أدركوا ذلك بفراستهم.

طيلة أربعة أشهر كانت الطبيعةُ رحيمةً معهم لاسيما وكانوا في صيف بارد لا يشبه صيف الجنوب في مدنهم. كما لو كانوا أبناءها راحت تغدق عليهم بهواء رطيب عليل صباحاً، وبشمسٍ دافئة حنون ظهراً، وفي ساعات العصر تستحي الشمس من حمأةٍ أسرفت بها عليهم مُجبرةً فتقلل من غائلةِ حَرٍّ تحسبهم لا يستلطفونه. أما في الليل فلا تمنحهم غير الصفاء بسماء كالعباءة السوداء صافية إلا من نجوم يبصرونها من وراء قضبان الزنزانة تتلألأ كما لو كانت تريد مؤانستهم وجعل الساعات أوقات حبور يبدد شقاء الظلم الذي أهيل على رؤوسهم وطمر أجسامهم، ويضئل من ثقل ذكريات تنقلهم إلى أهلهم في الجنوب. ذكريات استحالت شريطاً سينمائياً يعاودون تمريره على باصرتهم طوال الوقت مفجراً فيهم الحنين إلى الأم والأب والزوجة والأبناء.. يفكِّر جعفر بابنه جميل وحركاته الطفلية البريئة تعبيراً عن ابتهاج مفاجئ حالما يسمع صوته يدب في البيت؛ يروح يصارع الهواء بذراعيه اللدنين كي يرفعه من فراشه ويلف به الغرفة أو يخرج به إلى الحوش.. يفكّر بالأب الذي يكرر كلام أمه / جدته في تحذيره من الدخول إلى نفق السياسة

وتأكيده على التضرع لله وحمده لأنه وهبه وظيفةً يحلم بها غيره مَن هُم في عمره ولم يحصلوا على تعليم ينتشلهم من تخوم الفقر والجهل.. يفكّر في زكية وكيف تقضي أيامها وهو بعيد هنا. زكيّة التي لم تقصّر بحقّه وقصّر هو بحقِّها جراء خطف الجزء الكبير من عاطفته ومنحه لوهيبة وإن كان على شكل ذكرى وحنين.. يفكر بوظيفة لم تعد له وذهبت بغير حق.. يفكر في إلياس وهذه مدينته الموصل التي أحبَّها وأحب ذكرياته فيها، يتذكَّره؛ ذلك الإنسان المفعم بالأحاسيس النقية والتطلعات العصرية. أربعة عشر عاماً مرّت كان في أعوامه الثمانية الأول متواصلاً معه عبر الرسائل؛ ما لبثت الأيام والأشهر المتهافتة أن هالت فوق حياته تلال من رمال النسيان فلم يتلقَّ منه ما يعلمه بوجوده، أين يكون وفي أي مكان أصبح.. ينتشله من كل ذلك التفكير شعور أن الموت قادم وأنه لمْ ينهِ جذوة الإبداع في رسم ما في مخيلته. لذا عزم إن بقي له من أيامٍ وانقلب الموت إلى حياة سيكون أول مشروعٍ مستقبلي له هو الارتماء في جنة الرسم يرسم، ويرسم، ويرسم.

لظروفٍ لم يألفونها كانوا يشكون التصاق التراب بمسامات أجسادهم والعفر الذي يتغلغل في فروات رؤوسهم وهُم في الحفرة فيهفون إلى أحلام اليقظة يستدعون الحمّامات الساخنة بالبخار المجنون.. أبخرة خيالية تنقل جعفر فيجدها تتدفق من أرضية (حمّام عفريت) يوم كان في فيوض الشباب وعنفوانه يذهب إليه صباح كل جمعة ليستحمَّ استحمام العرسان. هناك تتلقفه الأزقة مخلفاً بيوت حميد القزّاز وسيد مشكور وحمزة البنا حتى يقف عند بوابته الخشبية العتيقة المشرعة ليضع قدميه على درجتين تهبطان به إلى فناء مربع عُلقت على جداره صورة مزجَّجة لرجلين أوربيين حضريين يرتديان بدلتين وقد بانا في اشد هالات الترافة، لكأن عفريت يريد أن يقول يا زبوني عندما تبرح الحمام بعد بخارٍ غيمي وماء ساخن وخدمة متيسرة ستخرج مثل هؤلاء، أو ربّ مُشاهد يذهب تصوره بعيداً فيعتقد أن هذين المهندَمين المترفين

قد استحمّا يوماً في هذا الحمّام وخرجا بهذين المظهرين الباهرين.. فوق الكرسي المتعالي على دكّة حجرية مربعة ترتفع على أنظار الزبائن قليلاً يجلس "عفريت"؛ تحجبه منضدة خشبية تشبّعت برطوبة متفشية في المكان وعرضت على سطحها سجادة نسيجية مُنمنمة من عملِ فنان فارسي استوحى وجهَ وقوام قيان راقصة أمام عازف رَبابة استلطفها النسّاج فأدخلها في حفريات فنّه النسيجي ولم تحلم أنها ستكون محط أصابع وكفوف ستمسُّ جسدَها المتثنّي لحظة تسليم أجور الحمّام أو تسلم أجزاء النقود المسترجعة... اعتاد عفريت الجلوس بهندام لا يتعدى العقال الثخين والكوفية المبقَّعة بالنقاط السود على الرأس خافية صلعاً متوارثاً لا يعرفه إلا الزبائن المتخلّفون إلى آخر النهار عندما يهمُّ بدخول بهوَ الحمام، يرفعهما من الرأس ويذهب ليستحم قبل توجهه إلى البيت. يستقبل غفّار عامل الخدمة ومدلك الأجسام جعفر استقبال الود.

((جاء غفّار إلى السماوة ليجعل منها سكنا وعيشاً. جاء من بغداء قبل عشرة أعوام ليعمل فيها شابّاً ساقته الظروف وحتَّمت له الأقدار مَساراً سيجعله حين يغدو كَهلاً مُدلك أجسام ومنظّفها بالكيس الصوفي الخشن ماراً على أجزاء الجسم الغارق في البخار ليزيل عنها الأوساخ. تعلم هذه المهنة عندما وجد نفسه في عمر السبع عشرة يشتغل بعد أن نفر منه الأب لبطالته وعدم توجهه للعمل أُسوة بالآخرين مِمّن في سنه وهدَّده بالشكوى إلى والي بغداد العثماني، فاضطر الشاب إلى أن يقبل بأي عمل يُنسب إليه. فكان أولُّه ركوب السفر بناء على هدي صديق له قال:" يا أخي طالما بتَّ تضيق ذرعاً بوالدك، ووالدك لا يريدك عاطلاً فخذ بنصيحتي.. إنَّ لي عمّاً ينقل المسافرين من بغداد إلى حلب في الشام طرحَ عليَّ رغبة مصاحبته في عمله وأنا أرى أن تشتغل معه بدلاً مني في سياقة الخيول وإطعامها في الطريق فتكسب بذلك نقوداً تجمعها لغدك، إضافة إلى ما تحوزه من مشاهدات لمدنٍ

وقصبات وطرق لا نبلغها نحن البسطاء. ستخالط وتعيش ما ترى من الناس.. أجد ذلك مناسباً فلا تترك الفرصة تتيه ليحوزها غيرك.. خذ يومين لتتشاور مع نفسك واهلك، وأبلغني."

ذلك اليوم تاه غفّار في غابة من الأفكار. يحسب بعمليات الطرح والقسمة، الجمع والضرب عملاً لا يعرف عنه شيئاً. بل هو من عِداد الغياب عن مدينته بغداد، وعن صحبه. يلزمه حين يوافق توظيف الجهد الكبير وتقديم الخدمة الوفيرة.. يلزمه تحمّل تبعات غضب صاحب العمل إن تلكّأ أو شتائم المسافرين إن لم يلبِّ لهم الطلبات.. قالت له أمّه: " كن رجلاً واذهب!.. اقطع البراري وتجاوز المسافات، فالرجال لا تُقاس كرامتها بالبطالة والاعتماد على فُتات يتلقونه من ذويهم إنّما باليد العاملة المنتجة. اليد التي إذا ضربت جداراً هزّته، وإذا قبضت على حجر فتّتته، وإن قيل لها أين منتوجُك قالت: خذوا جبل الانجاز، فينظرون إلى حيث يشير فإذا هم أمام صرح هائل من عمل منجز بإتقان، ومحروس بقدرة.. ويوم سمع الأب أنَّ ابنَه انطلق في أول قافلة تحركت قبل يومين من منطقة (الجعيفر) أعلن عن بهجته، وقال: هكذا ولدي ألذي أريد! عاملاً، منتجاً لا يهاب الأقدار. وبقدر ما أحسَّ بألم فراقه أحسَّ أيضاً بجبلِ همٍّ ينزاح منفوق كاهله.. ليس سهلاً أن يرى الأب ولده عاطلاً بلا عمل، وليس من اليسر تقبّل رؤيته يكمن في البيت أو ينزوي في مقهى بغير ما هدف. لقد كانت جيوش من الألم تغزوه حين يراه متهالكاً في سيره، ذليلاً في تصرفه. تثور في صدره حرقةٌ بعد كل كلمة قاسية يوجِّهها إليه فيعود نادماً يكلِّم الأم بأنه مُضطر لأن يُسمعه خشن الكلام، لأنَّ السكوت على خموله يعني الجناية عليه مستقبلاً، خصوصاً وأنه شرع يكبر والأعوام تتوالى وأن يوماً سيأتي يغدو من الواجب تزويجه... الأيام كانت قاسية على غفّار؛ فلم يكن يعتد خدمة الغير، ولم تكن لديه الذراعان المتمرِّسان على حمل الأثقال ورفعها، والتعامل مع عشرة خيول كان يتطلب

فكَّ أعنَّتِها وأحزمتها وتقديم العلف اللازم لها في كل محطة يتوقفون عندها وأرض تتطلب المكوث فيها لوقت. والأسبوعان اللذان صرفَتهما القافلة منذ انطلاقتها من بغداد إلى حلب حسبهما دهراً. لكنَّه كان يُمنّي النفس بضرورة الصبر ويُطعمها بإكسير الجَّلَد. يساعده في ذلك الراكب الذي يعتلي الحصان ويتعامل معه طوال مسافة المسير... كان الراكب تاجراً يعرف حيثيات الطريق ويخبر حالات التحمّل، فهذه سفرتُه الرابعة في هذا الدرب ، وعندما عرف أن سائسه يعمل لأول مرّة في هكذا عمل صار يتعامل معه تعاملاً حسناً تصاحبه صداقة وود ما جعل غفّار يرتاح له ويستأنس معه.. هذه الصحبة وذلك الاستئناس دفعا التاجر إلى أن يقترح عليه أن يصاحبه إلى استانبول رفيقاً في صفقة تجارية، يبقى هناك لشهر ثم يعود. ذلك دغدغ عواطف الشاب لا سيما واستانبول مدينة حلمٍ لأقرانه في بغداد.

في استانبول شاءت الظروف أن تقوده للاستحمام في (حمّام كرمان أوغلو) الذي اقترح عليه صاحبه أن يعمل عنده عاملاً لاستقبال المستحمين (تناول ملابسهم ثم تقديمها إليهم عندما يُكملون استحمامَهم في قاعة البخار.. نشر "الوزرات" المُبلَّلة المستعملة من قبل الزبائن على حبال الغسيل في سطح الحمام وجلب الوزرات الجَّافة لتقديمها للقادمين بغية الاستحمام. كان الاقتراح مبعث رضا التاجر الذي شعر أنه بزياراته القادمة إلى المدينة سيجد رفيقاً له. ذلك الرضا قاد غفار إلى البقاء عشرة أعوام وسبعة أشهر، تعلَّم خلالها مهنة التدليك وتنظيف جسد المستحم)... ويوم حنَّ إلى بغداد وجعل يبكي العودة عاد مودَّعاً من أوغلو بمبلغ من المال حسبه يكفي لبناء حمام في بغداد. لكن عودته أبلغته بوفاة والديه اللذين حنَّ لرؤيتهما أيّما حنان في موجة طاعون ضربت المدينة وأطاحت بحياة ثلاثين ألفاً ممّن وجدوا الموت يأتيهم بلبوس لا يدركون كيف يواجهونه... الألمُ الذي تسبَّب بفقدهما دفعه إلى شرب الخمر وصرف الليالي يبكيهما، حتى تبدَّد المال، وكان عليه أن

يجد عملاً فجاء بناءً على نصيحة تاجر حِبال التقاه في إحدى مقاهي (الشورجة) وزيّن له السماوة مدينة رؤومة ستنتشله من مستنقع الإدمان.))

يتلقّف ما يحمله جعفر من ملابس نظيفة ملفوفة بوشاح (بقجة) مصنع لطقس الاستحمام، ويتحرك أمامه مرتقياً درجات تضعه وسط أخدود عالٍ مفروش بالسجاد العتيق تنتشر على حيطانه مسامير لتعليق ما يخلع من ملابس يرتديها. يختار غفّار لجعفر المكان الفارغ المخصص لتعليق ملابسه بعيداً عن ملابس زبائن يستحمون تلك اللحظة في البهو البخاري.. يستخرج جعفر الوزرة فيلفُّها ساتراً نصفه الأسفل العاري، ثم يتحرَّك هابطاً الدرجات مخلفاً حوض الماء الواسع، وتاركاً ضوءً ينهل من زجاج أبيض وملوّن يزخرف أعلى القبّة المكوّنة سقف الفضاء فيما يسمع " عفريت " يرجو له استحماماً رائقاً ومياهاً ساخنة تمنحه الراحة والاسترخاء.. في هوة البخار وعالم الضباب الساخن يدخل محمولاً على رغبةِ خلع أدران النفس ورميها في هوة الانسلاخ سعياً لارتداء ثوب النظافة والانطلاق لتحرير الروح وتركها تعوم في هيولي راحة يتمناها الإنسان أبديةً لا تنتهي... ويفيق على حضور غفّار يعلن استعداده لتدليك جسده بناء على رغبة أعلنها له ودعوته عند ولوجه الحمام أن يأتيه حالما ينتهي من واجبه في تقديم الخدمات للزبائن سواء القادمين جدداً أو الخارجين توّاً حيث يهيىء لهم المناشف لتجفيف أجسادهم، مستلما الوزرات المشبعة بالماء.. ينتقل إلى المستطيل المرتفع قليلاً عن أرضية البهو الضبابي الساخن فيتمدد عليه ويشرع غفار بأداء خطواته المعتادة في تدليك الجسد ابتداءً من العنق حتى أخمصي القدمين، ثم ينتقل إلى استخدام كيس الخيش الخشن المعمول بحجمِ كف، يمر على البشرة رواحاً ومجيئاً إزالةً للأوساخ العالقة بالجسد. حتى أذا انتهى من واجبه شعر جعفر أنه يُحلِّق كما طير تخلص من سلاسل تعيق تحليقه في فضاء التحرر الجسدي. هذه الإعاقة يجدها الآن تكبِّل أعضاءه وهو في هذه الحفر

المقيتة التي لا يدري متى يحين موعد التخلّص منها إمّا بالموت والراحة من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان أو بالإفراج والعودة إلى الأهل حيث وردتهم الأخبار بأن المرجعية في النجف تلك التي كان للشيخ خوّام ارتباط معها طيلة حياته قائداً لعشيرته والوطنيين في الأحزاب الوطنية الحقّة لم تسكت على الظلم، ولم يهدأ لها بال إلا باستصدار قرار عفوٍ عنهم وإيقاف جميع الأحكام الصادرة بحقهم ابتداءً من قرار إعدامهم وسلب أرواحهم وانتهاءً بمصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة وكأنهم يملكون العراق بأكمله حتى يتحركون لمصادرته.

وفي يومٍ فوجئوا بعدم سوقهم إلى الحفر التي صار التوجه إليها ممارسة يومية مثلما فوجئوا بتغيّر طباعِ حرَّاسِهم الأشداء الجلفين. جاءوهم في احد الصباحات بملابس جديدة وبمقاسات تناسبهم بينما جعلوا وجبات الأكل ثلاثاً بعدما كانت وجبتين فقط الأولى فطوراً صباحياً بحساء وكتلة رغيف والثانية عصراً بصحن رز يُرش فوقه مرقُ باميا أو بطاطا أو فاصوليا جافّة بعد سحبهم من الحفر فيكون غداءً وعشاءً في نفس الوقت. وكانت عشية الرابع عشر من أيلول وقد صرفوا أربعةَ أشهر في دوامة العذاب والقسوة اليومية وانتظار مقدم الموت فتح باب السجن وطلب من الشيخ خوام التهيؤ لمواجهة آمر المعسكر. ولم يطل خروجه سوى دقائق معدودة عاد بعدها يُسر لهم خبرَ إعلان العفو عنهم من قبل الملك غازي وإسقاط جميع التهم التي ألصقت بهم وفرض جرّاءها الحكم القاسي عليهم:

– غداً نعود إلى بغداد. ومن هناك نأخذ حكمَ براءتنا.

تلك اللحظة انطلق فمُ محمد صالح يهتف بكلماتٍ صاغها الإمام الشافعي شعراً:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتُها فُرِجَت وكان يظنها لا تُفرجُ

ألم أقل لكم ستفرج، لا تنظروا للحياة على أنّها صيدٌ ثمين لا يجب أن يهرب من أيديكم بل احسبوها أمانةً عهدوا إليكم بالاحتفاظ بها لزمن ثم جيء من يستردها؟!

توقف قليلاً قبل أن ينطق:

– وهل يظنوننّا نتركهم لغيِّهم؟!

في بغداد حيث نُقلوا في اليوم التالي ليكونوا طلقاء ترجَّل محمد صالح في فناء المركز وهو بين لهفة أفراد عائلته المبتهجين بإطلاق سراحه وتوديعهم، توجَّه إلى الشيخ خوام، هاتفاً:

– سننتظرك يا شيخ في انتفاضةٍ أخرى ضد ظلمِهم وجبروتِهم.

ضحك الشيخ، وضحك الجميع. ضحكةٌ جاءت عريضة وواسعة بعرض بهجة صاروا يرفلون على خميلتها وهُم طلقاء، وواسعة سعة حرية وهبها الله درةً ثمينة للإنسان.

استحالت دعوته هذه خاتمة لأيام ستحفر بإزميل الألم جنايات يرتكبها السَّاسة بحق أبناء وطنهم لغايات ذاتية أنانية ينام فيها الضمير، ويموت.(*)

• جاء في خطاب العرش الذي ألقاه الملك غازي صباح يوم الخميس ٨ آب /أوغست ١٩٣٥ في حفل افتتاح مجلس النواب الجديد " إن حوادث الفترة لم تكن نتيجة جهل الناس وطيشهم فقط – كما أشار وزير الداخلية – بل كانت ايضاً نتيجة ظلم الادارة وعسفها. والتمرد الذي وقع من قبل فريق من عشائر الفرات لم يكن في الحقيقة تمرداً على قوانين الدولة ونظمها، بل كان تمرداً على ظلم الذين يمثلون الدولة في تلك المناطق.(...) أما الاضطرابات الاخيرة التي انفلقت في الرميثة فهي نتيجة سوء تصرف وزير الداخلية) ص١٣٨، تاريخ الوزارات العراقية، عبد الرزاق الحسني، ج٤

(٦)

أنسامُ صبيحةِ منتصف آب أيقظت جعفر ببرودتِها.

هبطَ من سطح الدار حيث اعتادَ النوم هروباً من وخمةِ الغرف وسخونة الحوش . ندهَ على زكيّة كي تنهض وتنزل لتعدَّ له شاياً بينما هو يخرج إلى السوق القريب لأبتياع صحن قيمر تبيعه النساء الدبيّات فطوراً للصباح، فقد افتقد تناوله منذ عكَّرت الأحداثُ التي شابت المدينة والزقاق المزاجَ فبات الحال لا يُشجِّع على الشعور بالجذل والابتهاج.

ذلك الصباح فاجأه بزوال التخوت من رأس الزقاق وغياب أيِّ أثر للشرطة. تبادل وبعض المارّة الخارجين توّاً من بيوتهم نظرات الاستفسار أولاً ثم الدهشة أعقبها الارتياح. لذلك أسرع في شراء القيمر وحثَّ الخطى عائداً ليزف الخبر لزكية التي استقبلته وقد قرأت سورة بريق تبثّه نظراته فراحت ترسم علامات استفهام من عينين باحثتين عن ردٍّ تمنته ايجابياً، فلم يجب سوى ببيت شعر كان يردده محمد صالح من خزين حفظه لشعراء قدامى:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتُها فُرِجَت وكان يظنها لا تُفرجُ

تهللت قسماتُها المتغضّنة، وانفرجت رموشُ عينيها الحسيرتين. راحت تتمتم حَمداً للخالق على إفراجِ الحال وإزالةِ الغُمّة. سمعها جعفر تخاطبه وهي قادمة من المطبخ تنقل محتويات صينية حوت: صحن القيمر الذي تناولته من يده عند دخوله وقوري الشاي والأقداح وحاوية السكَّر لتدخل عليه في الغرفة، متحسّرة:

– وطن مُتخم بالأحداث، وناس لم تعرف الراحة.

يجلسان متقابلين لتناول أعذبَ فطورٍ ويتحدّثا في أجمل أحاديث؛ فما أبهج الساعة التي ترى انك في وجود يخلو من الضغوط والمنغِّصات. تتحرك بيسر؛ فلا عين ترصدُك ولا هراوة تتبعك.

– أتعرف يا جعفر!.. تفوَّهت زكية وقد أطلقت زفيراً طويلاً.. أنني اشعر

بسعادة كالتي شعرت بها عندما عُدت إلينا حِرّاً قبل خمس وعشرين سنة. كانت عودتك لي وقتها تعادل امتلاك العالم أجمعه. أتدري أنَّ غياب الرجل عن البيت يعني شللاً تامّاً يصيب أفراد ذلك البيت ويتركهم صرعى الألم والعذاب والانتظار؟.. أتدري أن مجيئك الآن بخبر انفراج الحال أزاحَ عن صدري همَّ ما يعتري صدور الأمهات وهُنَّ يبصرن الأبناء أو الأزواج سجناء أو ملاحَقَين؟.. دخول الشاب بيتنا مستنجداً فجّر في داخلي أسئلةً عديدة: لماذا يتجنّى الإنسان على أخيه الإنسان لرأي يقوله وشعور يُفصح عنه؟.. ولماذا القسوة تصل حدَّ سلب الأرواح وقتل الإنسان بهمجية حيوانات البراري؟.. لماذا لا تسير الحكومات السير الصحيح وكل يوم نسمعها تردد أنها جاءت لخدمة الإنسان؟.. هل الإنسان المناهِض لها عاقّاً يستحق العقاب أم هو المُطالب بحقوقٍ يجدها مُستلبةً منه ويسعى لاستردادها؟.. ثم لماذا لا يتَّبع الإنسانُ الوسائلَ السلمية للتفاهم والحوار؟

ضحك، وقد رآها على وشك أن تطلق لعينيها مهمّةَ سكبِ الدموع:

– أنتِ اليوم تتفلسفين، يا أم جميل!.. نهضتِ من الفراش ربَّةَ بيت فاستحلتِ خالقةَ أسئلة، والفلسفة تبدأ بالأسئلة وتنتهي بها!.. ألستِ أنتِ التي عودتِني على سماع كلامك " هذه حال السياسة في العراق"؟.. أسئلتك يجيب عليها كلامك هذا.

يقول ذلك وينهض:

– لنتَّكل على الله ونتَّجه للسوق، نفتح المحل ونستشف حال الدنيا.

– عساها خيراً، يا أبا جمال.

في السوق بدا الانفراج كأنْ لا تأثير له!

ما زال الناس ينهضون ويتحركون وسط رتابةٍ وشعور بأنَّ الحال لن يتغيَّر نحو الأفضل؛ بل أنهم يتهجَّسون الآتي. فقط الشيوعيون والمتعاطفون معهم هم مَن حصد الارتياح ذلك اليوم بتوقّف ملاحقتهم، لكنهم ظلوا متوترين حين

اكتشفوا رجال الأمن يتعقَّبون خطاهم؛ والموتورين من الحركات المناهضة لهم لم يكفّوا عن التحدث عن ضرورة أن لا تغض حكومة الزعيم الطرف عنهم، بل لا بد من اجتثاثهم وطمر أفكارِهم الإلحادية الكافرة متَّكئين على بيانٍ أصدرته الحكومة عبر إذاعة بغداد يُشير إلى أن قلاقل أحدثتها زمرة لا تمت للحزبية الشريفة في مدينة السماوة وقامت السلطات الأمنية للمدينة بمداهمتهم واعتقال المتورطين فيها. متورطون كانوا ينوون جعل المدينة تعيش حالة توتر.

رأى الشيوعيون في الخبر مُجانبة للحقيقة واكتشفوا أن السلطة الأمنية في المدينة أبرقت إلى الحكومة المركزية في بغداد خبرَ محاولة الشيوعيين الإضرار بالحكومة الوطنية عبر عقد الاجتماعات المشبوهة في مقرِّها الكائن وسط السوق وأن رجال الأمن أحبطوا تلك الاجتماعات وضربوا بيد من سطوة وجبروت مُعيدين للمدينة سلامَها وللناس استقرارَهم وطمأنينتهم.

لم يمر يومٌ واحد حتى انتشرت منشورات مكتوبةٌ بتسرُّعٍ حملت في ذيلِها اسم الحزب الشيوعي يشير إلى خبر مُداهمة مقرّه ونهب محتوياته بأسلوب يبتعد عن ديمقراطية تجاهر بها حكومة الزعيم واستنكار محملاً القوى الرجعية والموتورين من رجال الدين الذين ارتفعت تلك الأيام أصواتهم تعلن أن الشيوعيين كفّار مُلحدين يجب محاربتهم. وتوجّه الحزب في منشوره إلى الزعيم عبد الكريم أن لا ينجر وراء دعاوى هذه القوى التي لا تريد للبلاد سوى الخلخلة والانجرار إلى حرب أهلية مُدمِّرة.

توترَ الوضعُ واستُنفِرت مفرزة الأمن وجعل المفوض الذي عُين قبل شهر يجوب السوق والشوارع بحماية اثنين من المرافقين المسلحين بالمسدسات. يصاحبه في أغلب الأحيان الموتورون يمدّونه بأسماء مَن يرونهم يعملون على نشر الفكر الشيوعي (الكافر الهدّام) وقد يهمسون في إذنه عن ذلك المار في الطريق أو الجالس في مقهى أو الذي يرابط في محل يديره فيطيل

المفوض النظر فيه كأنه يبغي رسم صورته بملامح لا يريد أن ينساها، وقد يكتبون تقارير يومية عن تحركات مشبوهة بغضاً وكيداً فتتم مداهمة هذا البيت أو ذاك، هذه المقهى أو تلك.

وهو على وشك إغلاق دكانه والعودة لقضاء فترة الغداء والقيلولة تناهى همساً خبر اعتقال وارد السلمان. (كان مؤذِّن الجامع الكبير يفوه بمقدمته مُطلِقاً عقيرته بأذان الظهيرة عندما دنا من السلمان اثنان من رجال الأمن بالزَّي المدني لحظة كان في مهمّة تسوّق لعائلته قالوا له أن رئيس المفرزة الأمنية يطلبك لبعض الأسئلة. ولما لم يجد ما يخشاه ذهب معهما.)

تلك الظهيرة هجم القلق على قلاع حصون جعفر الدفاعية النفسية فطفقَ يعيش هاجس ضرر قد يحصل للسلمان. فهِمَ أن تقريراً قدّم إلى آمر المفرزة خصوصاً وأن من نقل خبر الاعتقال أضاف إلى سماعه خبر مداهمات ستتم لاعتقال كل من يُشتبه به له صلة بالشيوعيين ومن يُعكِّر صفة أمن الحكومة. وعبر هذه العبارة الفضفاضة سيُتَّهم الكثير من الأبرياء، ويُساق العديد ممَّن لا قرب لهم في السياسة ولا ارتباط، وسيتوتر الحال من جديد.

لم يشأ إخبار زكية بما سمع لكنها اكتشفت تململه وقلة شهيته في تناول الغداء وعدم رغبته في رقاد قيلولة اعتاد عليها يومياً فطفقت ترشقه بأسئلةِ الحيرة والاستفسار. برزَّ الأمر لشعور قلق عام على وضعٍ تعيشه البلاد فراحت في محاولة تبديد هذا القلق تطالبه بترك الهموم لان العراق لا ينتهي وسيجلب له شلالات من الإمراض القاهرة المميتة إن جعل قلبه يعيشها.

كانت تلك الظهيرة طويلة ومُملَّة وتعيسة دفعته إلى ارتداء ملابسه ومبارحة البيت قبل وقته المعهود في الخروج. دخل السوق ولظى النيران يتعالى داخله. فكَّر بالتوجه إلى المفرزة الكائنة في صوب القشلة لمحاولة مواجهة السلمان ومعرفة أسباب استدعائه واعتقاله لكنه تفاجأ بمن يخبره أنه شاهد السلمان خارجاً من المفرزة، وانه لم يبق طويلاً هناك تحدَّث معه الآمر

طالباً منه عدم تدخله في أنشطة الشيوعيين الذين آلموا الزعيم وأغضبوه، وانه بكياسته وأعوامه المتجاوزة الستين لا يجب أن يندفع مع سلوك حفنة من الطائشين العابثين.

كان خبر استدعاء السلمان وعودته من المفرزة شاع في المدينة فلم يبق احد لم يسمع به، ولم يبق احد لم يستقرىء الأمر بان القادمات من الأيام لن تمر دون رجّة سياسية واجتماعية كبيرتين.

حدد جعفر وقت الغروب لزيارة السلمان بعدما يغلق الدكان وبدلاً من التوجّه إلى بيته سيتوجه إلى بيت السلمان للاطمئنان عليه ومعرفة ما جرى له وما دار معه.

الطمأنينة بعودته أزالت ضجر داهمه ظهراً؛ والنعاس الذي تسلل إليه ساعة كان في الدكان وجعله يأسف على عدم النوم في البيت قد زال. لم يبق له سوى ألتحرك الآن صوب بيته علّه يجد صديقه يراجع حديثاً جرى مع آمر المفرزة الأمنية، لكنه وهو يخطو من أمام مقهى حمود لمح السلمان جالساً يرتشف الشاي، ولم يلمح صديقه شاكر حسّان الذي اعتاد جعفر أن يشاهده في صحبة حميمية وتبادل أحاديث جُلّها في السياسة وقليلُها في شؤون العمل (كان شاكر حسّان غادر السماوة يوماً من أيام صيف عام ١٩٤٠ على أمل زيارة أقاربه في الديوانية، لكنَّ القادمين من بغداد أشاروا إلى أنهم شاهدوه في سوق الشورجة. أخبرهم بسكنه في الكرّادة الشرقية بعد أن استأجر محلاً كبيراً لبيع مصابيح "اللوكس" والفوانيس وأدواتهما الاحتياطية، ولديه ورشة لتصليح هذه الأدوات بعدما مهَّد له قريبه في الديوانية فرصة العمل ووضعه على طريق الكسب الكبير والربح الوفير. وعندما سُئل عن العودة إلى السماوة قال: أصبحت جزءً من تاريخ حياة لكنه يحنُّ إليها؛ راجياً نقل تحياته إلى صديقه الحميم وارد السلمان، مُردداً قولاً تمناه يصل إليه "اخوي وارد! دير بالك على نفسك".. فهل كان متيقنا وواثقاً من كلامه؟... الأيام المتعاقبة أثبتت عكس

ذلك؛ فقد استرخص النفس من اجل المبادىء الأصيلة. إذ حملت الأيام خبر مَقتله غدراً بعد أن وقف موقف الرجال الصادقين مع أنفسهم، الذائدين عن حمى إنسانيتهم منفذاً قول علي بن أبي طالب "لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه" عندما وقف بوجه ثلّة من الجنود اندفعوا من أمام ناظريه صبيحة اليوم الثاني من شهر حزيران ١٩٤٠ يباشرون السلب والنهب من بيوت اليهود في الكرادة بعد أن طال هذا الفعل ممتلكات لهم في محلة "ابو سيفين" و"السنك" والاعظمية وشارع الملك غازي في الرصافة. وقف يمنع الجنود الذين ترجَّلوا من عربتِهم ليكسروا باب يهودي جار له تقاسم وإياه حياة الجُّيرة الصادقة ورأى في عائلته الستر والصون والأخلاق العالية. صاح بهم: لماذا ترتكبون إثماً لا يرضاه الله وانتم مسلمون ومسؤولون أولى بكم صون حرمة البيوت وحفظ ممتلكات الناس. ".. وقفَ صادّاً الجنود المُغيرين، رافضاً فعلهم المشين، صارخاً: "لا تدخلون البيت المصون وتنتهكون حرمة العائلة إلا على جثتي."..وكان خط الشراهة والطمع لدى المُغيرين أعلى من خط الضمير المشبّع بالإنسانية. كانت النزعة البدوية في أوصالهم أعلى من الإيمان المُسلم. كان الشيطان في سماء نفوسهم فوق الله. لذلك ضغطوا السبابات على أزندة بنادقهم مُصلين جسده بكثيف الرصاص، ومندفعين لممارسة هتك حرمة البيت.)

وحيداً كان السلمان يحنُّ لصديقه شاكر حسان. يترحَّم عليه، ويتمنَّى لنفسه ميتةَ إباءٍ كالتي استشهد بها صديقُه الحميم!.

كان وحيداً، يتمناه حيّاً أمامه الآن ليبادله المشاعر، ويعرض له الحال!...

اندفع جعفر بكل شوق القلب ورغبة مشاهدة السلمان سالماً معافى لم يحس بأذى، ولم يحصل له ضرر.

حدّثه عن استدعائه من قبل مفوض الأمن بناء على أقاويل كثيرة ملأت

مسمعه. افرد له الرجل ملفاً كان محتشداً بالتقارير:

– هذه كُتبت ضدك، من أبناء مدينتك، يا وارد.. كلُّها تؤكِّد انك القائد الخفي للتنظيم الشيوعي في المدينة.

يتوقف ليطلق حسرة ويحرر آهة:

– الرجل المفوَّض كان يتألم لأنَّ حقداً بقدرٍ لا يصدق يكيلونه لي. أنا الذي أحببت هذه المدينة وأخلصت لهذا الوطن.. تصوَّر أظهر لي تقريراً يتَّهمني بأنني أنا قائد الخيط الخفي لتنظيمات الشيوعيين، وتقريراً آخر يتهمني بإدارة عمليات تدمير المدينة، وآخر أنا الذي اخطط لاغتيال الزعيم ، وآخر أنا الذي أحرقت مقهى البعثيين، وآخر أنا أقود شبكة تهريب لتمويل نشاطات الحزب الشيوعي في المدينة، وآخر أنا لدي خطط لحرق المساجد، وآخر، وآخر... وآخر.....! حتى أن الرجل المفوض تعاطف معي مشيراً إلى أنه رجل غريب نُقل إلى هنا بعمل وظيفي لا غير، ولا يكُن للمدينة وأهلِها الضرر لكن المرضى بداء الحقد والكراهية هم الذين يتربَّصون بأبناء مدينتهم.

الأيام التالية شهدت توتراً انكمش فيه الشيوعيون وظهرت على السطح نشاطات الموتورين يرفعون شعارات (الديمقراطية) ويناهضون الإلحاد القادم من ما وراء الحدود. يبثّون منشورات يوكلونها إلى صبية لتوزيعها لقاء نقود مغرية فيندفع أولئك الأبرياء دون إدراك للفحوى بتوزيعها على المارَّة في السوق والشوارع. منشورات تعلن بتملّق وتزلّف أنها مع الزعيم الأوحد والجمهورية الفتيّة ضد الأفكار الهدّامة، مطالبةً بالضربِ بيدٍ من حديد على (الحاقدين على الزعيم) ومبديةً استعدادها للكشف عن التنظيمات السرّية لأعداء (الجمهورية). يقرأ جعفر وراء سطور هذه المنشورات فيجد كتّابها ما زالوا محمَّلين بضغينة تكبر وتكبر، تقف وراءهم جهةٌ حاقدةٌ ماكرة تبغي الإطاحة بهيبة الدولة وتفتيت البلاد مثلما يجدها تتوعَّد بالشيوعيين بأن لهم أياماً سيصبحون بها شذراً مذراً.

لمرات عديدة صار يبصر وارد السلمان في مقهى حمود؛ يجلس وحيداً، صامتاً، منعزلاً.. ما الأمر، يا وارد؟!

يغرق جعفر في محيط تداعيات وذكرى... "آآآآآآآه! نعيش الوحدة حين تتبارى على سفوح أذهاننا مُتطلبات التفكّر في أمرٍ جلل قد وقع، أو نتحسَّب لحال لا نتمنى أن يحصل، أو نرى في الوحدةِ فُسحةَ غيابٍ عن ضوضاء بتنا نعيشها في دنياً لا تعرف الهدوء، فهل لديكَ واحدة من هذه الاحتمالات، يا جعفر؟ أم أنها جميعاً تحتشد في جعبة صمتك وانعزالك؟!"

لا! لا... اعرفهم. نعم اعرفهم! ".. ينسكب كلامه الدفين متمتماً.

لا أحد من أولئك الذين كانوا يحبون عِشرته. ينصتون لكلام يفوه به يبث رائحة المودة والحميمية والصدق. يبصر وارد يجلس منفردا يخشى الآخرون الاقتراب منه والجلوس إلى جواره. إنهم يبررون خشيتهم من سلطة قد تتَّهمهم فيذوقون السجن والعذاب. يتهرَّبون في ساعةٍ هو أحوج إلى من يقف معه متباهين بأفكاره النابعة من حبه للناس والوطن.

لمرات عديدة صار يشاهده يجلس وحيداً كما لو كان منبوذاً أو مصاباً بمرضٍ تُخشى عدواه، فيعود إلى ذلك اليوم الذي أفرج فيه تم الافراج عنه وعاد من غياب دام خمسة أشهر عن المدينة. حسب أن الناس سيزورونه يعلنون اللهفة والوقوف بجانبه ضد الذين قادوه إلى فم الموت. حسب الأصدقاء سيُحيون حفلا ابتهاج لعودته سالماً بعد أن نشرت الصحف قرار المحكمة العرفية بإعدامه مع الشيخ خوّام والثائرين. تخيَّل أصحابه في السوق سيجلسون عنده في دكانه متهافتين على مواساته على أيام القهر الثقيلة وهو ينتظر ساعات الموت المحتَّم ويحنُّونه على الحديث عمّا جرى له معلنين في النهاية استنكاراً لحكم جائر وساسة موتورين. تخيَّل أنهم سيرفعون لافتةً تعلن ترحيبها به وإدانتها لحيفٍ وقع عليه لكن أي شيء من ذلك لم يحدث؛ لم يحدث على الإطلاق. فجيرانه في الزقاق كانوا يزورونه ليلاً بعد التأكد من

خلوٍّ الزقاق من أي اثر بشري يخشونه من آثار السلطة، وجيرانه وأصحابه في السوق مروا مرور الخائفين يلقون سلاماً بارداً باهتا وهم يتلفتون كأنهم يبررّون فعلتهم التخاذلية وتصرفهم المرفوض.. يومها أصيب بخيبةِ أمل مريرة قادته إلى الأخذ بنصيحة أبيه في السفر برّاً إلى البادية بحثاً عن مضارب الشيخ لهمود التي لن تكون بعيدة، فهو بحسن درايته بالصحراء والبادية يجد أنَّ واحة (بصيّة) والأرض التي حولها تلالاً ومنبسطات هي أفضل ألاماكن للرعي . فيها فيوض عديدة من مياه غدران تظل على مدى العام تحوي مياهاً لا تنضب؛ على عكس غدران ألاماكن الأخرى حيث صيهود الصيف ولهاث الأرض يجفِّفان الموجودات فتغدو الأرض على مراميها الواسعة مدّاً من رمال تتلاعب فيها الرياح شمالها وغربها.

كان عليه أن يصحب معه ولده " جميل " وينطلق مثلما انطلق جدّه درجال وولده حسن / أبوه يوماً باتجاه البادية، لكن "" جميل "" عمره لم يتعدَّ السنة ولو كان بعمر أبيه في الرابعة عشرة كما كان آنذاك لاصطحبه معه.

ذلك اليوم عرَّفه أبوه ببدوي قال أنه يعرف البادية شبراً شبرا، وأنه اتفق معه لقاء مبلغ من المال أن يرافقه ولا ينفصل عنه حتى يوصله إلى مبتغاه.

تحدث البدوي عن معرفته بمضارب الشيخ لهمود. وقال انه نزل عندهم مراراً. هُم كرام ودودون، معلناً أنه مستعد للانطلاق في أي يوم يشاءون، ولن تستغرق الرحلة أكثر من أربعة أيام ليكونوا في قلب المكان.

يتفرّس جعفر في الرجل البدوي فيراه أربعيني العمر، نحيلاً، شاحباً، تبرز لحيته مُدببة وشارباه منتصبين وخطهما شيب ضمَّخته صفرة حصلت بتأثير لون تبغ يشربه لفائف من الورق الشفّاف.

صرف عشرة أيام كانت المدينة تبدو كما لو كانت تضم أناساً لا يمتّون له بصلة أو لا ينتمي هو إليهم. غرباء بانوا، باستثناء وارد السلمان كان يجلس عنده في الدكان عصراً يتناولان حديثاً تتخلله أسئلةً تدور في رأسه عمّا

حصل له وما لاقى خلال أشهر الاعتقال وفترة انتظار تنفيذ الحكم. ويروح السلمان يتحدث له عن تنكّر الكثيرين من المدينة له / لجعفر ورميه بتبعات أعمال لا يجب أن يزج نفسه في خضمها، لكأنها آمالٌ تخصّه شخصياً وليست أفعالاً سعى جاهداً من خلالها لخدمتهم وانتشال المدينة من بؤسٍ ثقيل ويأسٍ ماحق.

في اليوم المحدد لانطلاقتهما كان البدوي قضى ليلة فكانت انطلاقتهما صباحاً على فرسين استأجراهما كي توصلهما إلى هدفهما. كان جعفر حملَ معه حقيبةً حوت ملابسه وجانباً منها لفائف قماش وأنابيب ألوان وفرش مختلفة الأحجام في مسعى منه وضمن برنامجٍ قرر يوم كان سجيناً في الموصل تنفيذه في حالة إطلاق سراحه. قررَّ أن لا يعود إلا وقد رسم كلَّ ما اكتشفه يستحق الرسم، تماماً كما فعل الفنان الفرنسي ديلا كروا الذي بعث له إلياس يوماً كراساً عن حياته ورسوماته لوجوه صحراوية اعتُبِرت في زمنها منعطفاً في الرسم حقَّقه ذلك الفنان الشهير للإنسانية.

أيامٌ أربعة صرفاها سيراً ونزولاً عند هذا المضرب أو ذاك من مضارب البدو الرحالة خففَّ من حنقه على مَن تنكروا لمسعاه في تحقيق ما هو أفضل لهم، أولئك الذين نهبوا حاجياته في الدائرة وسرقوا كل ما يمت من ذكريات طيبة عن وجودها في نفسه. فحين يسرقك مَن تظنهم أهل بيتك تتفاقم المرارة في قلبك، ويثقُل حمل وطء أوزارهم.. عيونهم تسكب بلاهة المغفلين، وغباء الجُهال، وعُمي الذين لا يفكّرون إلا بيومِهم المغمور بمطبّات البلادة.. الطمع يبني أعشاشاً على شرفات دواخلهم المتهالكة، والنُبل مفردةٌ لا يفهمونها بينما هم يخطون على أديم غرابة حياة يُفتَرَض أن يحيونها حياة الزهاد الورعين طالما يرونها فانية؛ كما يُفترَض أن تأتي على ألسنتهم عبارات تصمها بالتفاهةِ، حالمين في حياةٍ أبدية يؤمّلون أنفسهم بها كمآل سرمدي.. إن هوية قومه لا يمكن تعريفها إلا بأنها تضرب في انتهازية لا

يملكها غيرهم، ولا يقبلها مَن تأمَّلَ العاقبة، وقدَّر النهايات؟

وصولهما كان مع لحظات الغروب إلى مضارب الشيخ لهمود.. استقبلهما الشيخ فاخر ولده الكبير، فالشيخ لهمود كما أعلموهما توفي متأثراً بسرطان الحنجرة، لازمه لأشهر معدودات افقده النطق أولا ثم اضمحلال الجسد، موصياً لأولاده الثلاث أن يستمروا كُرماء مع ضيوف سيحلّون عليهم في مضمار حياتهم وسط الصحراء كما كان هو مضيافاً، وكما كان أبوه وجده. لذلك وجدا من الشيخ فاخر حُسن اللقاء وطيب التعامل. ظلت الذبائح تُنحَر لثلاثة أيامٍ دون ان يسمعا منهم سؤال عن وجهتهما. لكأنهم حسبوهما بحدس النبهاء أفراداً من قبيلتهم.. يستيقظ جعفر صباحاً على صفقات الأكف تصفق عجيناً لتحيله أقراصاً تلقمها النساء فمَ التنّور ليخرج رغيفاً ساخناً يستحيلُ عذوبةً يدوفه بالدهن الحر ويعقبه برشفات الشاي المُهيَّل. وينام على تحيات التمنّي له بنومٍ هانىءٍ وأحلام تطفو على سحابات السرور.

وكان عليه أن يحكي لهم ما في الذاكرة؛ فجاءت تلك الليلة التي امتدت بسِحرِها حتى السَّحَر.

حكى لهم عن جدّه درجال والفتى حسن / أبوه الذي كان يصاحبه وكيف نزلا عندهم ضيوفاً، وقصة الضيفة التي نزلا عندها ساعة الغداء وكانت لا تملك شيئاً تقدّمه وقت كان زوجها غائباً، وموضوع الخمسين رأس من الغنم جاء بهم ذلك الزوج بعد مرور عشرة أعوام.

الحكاية أعادت لهم تلك الأيام فأعلن الشيخ فاخر بان الرجل والمرأة توفيا وأن لهم أبناءً كبروا وقادوا العائلة. التقاهم جعفر في المضرب الوسيع وتعرّف عليهم وقضى فترة عشاء أحد الأيام عندهم.

في اليوم الثالث من إقامته في مضرب الشيخ فاخر قصَّ عليهم ما حصل له، وعرض عليهم أمر رغبته في البقاء عندهم كأحد المنتمين إليهم. الترحيب المصحوب بالسعادة هو ما انثالَ شهداً من شفاههم. فراحت الأيام تمر

وجعفر ينهل من نقاء البادية ويغترف من هوائها الطلق. يعيش حسن التعامل وطيب الإقامة.

يستيقظ مع أولى نهوض الشمس وهي تنتفض كفتاة نيرة من بيتها الرابض في الأفق فتبدو في فتنة، تغني لها الكثبان الرملية أغنية الجذل، وتقرأ لها أسراب طيور الحبارى والقطا، وقفزات الأرانب البرية، ومجاميع غزلان يلمحها من بعيد قطعاناً نافرةً شعراً من موسيقى فتفيض في أعماقه رغبة أن يُجسِّد كل هذا الجمال في لوحة يسكبها على القماشة البيضاء مُحيلاً خلقاً ساحراً تقف عنده عيون الجميع شبّانا وشيباً وصبية في اندهاش تعكسها مفردات تسيل من أفواه فاغرة بالدهش والانبهار. يزيد عليها مع الأيام لوحةً لحفنة جِمال تمد أعناقها ترتشف مياهاً خضراء من فيوض بحيرات تشيع بازدياد مع تكرار هطول المطر؛ ولوحة أخرى لورود النوَّار والخزامى والبنفسج واليانسون والقرنفل وإكليل الجبل والكمّون والرِّشاد والزعتر تطفو فوّاحة على مدٍّ من خميلة خضراء تهفهف مع هبوب النسمات الصباحية المتمايسة كبنات الطبيعة الضاحكة. وأخرى لمتنوعات الشجيرات. فيبث منها هنا شجيرات العرفج والرمَث و الرغل. وفي أخرى شجيرات الطرطيع و الروته والشعران والسدر؛ وفي أخرى شجيرات العلند بينما يوزّع في بعض المساحات حشائش الكبّة وأعشاب النصّي والصليان؛ وأخرى يظهر يناعة حشائش الزرّيع والقرط البرّي والخبّاز ولسان الجمل؛ وفي أخرى الربلة والبابونج والزبّاد. يرسم لوحةَ لقاءٍ كان فيه الشيخ فاخر يجلس وسط الخيمة الوسيعة متكئاً على وسادتي صوف انتشرت فيهما المربعات الملوّنة ورؤوس غزلان مالت مع قوة اتكاء كوعه الأيسر؛ يجلس على جانبيه أخواه همّام ودحّام فيما الخادم ينحني في مشهد سكب القهوة من دلّة برونزية لميعة في فنجان زجاجي ابيض ليقدمها إلى الضيوف تباعاً. ولوحة أخرى رسمها في لقطةٍ باهرة شاهدوا فيها صقر الشيخ يهوي على طير حبارى باقتدار وسط خنوع الطير واستسلامه للمنقار

الحاد المعقوف المغروز في رقبته. ولوحة أخرى لفتية المضارب وهم في سباق محموم على أحصنة كأنها أفراسُ الأعوام تعدو فوق الأرض كما لو كانت تطير، وقد كتبَ أسفلها بيتاً للمتنبي:

على قَلِقٍ كأنَّ الريح تعدو أوجِّهُها يميناً أو شمالا

يصرفُ الأيام على الجياد مع فتية المضارب، يذهبون يلاحقون الذئاب ويحاربونها في اوجارها بعد أن تناهضهم بعوائها ليلاً وتتوعدهم بهجمات على الشياه التي يشاهدونها وسط وهدة الليل وعتمته منكمشة خائفة تشم رائحة الغدر وتتحسَّس وطء الأقدام الريشية تأتي على جناح التخفّي. يشعلون ناراً يدفعونها في فم الوجر ظنّا منهم أنها ستشوي خواطم الذئاب وتحرق لها جلودها لكنهم يكتشفون دهاء هذه المخلوقات تمنحها لها الطبيعة وتفرضها حتميات رغبة البقاء حيث الثقوب العديدة التي تصنعها تخلصاً من عدوٍّ مُحتمل يداهمها من فم وجر فتسلك مختلف الممرّات التمويهية كسباً للإنقاذ وتخلصاً من العدو القاتل.. وفي رحلات أخرى ينطلقون إلى فيوض الماء البعيدة باتجاه حدود المملكة السعودية بحثاً عن غزلان ندهت عليها مياه البرك كي ترتشف العذوبة والصفاء وتسرح على خميلة الزروع وهي تتراقص على يناعة خضرة هفهافة تغني لها الورود بوريقاتها الطرية ومياسمها الهائجة. وجعفر يعيش عالماً دفعته إليه وذكّرته رسوم بعثها له إلياس في كراسٍ مصوَّر للوحات رسامي الانطباعية مانيه ومونيه وبيساروا ورينوار والفريد سيسلي وفان كوخ ودعوته المتكررة له أن يستمر في الرسم وان لا يتركه فيضيع في لجّة الضائعين على مسار حياة تخطو بمتوالية الأكل والشرب وتهافت الأعوام ثم الموت والاندثار بلا أثر. وهذا ما لا يجب أن يحصل مع المحظوظين بموهبة منحها الله للذين يحبهم.

في الصحراء صار جعفر حرّاً، ومع أناسها الغاطسين في أمواه براءة الطبيعة يصرف الأيام بلا هموم مع أن الشوق يلفُّه لأبيه وأمه، لزوجته زكية

وولده جميل.. يهفو لابتسامة زرعها حقلاً من براءة، وأيقونة من نداءات رائقة، ها هي ترن منغَّمة في مسمعه في آخر لحظة ودّعهم فيها.

يشتاق إليهم.. تغمره اللهفة لاستعادة لحظات العيش معهم.

يشتاق فيكبحه تذكّره للجفاء الذي حصل معه وللمدينة التي تنكَّرت له.

يفضل البقاء بعيداً، حرّاً إلا من فرشاته وقماشته.. الألوان تهتاج وتتبارى ليمررها على القماشة كي تستحيل روحاً تترجَّل وخلقاً يتكلم فتقر موهبته أنها تتجسَّد برضا، لا يضطهدها فيجعلها تعيش كبتاً وحسرة، فتموت.

لكن هل للسعادة أن تستمر؟!.. هل يمكن للحبور أن لا يتعثر وينتهي متهالكاً؟!

هل للطبيعة أبجدية الاستمرار بمنح السرور الدائم دون أن تفاجئك الأقدار بما لا تحسبه فتقطع عليك الدرب وترميك في غيهب التيه؟

هل نحن ماسكوا أقدارَنا، ومسيّرو أيامَنا بما نريد وما نشتهي؟

الأسئلة ولدت متهافتةً تلك الليلة التي ادلهمت فيها السماء من يوم شتوي عسير، واستمرت لثلاثة الأيام. قذفت ما جمعت من ماء، وما حشدت من رعود وبروق، قائلةً للصحراء خذي.

لم يتفاجأ الشيخ فاخر وأهله وصحبه وأتباعه بما جرى. الهدير الماطر والسيول الجارفة، والريح المجنونة هي ما عهدوها في حياتهم التي يحيونها أو تلك التي ورثوها حكاياتٍ من آبائهم وأجدادهم عن هوج الطبيعة في يومٍ مثلما بهجتها في يوم آخر، لكن جعفر ما عهد ذلك؛ إذ سقط في لجة حمّى وهول ارتجاف. رحلَ في عالم هذياني بعيد. حملته زوارق كوابيس فأرته طرقاً من آلامٍ لا تنتهي. أدخلته مدناً شبحية لا تغدق غير بواعث الرعب، وأرسته عند موانٍ وجد أرصفتها تحتشد بمخلوقات مِسخية توعدته بالتمزيق والتشظي لحظة الاقتراب. وجد نفسه يصارع مِن أنْ لا يمس رأسُ الزروق حافةَ رصيف ميناء. يفصح له الشيخ فاخر ساعة كان انسلخ من جولة

الهذيان أنه كان يصرخ مرعوباً، طالباً النجدة من شيء بدا كما لو كان مهولاً.

مع دوامةِ الريح والمطر، وهياج الرعد والبرق تحولت الكوابيس إلى حنين للأب والأم، إلى لوعة وشوق لزكية وجميل. صار البيت الذي تركه عشّاً يحنُّ لدفئه. صار سوراً يتوق للركض على آجراته الحجرية. عداد طفلاً يتسلق العمود الخشبي الرافع لسقف الشرفة صعوداً إلى سطح الدار بنزق قرود تتسلق نخلة وصولاً إلى ثمر في الأعالي. يسمع أمَّه تطالبه باعتلاء درجات السلم والتخلّي عن هذا الفعل الذي قد يُخطئه مرةً فيتسبب في عوقه أو موته. يتناهى إليه رعبها من نارٍ يوقدها في السطح من حطب تنور الخبز ليشوي عليها عصفوراً أصطاده وجعله وليمةَ غداءٍ له من عملٍ أنجزه بجهده الذاتي؛ تعلن خشيتها من حريق قد يلتهم البيت فيغدون مشرّدين ضائعين. ترنُّ في أذنه ضحكةُ جميل بكركرةِ الأطفال الجذلين بأبيهم يتسلّى بحركات يؤديها أمامهم، فيسعدون ويسعد. يأتيه جميل طائراً بجناحين ملائكيين يطالبه أن يضمه إلى صدره، أو يقول تعال لأعيدك إلى البيت بخطفة رمش. وحين لا يجد منه ردّاً يروح مندفعاً يبكي في هلام ضباب وجو غائم، مبتعداً عنه. فيمد يده نادهاً به أن يعود.. ينده وينده، يصحو على الشيخ همّام يخاطبه بحنان أن يهدأ. ويغدق عليه عطفه، قائلاً: أنتَ بين أهلك وأحبائك، يا جعفر.

لم ينفع شراب (الزعتر) الذي جرَّعوه إياه بعدما عملوا منه سائلاً ساخناً. ولا أوراق (الصخبر) التي أذابوها في الماء ودفعوها في فمه كمحاولة لخفض لهيب الجسد وزرعه بقوّة تتيح لساقيه قدرة الوقوف دون الاعتماد على مُساعد يتكىء عليه لقضاء حاجة.

حين استمرت الحمّى لأيام..

حين صارت الذكرى متوالية لا تفارقه..

حين استشار الشيخ فاخر أخوته والحكماء من أهله اتخذ قرار إعادته إلى

السماوة حيث سيكون شفاؤه هناك.

قالوا انه مرض الحنين!!

وقالوا أن الحمّى لا تزول إلا بتغيير المكان!..

وقالوا البقاء ليس من صالحه لاسيما والنحول أخذ منه الكثير من العافية.

وقالوا غداً ننقله إلى قضاء السلمان، ومن هناك سنستأجر سيارة تحمله إلى أهله.

كذلك قالوا ستة أشهر في بادية لم يعش فيها من قبل لهي عمرٌ كالدهر، وابنُ مدينة لم يألف حياة البراري لهو صَلبٌ لا يُدانى!..

(٧)

الأيام تتوالى أمامه..

والأعوام تتلاحق..

شهدَ موتَ أبيه، ولحاق أمّه به، ومجيء ابنته فاطمة إلى الحياة، وكبر ولده جميل وتعليمه المتوالي ليكون فنياً في معمل الاسمنت المُقام حديثاً غرب المدينة، وزواجه من موظفةٍ زميلة معه في العمل.

شهد تعاقب الوزارات في العهد الملكي، وتباري السياسيين في تولّيها: وزارات جميل المدفعي من الأولى حتى السابعة / وزارات نوري السعيد من الأولى حتى الرابعة عشرة / وزارات رشيد عالي الكيلاني من الأولى حتى الرابعة / وزارة طه الهاشمي / وزارة محمد فاضل الجمالي الأولى والثانية / وزارات علي جودت الأيوبي الثلاثة / وزارة عبد الوهاب المرجان / وزارة احمد مختار بابان.. وزارات بلغ عددها تسع وخمسون.

شهد تعثُّر برامج كبرى وضعتها معظم تلك الوزارات للنهوض بالبلد بغية جعله موازياً للدول المتحضّرة في شمال الكرة الأرضية وتردّي الخدمات المقدمة إلى الناس. ولم تحرز السماوة كمدينةٍ جعلها أنموذج لما ينال المدن

الأخرى من برامج سواء على مستوى الانجاز أو التعثّر سوى إنشاء مركز لتصفية الماء وتوزيعه على البيوت عبر أنابيب فاستحدثت دائرة (إسالة الماء) ليكون ارتباطها بدائرة البلدية وتُستوفى من الناس مقابل التمتع بماء عذب يصل بيوتها أجورٌ يحددها قارىء المقاييس " فضّولي أبو الحنّة ". هذا الرجل كان فرحاً بعمله كونه مرتبط بالحكومة ويأخذ مقابل خدماته راتباً ثابتاً جعله يسارع في خطوبةٍ ظنَّها لا تتحقَّق له حتى في الأحلام. (كان فضّولي يرتدي البدلة الحضرية ويطرق الأبواب باباً فباباً، ماسحاً المدينة جميعها حيّاً فأحياءً. يتفرس في العدّاد المثبَّت أول دخول أنبوب الماء إلى البيت، يطالع الأرقام الإفرنجية ثم يدوّن على ورقةٍ بمثابة وصلٍ من مجموعة وصولات تشكِّل دفتراً.. ومن هنا صار فضّولي مَصدرَ معلوماتٍ لكل من يريد معرفة أين يكون بيت فلان: في أية حارة، وبأي زقاق. ما هي أوصاف واجهة البيت، وما لون باب الدار... تنامى لفضّولي جاهٌ واسع.. إليه يأتي مَن يأمل تأجيل دفعِ المبلغ المترتِّب عليه. يهمس في أذنه: "عيني أبو عبّاس، أرجوك لا تقرأ مقياس مائنا هذا الشهر، ما عندي فلوس كافية حتى أسدد الأجور." فيدوّن فضّولي رقماً ضئيلاً حسب ما يرتأي.. يأتيه آخر "فضّولي! فدوة لا تمر على بيتنا، ولا ترمي لنا وصل. " وآخر يرجو ويعلّق: "اخوي فضّولي! هذي الحكومة ما تشبع، فليش تجمع لها أموالنا.. كُون رحيم ويّانا."... والحق يُقال.. أن فضّولي لم يسبب أذى للناس.. لهذا غدا محط ودِّ الجميع.)

شهد إعلان حلف بغداد كقوةٍ غربية تقف بوجه التغلغل السوفيتي في الشرق الأوسط والأقصى ويرى التظاهرات تندلع رفضاً له، وقبلها التظاهرات العارمة التي شملت عموم البلاد واستمرت أياماً جراء العدوان الثلاثي الإسرائيلي البريطاني الفرنسي على مصر في العام ١٩٥٦ وخروج مصر منتصرة بعد تأزم العالم ومخافة اندلاع حرب عالمية تكون أرض العرب ميداناً قتالياً لها .. تأتي الصحف اليومية تنقل أخباراً مهولة تُضَخِمها تقارير

صحفيين ومراسلين يرون في ما يبثون ويرسلون شهرةً لهم بحيث صارت أسماؤهم تتناقلها ألألسن عمّا يقولون وما يتصورون وصار الناس يقرأون تحليلات لا حصر.

شهد قيام الانقلاب العسكري في تموز من العام ١٩٥٨ مُطيحاً بوزارة أحمد مُختار بابان كآخر وزارة مَهرت عهداً ملكياً استمر ثمان وثلاثين عاماً. انقلاب دبّره ونفذه حفنةٌ من العسكريين الوطنيين؛ كان هدفهم إقامة حكم جمهوري بعيداً عن ملكيةٍ فشل وجودُها على أرض العراق، مُعلنين نظاماً جمهورياً بديلاً عنها يهدف إلى منح الحرية لكل الأفكار والأحزاب. لكن هذا الهدف سرعان ما سقط في هوّة التناحرات والصراعات. انتشر الدم وزادت مساحةُ هوَّةٍ أُريد لها أن تضيق ثم تنطمر. بدا أن القادة الوطنيين يقودهم عبد الكريم قاسم غير قادرين على مكر الطائفية المتفشية وجبروت العداء الطبقي المستفحل. لذلك ظلت البلاد تعيش على سطحٍ يميد، وحلم كبير لا يبدو أنه مسموح له التحقق رغم حبِّ الطبقات الفقيرة والمسحوقة لزعيمهم الذي وجدوا فيه المتفهِّم لمعاناتهم، ورغم الخطط الهائلة والطموحة التي وضعها لانتشال العراق من الإنهاك، والتقهقر، والخواء.

من هامش حرية قدّر جعفر وجودَها، مستفيداً من فرصة توجّه الدولة إلى احترام الفن والأدب والإبداع قبلَ فكرة إقامة معرض فني لجميع أعمالِه طرحها عليه أعضاء (رابطة الفن التشكيلي) المُنشأة حديثاً في الأول من تموز ١٩٥٩ حيث أشاروا إلى أنه رائد الفن التشكيلي في المدينة وأنهم ليحدوهم فخر أن يكون أول معرض تقيمه الرابطة مخصصاً لأعماله. أعماله التي وصفوها قيّمة لا تُقدر بثمن، مقترحين أن تكون قاعة "مدرسة سومر" مكاناً مثالياً لها، محددين يوم افتتاحه في ١٤ تموز حيث الذكرى الأولى لقيام الثورة.

يصعد جعفر إلى غرفة المرسم التي تركها مغلقةً لأعوام بعد أن سحبته

رتابةُ الأيام غب عودته من الصحراء في العام ١٩٣٦ فيدخلها زائراً كلّما عنّت عليك ذكرى.

يدخل إلى خارطة أيامه فتنصرف ثلاث ساعات كالبرق الخاطف يستعيد فيها وجوهاً رسمها في عشرينات القرن. يرى وهيبة تقف بين حشدٍ من زهور تتوهَّج بالبهاء والألق،. يحدِّق في وجهها ويتساءل وسط شعور بخنجر ينغلُّ في بطين قلبه: أين أصبحت، وكيف صارت، وما تأثير السنين عليها؟. يتذكَّر صديقه إلياس وهو يتطلَّع في بعض رسوماته، صارخاً: أنت ترسم كما يرسم انطباعيو باريس، يا جعفر!.. أنت لا تقل عن روّاد الانطباعية. يبصر وجه بهية وقوامها الذي رسمه شبه عارٍ بغرفتها في التياترو فيحاول الهرب من خطأ ارتكبه بحق وهيبة في ردّة فعل أرادها طعنةً لقدرٍ حرَمه من العيش لحظات عمره جميعاً معها فراح يدخل في عشقِ بهية الماجن.. يستعيد وجهَ صاحب الحداد الخمسيني يَقطر عرَقاً واليد تنهال بالمطرقة على الحديد الأحمر كي يصنع منجلاً لفلاح كان ينتظره في زاوية اللوحة فيتذكر أنه بعد إنجاز اللوحة بشهر توفي الرجل متأثراً بأنفلونزا قاتلة دفعت به إلى القبر ولمَّا يزل قادراً على صناعة جيوش من مناجل.. يستعيد مشهد وقوفه عند الفرات ليرسم ذلك الجسر الخشبي الذي شهد مرور الملك فيصل الأول في زيارته إلى المدينة في الثلاثينات ولم يعد له وجود هذه الأيام، إذ أزيلَ مثلما أزيلت الكثير من أعشاش الطفولة البهيّة رغم تعاستها.. يقف عند اللوحات التي ألهمته إيّاها الصحراء فيَتيه دِهشاً متعجباً، متسائلاً أحقاً أنا الذي خُلقت من تحت يدهِ كلُّ هذه الكائنات؟!

لم يقدر على اخفاء جذله، ولا يتنكَّر لمن خلقَ سروراً عميقاً في أعماقه سبق افتتاح المعرض؛ ويقصد بعض الشباب الذين أولعوا في الفن التشكيلي والذين رأى في رسومات عرضوها عليه مواهبَ بازغة تنتظر الآتيات من الأيام ليكونوا فنانين يُشار لهم بالانبهار؛ فقد تناهضوا بجهدهم الشبابي اليافع

وذوقهم الإبداعي المتأجج إلى إتمام المعرض ليكون جاهزاً. ألفاهم يكنّون له احتراماً وفيراً ويتباهون في كون السماوة تضمُّ فناناً قالوا عنه "كبيراً ".

غب ثلاثة أيام قصَّ قائمقام المدينة شريط الافتتاح. صاحبه في ذلك مدير شرطةِ القضاء ورؤساء الدوائر والمهتمون في الفن والأدب وجموع من الناس المتشوّقين لمشاهدة أعمال فنية يفتقدون إليها في مدينة تشكو التناحر والصراع. وقفوا عند اللوحات يتملّون الموضوعات والألوان . يبصر الإعجاب ينسكب من العيون، والثناء مفردات يسمعها تتهاطل من الأفواه. وفي الختام يلتفتَ القائمقام يشد على يده، يصافحه بتقدير عالٍ، وتهانٍ وفيرة.

ينتبه جعفر إلى أن لا أحد أولى اهتماماً للوحةٍ وضعها خاتمةً لمسار اللوحات، ولم يجد مَن يسأله عن مغايرتها لأخواتها. ففي الوقت الذي كانت المعروضات تعوم في ألوان زاهية لانطباعية مُبهرة كانت تلك اللوحة الفريدة تعرض بيوتاً متزاحمة مائلة كأنها تترنح، تلفّها دوّامة ريح ارتأى جعلَها بألوان متداخلة يمتزج فيها الأحمر بالرمادي، بالأزرق الداكن.. تلك هي رؤيته لما سيأتي، أو تنبؤه بما سيحصل..

يلزمه وقتٌ طويل ليخرج من هالةِ استفهام تنامى لديه وهو يبصر شخصين لا يدري كيف ألهته الباصرة عن باقي زوار المعرض لتتابعهما عيناه . الأول ضابط شرطة برتبة ملازم بقيَ لم يبرح المعرض ويتبع القائمقام وصحبه. والثاني شابٌ عشريني بوجه وديع مزروع بابتسامةٍ لا تفارق عينيه، يرتدي بنطلوناً رمادياً وقميصاً أبيض وحذاء اسود لميع. أبصرهما يدوران على اللوحات. يتوقفان عند واحدة وينتقلان إلى أخرى وسط زحام المشاهدين. شهد الضابط الشاب يطيل النظر في لوحتين: الأولى وجه وهيبة الباسم، والثانية وهي بقوامها المنتصب وسط الزهور النضرة فيما الشاب يتطلع إلى لوحة "صاحب الحدّاد" و"سباق الأحصنة في الصحراء".

يستدير الضابط باعثاً ابتسامة عريضة كأنها التهنئة الصادقة لإبداع

أحسن الرسّام تقديمه للزائرين.. ويخرج؛ بينما يقترب منه الشاب ويفارقه هامساً:

– أعتقد أنني شاهدتُ هذه اللوحات من قبل؟

يدهش جعفر، فيهتف به:

– أين؟

لم يرد.. ولم يدع له الشاب فرصة استفهامه أكثر.. كان قد خرج يمسك بيد صديقٍ له ينتظره عند باب المعرض.

تلك الليلة عاد جعفر إلى أوراقٍ أهملها، ورسائل متفرقة تداخلت بينها.

عاد ليبحث عن رسائل إلياس. وكانت خشيته أن لا يجد واحدة منها فلا يضفر بعنوانه مدوَّناً على الغلاف الخلفي لمظروف الرسالة... لكنَّ الحظ كان معه تلك المرّة؛ فلم يكد يفرّق بعض الوريقات حتى انبثقت فراشة زرقاء تهفهف لتزف خبرَ وجود عنوانه على ظهرها.

تلك الليلة كتب بما فاض به القلب وسكبته المشاعر:

"صديقي إلياس

كانت مفردات رجائك أن لا اترك الفن تقرع في فضاء ذاكرتي طوال الأعوام المنصرمة الراكضة التي افترقنا خلالها مثل ناقوس في كنيسة أتخيلك الآن داخلها ترتل لسيدنا المسيح تراتيل الطاعة، والخشوع، والسماحة.

اليوم يا صديقي افتتح أول معرضٍ رسمي لي.. واليوم كان الاحتفال بما أنجزت وعرضت باذخاً. الذين أبصروا اللوحات غمرتهم الدهشة من كوني أرسم بانطباعية مثيرة. وراح عشّاق الفن التشكيلي والخائضون في حرفته يسألونني كيف تعرفت على المدرسة الانطباعية، وما هو تأثير مانيه ومونيه وبيسارو ورينوار وسيسلي عليَّ وكأنني اعرفهم وافهم دواخلهم وانطباعاتهم وتوجهاتهم الفنية.. وأنا أضحك في داخلي محاولاً خلقَ ابتسامةٍ على محيّاي. لا أدري ما أجيب سوى أنني قلت: مردٌّ تعلمي لصديقٍ خرافي أسمه إلياس..

لم يكن الرجل رساماً بل كان يضمر ويفشي اعتزازاً بي ويجدني أستطيع الرسم كما يرسمون، وقادر على الإبداع كما يبدعون.

هل حقّاً أنا هكذا، يا إلياس؟.. أدري أنك بانتظار رسالة منّي يوما لتخبرك بما أخبرك به الآن..

أنتظر ردّك الذي أخمّنه جملةَ فرحٍ لا تنتهي.."

صباح اليوم التالي كانت رسالة جعفر أول رسالة تُرمى في صندوق الرسائل.. وكان أمله في وصولها إلى إلياس حيّاً ليقرأها بعين الحلم الجميل الذي تمنّاه يوماً.. حلم النجاح الباهر والسمعة الفنية والألق الإبداعي.. بيدَ أنَّ الأيام مرّت، وتعاقبت الأسابيع، وتتالت الأشهر ولم يرد من إلياس جواب.. هل نسيه إلياس؟.. هل أخطأت الرسالة الجهة التي توجهت إليها؟.. هل توفي إلياس فرُكِنت الرسالة وضاعت في سديم الإهمال؟.. هل.....؟

(٨)

ذلك الوقت الساخن من ظهيرة العاشر من أيلول ١٩٥٩ فجَّر في المدينة حدثاً كانت فيه الدماء حِبراً للتدوين على صحائف التاريخ. فبعد حفنةِ أيامٍ من توزيع المنشورات واستمرار توتّر الحال وتواصل دوريات الشرطة في سوق وشوارع المدينة، وشعور الشيوعيين أنهم مرصودون ومُحارَبون انطلقوا في تظاهرةٍ سُمع دويّها يدخل من فمِ السوق المنفتح على الكورنيش. هذا يعني أنهم انطلقوا من الكازينو الحمراء المطلة على الفرات والتي جعلوها لافتةً يجلسون تحت رفيفها والفرات يداعب وجوههم بنسماتٍ تمرُّ عليه مُترِبة ساخنة فيتلقفونها أنفاساً مُحببة تذكّرُهم بحريّةٍ باتوا يفتقدونها بعد أشهر قليلة من الانفتاح والعهد الذي حسبوه فاكهة شهية تأتيهم على طبق من انتصار.

مرَّ بعض الفتية راكضين فراراً يقطعون السوق فيواجَهون بأسئلةِ أصحاب الدكاكين عمّا يجري. فيأتي ردهم سريعاً: الشيوعيون يتظاهرون والشرطة

تحاول منعهم.

لا يدري جعفر لماذا قفز الفضول نافراً إلى بحيرة دواخله وراح يرجُّ ماءها الراكد أو الذي عزم على جعله راكداً. هاجس ما اشتعل في مضارب الروح فاندفعَ خارجاً. يسحب كبنك الدكان إلى أسفل بنصف انغلاق، ويتحرك على جناح السرعة للاطلاع على ما يجري. صارت الأمتار الخمسين بين دكانه ونهاية السوق الظليل بالسقف المعدني المنفتح على سماء شارع الكورنيش طويلةً. رأى الشرطةَ ينتصبون في موقف المتوتِّر، المتأهب وجمعاً من المتظاهرين يقفون على بعد عشرين متراً يهتفون بشعارٍ كثيراً ما ردَّه الشيوعيون أو يكتبونه على لافتاتٍ لهم تنتشر على الحيطان في الشوارع والأزقة (سنمضي، سنمضي إلى ما نريد // وطنٌ حرٌّ وشعبٌ سعيد).

ما الذي أوحى لجعفر أنَّ مَن يراه يقود المظاهرةَ كان وارد السلمان بأعوام الشيخوخة وقد ارتدى بدلة عمل زرقاء ورفع مِطرقةً تاركاً فمَه يردد الشعار فيحاكيه الجمعُ بالترديد المُنغَّم؟!.. ما الذي راغى الدهشَ داخل جعفر فجعله يتساءل: أحقاً هذا الذي أمام ناظريَّ وارد السلمان؟! كيف اندفع ليكون هكذا؟! وما الذي دعاه ليكون في مقدمة المواجهة؟!

الأسئلة بترها إطلاق نار صوَّبه شخصٌ كان اظهر رأسه من بيت حمّودي الداشر باتجاه المتظاهرين؛ وحمودي هذا كان من القوميين الناقمين على الشيوعيين، قاد بعضاً من أصحابه خلال الأسابيع الماضية حملة لاجتثاثهم من المدينة حتى لو تطلَّب قتلَهم جميعاً كما كان يردد بلا حساب لتبعات الأمر، منطلقاً من فتوى جاءت من النجف تصرِّح عَلنا بانَّ (الشيوعية كفرٌ والحاد) فوجدها فرصةً تحقِّق له بغيته وتُنجز مشروعَه الكيدي الكبير. ذلك افزع الشرطةَ المرابطين فظنّوا أن النار تُطلق عليهم من المتظاهرين ما جعلهم يستلون مُسدساتهم من أغمادها ويوجهون الرصاص إلى أجساد مَن هُم أمامهم.

رأى جعفر وارد السلمان يندفع ملوّحاً بيديه والمطرقة في يمينه مطالباً الشرطة بإيقاف الرمي فيما اعتقدوا أنّه يندفع لمهاجمتهم. كانت الرصاصات الأولى اخترقت صدره فسقط أرضاً. لحقه متظاهرٌ آخر في السقوط قريباً منه بينما فزع المتظاهرون فولّوا متفرقين ذاهلين مندهشين. اندفعوا داخل الأزقة القريبة وسط استمرارِ لعلعة الرصاص. وفي اللحظة التي راح الشرطة يلاحقون الهاربين لإلقاء القبض عليهم اندفع جعفر إلى وارد السلمان ساعياً لإسعافه، وطالباً من الناس التحرّك إلى الآخر ليسعفوه أو ينقلوه إلى المستشفى.

أطلَّ الشخص الذي أطلق الرصاص من الشرفة برأسه من وراء حائط بيت الداشر ليستطلع الموقف وتوارى بعدما اشبع فضوله الدموي من الجسدين الساقطين مضرجين بدماء راحت تنساب على الأرض.

لم يكن السلمان محتفظاً ببقايا أنفاسٍ، ولا عينين منفتحتين، ولا لسان يستطيع أنْ يقول كلاماً للشرطة الذين أطلقوا عليه الرصاص، ولا لجعفر الذي لا يخمنَّه سيلتقط بعينيه تفصيلات مَقتله ويقف عند رأسه يشهد اغماض العينين اللتين كثيراً ما تمنى امتلاءهما بمشهد الحدائق الباهرة والبنايات العامرة والناس يَرفلون على خميلة الزهو. كانت أعوامه المتجاوزة الستين قد تجمعت في بقعةِ دمٍ ساحت على التربة التي أحبَّها واخلصَ لأهلها، خصوصاً مَن كان يبصرهم ينسحقون برحى الفقر، ويواجَهون من قبل سالبيهم بتجاهلِ مطالبهم المشروعة.

تذكَّره جعفر!

تذكَّر زيارة السلمان له يوم توقيفه في العام ١٩٣٥ وتفوهه عبارات سمعها جديدة على لسانه لم يكن ينطقها من قبل. أكد فيها على أحقيّة العمال والفلاحين في قيادة الدولة وبناء حياة عادلة يسودها السلامُ الأممي. يومها اكتشف جعفر أنَّ شيئاً في السلمان تغيّر وأنه يضمر في صدره ما لا يريد أن

يكشفه رغم ثقته به واحترامه له. لا بد أنَّ مردّ ذلك حمله للفكر الشيوعي وانتماؤه في ما بعد وبقاؤه وفياً له ولمبادئه.

لفت انتباه جعفر ارتفاع ذراع الساقط على بعدِ أمتار مضرَّج بالدماء كأنه يومىء له مستنجداً إذ لم يدنُ أحدٌ منه خشية عودة الشرطة وسقوطه في شراك التهمة. رفع رأس السلمان من فوق فخذه قافزاً إلى الجريح..

هاله ما رأى!..

رأى الشاب الذي كان يطيل النظر في لوحات معرضه الفني قبل أيام! هوَ...! هوَ....! هوَ مَن دنا منه وقتذاك، كاشفاً أنه سبقَ وشاهد تلك اللوحات .

كان الدم يتدفَّق من فمه وعيناه تجاهدان لرفض انطباق الأجفان.. تفوَّه متسائلاً:

– هل عرفتني؟

– ألستَ أنت الشاب الذي...

– نعم أنا الذي التجأتُ إلى بيتكم فارّاً من هؤلاء الذين أطلقوا الرصاص علينا الآن..

صرخَ متألماً:

– آ، يا الهي!.. أحقّاً أنت؟

– انقل امتناني لزوجتك الكريمة.. لقد كانت لي أمّا بحق في تلك الساعة التي تشبه ساعة الحشر.

– سأفعل!.. ولكن دعني أحملك على ظهري و....

لم يفه بكلمةٍ!.. ولم يترك لجعفر فرصة التحدّث إليه. فقد انتصرت الأجفان على العينين فخذلتهما.. تهالكت الذراعان اللتان همَّ بسحبهما ليعينانه على حمل جسده فترهلتا.

مات الاثنان وهما على مرمى فراتٍ يوماً ما عمّدَ هذا الأزلي جسديهما

بماءٍ عشقهما له..

آآآآآآآآه!.. أطلقها جعفر بعمقٍ، وبجرح.

عاشت المدينة أياماً من الحزن.

تذهب إلى فراش الليل قلِقةً، متهجِّسةً خائفة. وتنهض على نهارٍ واهنةً، مكتئبةً، مرتابة.

مقتل الاثنين زرعَ في النفوس يقينَ أنها مدينةٌ لن تهدأ، وإن البلاد عموماً دخلت نفق الحزبية المترجرجة.. أحزاب جاءت من رحم الصراع الاجتماعي والطائفي لا من قلبِ أفكارٍ ترفع شعاراتها لو طبقت خلقت مجتمعاً مثالياً تسوده عدالةٌ تقارب عدالة السماء. دخلت السماوة منذ ذلك اليوم الدموي مرحلة العيش على كفِّ أحداث لن تنتهي كانت فيها الاعتقالات يومية والمداهمات من نافلة الممارسات المألوفة.

فلا عجب إذاً إن انتشر رجال الأمن في زقاق (العراية) لاعتقال سالم برهم العامل في ورشة كاكه حمه الكردي لصناعة المواد الاحتياطية وإخراجه من بيته بوضعٍ مزرٍ لم يُكمل فيه ارتداء ملابسه، وسماع أخبار تعذيبه في نظارة التوقيف، ثم ليجر وراء اعترافه تنظيماً خيطيّاً من فُقراء مُعدمين ساقهم الحظُّ العاثر ليكونوا سياسيين في حزب منقومٍ عليه.

وليس غريباً إن انهال شرطي بهراوةٍ على درويش بائع الخضار أمام أنظار المارة في السوق لأنه شُكَّ في أنه استخدم قطعة قماش حمراء ينظف بها الفاكهة المُغبرَّة ما يدلل على انه شيوعي يناهض بها رجال أمن لديهم أمر بملاحقة الشيوعيين، ذلك أن كل شيء أحمر صار يثير توجس الشرطة والسلطة الأمنية فبدا رجالها كما لو كانوا ثيران مصارعة (الميثادور)، يثيرهم اللون الأحمر فيندفعون هائجين مهاجمين.

وليس غريباً أن تجري اعتقالات واسعة في زقاق (السبوسة) أو شارع (مصيوي) أو زقاق (المعمل) و(دبعَن) فيُساق عشراتٌ من طلبةٍ شباب

وعمال وفلاحين وأصحاب مهنٍ متفاوتة إلى سجن مركز (الخناق) فيمتلىء بهم وتضيق مساحته في استيعابهم، ثم تبدأ مرحلةُ بكاءِ الأمهات وقلق الزوجات وحيرة الآباء في إنقاذ أبنائهم وهم لا يدرون من أين جاءتهم هذه البلوى فراحت تسوقهم سجناء يتلقون الذل والمهانة والتعذيب..

وليس غريباً أيضاً أن ترى الشيوعيين يتلقون الضربات تلو الضربات وهم لا يحرّكون ساكناً. فلا هم يتوجهون إلى الدولة ومركزها في بغداد للتفاوض وحلّ الاشكالات العالقة ولا هم يحلّون الحزب وينأون عن اضطهادٍ يتعرضون له بغير ما سبب، ولا هم يقدّرون إمكانيتهم العسكرية في عمل تغيير في الحكومة خصوصاً ولهم العديد من الشخصيات العسكرية لمَّا تزل تمارس مسؤولياتها في المستويات العليا من الدولة قريبة من الزعيم قاسم. لذلك كان الناس في حيرةٍ وارتباكٍ وتساؤل: كيف يرتضي هؤلاء الشيوعيون تلقّي الضربات العنيفة وهم عُزَّل فلا يفعلون شيئاً؟

وكان إن أعتُبِرَت السماوةُ مصدرَ قلقٍ لسلطةِ الجمهورية مثلما كانت مثار ارتباك للعهد الملكي. فاقمَ من ذلك بعض الأفراد المنقولين من مُدن مختلفة بقصد الإبعاد كونهم يشكّلون مصدر إزعاج للحكومة في أماكن تواجدهم فيثار السؤال لدى أهل المدينة: لماذا يؤتى بهؤلاء الناس الذين يبدون في كياسةٍ وحسنِ تصرف وسلامةِ ذوقٍ ليكونوا موظفين بسطاء يُطالب رؤساؤهم بتتبع حركاتهم داخل ميدان العمل ويقوم رجالات الأمن في متابعة تحركاتهم خارج الميدان؟.. كذلك كان الناس ومنهم الشباب المتحفِّز لإطلاق الأسئلة المشحونة بالفضول يبصرون السيارات المشبّكة التي بمثابة سجن مُتحرك تنقل باستمرار سجناء باتجاه الصحراء حيث (نقرة السلمان) السجن الصحراوي الهائل ليعيشوا مُبعدين نائين عن الأهل والناس. ذلك جعلهم يبحثون محمَّلين برغبة الوصول إلى النتائج ما جعل المدينة في حال من عدم الاستقرار الدائم والشك المستمر بنوايا الحكومات. فيتوالد اتجاه ناقد، ناقم،

رافض... يقابله اتجاهٌ انتهازي، نفعي، حرباوي. استخلص جعفر كل ذلك من تجاربه في حياة لم تمنحه فرصة حيازة لذّة ولو بحجمِ عامٍ واحد.

اتخذ قرارَ أن يكون متفرِّجاً منذ انطلاقه باتجاه الصحراء براءً من تلوّن الناس هنا. ناس مجبولون منذ زمن بعيد على نفعية بغيضة، تلك التي خذلت علي بن أبي طالب يوم ظنوا انه سينتصر على معاوية فيصبح الشام لديهم لقمة سائغة لتوزيع الغنائم الباذخة فدعوه إلى المجيء للعراق وقيادة الدولة الإسلامية من الكوفة، حتى إذا اكتشفوا بأس معاوية ودهاءه، وتيقنوا من عدم قدرة الإمام علي في الانتصار عليه انفضّوا عنه غير أبهين بتوسلاته لهم في مقارعةِ الفساد والظلم وانحراف دين الرسول الأعظم.

اتخذ جعفر قرار أن لا يتدخل في أمرٍ سيجعله مثل الحسين ابن علي يوم نادوا عليه أن يأتيهم من المدينةٍ طامعين طمعاً دفيناً في مُلك الشام وشعوراً أن موت معاوية سيجعل الدولة الأموية في انهيار يسهل غزوها واغتراف مغانم لها مبتدأ وليس لها منتهى لاسيما وأنَّ من خلَّفه ولده يزيد الماجن الفاجر السكّير، حتى إذا اكتشفوا دهاءَ يزيد وأيقنوا أنه ليس بهذه الصفات التي تدغدغ حاسةَ التغلّب عليه انهالوا على الحسين يُشبعونه وأهله غدراً وطعناً وتجاهلاً متنصّلين عن دعوةٍ وجّهوها إليه كإمام لهم فإذا بهم يخذلونه ويدمونه ويشتتوا عياله فيسيّرونهم أسرى.

وضع جعفر كل ذلك إزاءه ووجد نفسه عبر خمس وعشرين عاماً بعد إطلاق سراحه ينأى عن كلِّ ما هو سياسي. ينأى عن أيِّ أمرٍّ يحسبه مراءات، وزيفاً، ودجلا. يعيش على ما يدر به دكان الأقمشة رزقاً للعيش، ومكاناً للاستقرار.

ولكن هل تنتهي المفاجآت فتقر أنه في زمن لا يضيره ما حمل منها، كونه بعيداً لا في العير ولا في النفير؟ هل تتركه الأقدار يسير بيومه كيفما يشاء؟ .. المحصلة تشير إلى أننا مهما عشنا في بروج مشيدة ستدركنا

المفاجآت، ويأتينا ما ليس في التوقّع ليطرق أبوابنا فيثير فينا الاستغراب الموشّى بالقلق إن لم نقل الفزع المُحنَّى بالهلع خصوصاً والمدينة وما حولها البلد تعيش على كفٍّ مرتعشة.

ففي ساعةِ عصرِ احد أيام تشرين أول، ولم يكن قد مر على مقتل السلمان ورفيقه الشاب أسبوعان دخلت دوريةُ شرطةٍ راجلة فناء السوق وسط تتابع أنظار أصحاب المحلات والمارة وخشيتهم من إن تكون قد جاءت بأمر اعتقال أحد. المفاجأةُ التي تصيَّرت ذهولاً على الوجوه أبرزت وقوف الدوريّة أمام دكان جعفر بن حسن درجال وطلبهم أن يصاحب احد أفراد الدورية إلى مركز الخناق بأمرٍ من ضابط المركز لسببٍ يجهلونه.

في الطريق الذي راح يطبعَ خطاه على أديمِه هجمت مشاهدُ فيلمِ الذكريات: تذكَّر مركزَ التموين والجموع التي كسرت أبوابَه وتوجَّهت تطيح نهباً بمحتوياته قبل أربعين عاماً.. تذكّر تهجيرَ الموظفين وعائلاتهم، ووهيبةَ بتلك الدموعِ والنظراتِ المتوسّلة لإنقاذِها من الهول التي وجدت نفسَها وعائلتَها فيه.. تذكَّر إلياس وقلبَه الكبير وروحَه السَّمِح ودعواته أن لا يهملَ نفسه فيعيش كما يعيش أبناءُ مدينته في جهلٍ ارتضوه وهوان لم يتكاتفوا على مناهضة خالقيه.. تذكّر فارضَ العلوان وجابرَ الدخيل وصراعَهما لتكريس هيمنتهما على طرفي المدينة.. تذكَّر بهيَة وعشقَها النزقي ولهفتَها لأن يكونَ العشيق الأبدي ثم صفعةَ القَدر لها بطردها من التياترو.. تذكر جموعَ الذئاب التي كانت تتسلل إليه من خلل الجدران والسقوف بعيونها الحمر وهمهمتها المليئة بالتوعّد المثيرة للفزع.. تذكّر ساسون ابن داود زلخا، ومصاحبته له، وبثِّه أسرارَ حبه وإفشاء طموحاته.. تذكر العملَ الوظيفي ورغبته في أداءِ خدماتٍ لمدينته التي جسّدها صدقاً بعيش طابعُهُ البؤس والشقاء.. تذكر زكيّة وولده جميل وفراقه عنه ولمّا يتعدى العام.. تذكر الحزب الذي انتمى إليه فقاده إلى فم الموت.. تذكر السجنَ والمحاكمة والنقل بالسيارات الشبكية

المرعبة.. تذكر اللحظات الكابوسية تومض لهم من بعيد منذرةً بتهيؤ البنادق وجعل أجسامهم مناخل يفعلها الرصاص.. تذكر تتكُّر الناس له وهروبهم منّه، وتفاديهم الحديث معه والتغاضي عنه.. تذكر رحيله وعيشه في الصحراء وتلك الساعات المحمومة التي وضعته على شفا موت كان دنا منه يوماً فعاد لينصب له فخ اختلاسه لروحه.. تذكر أعوامه الغائصة في هلام الخدر بعيداً عن كل ما هو سياسي يقود إلى بئر الخديعة السياسية.. تذكر مقتل وارد السلمان أمام ناظريه، واغماض عيني الشاب الذي بكت عليه زكية عندما لم تجده في غرفة مرسمه بعدما اتخذت قرار إخفائه متحمِّلة التبعات..

وها هي اللحظة تقوده إلى مركز شرطة الخناق لتعيد له ذكرى لحظة سوقه منتصف تلك الليلة النائية مُتَّهماً بالخيانة العظمى.

كان فناءُ مركز الخنّاق موحشاً؛ والشرطي الذي كان يرابط حاملاً بندقية سيمنوف روسية الصنع بدا متثائباً غير آبهٍ لحضوره، حتى أنه أجابَ ببرودٍ على سؤالِ مرافقه الشرطي إن كانَ الضابطُ في مكتبِه..

دخل المكتبَ بعدما سبقه الشرطي في الدخولِ وعاد ليقول: تفضَّل.

مواجهةُ الضابط الشاب الذي حضر معرضه الفني وتخلَّفَ عن القائمقام وصحبه أسقطت جعفر في بركةِ هولِ المفاجأة..

نهضَ الضابط من خلف المنضدة الخشبية الساجيّة اللون. دعا جعفر للجلوس على كرسي يحاذي المنضدة وجاء هو ليجلس في الكرسي الذي يقابله. يطيل النظرَ به. يتملّى مظهره.. عيناه تسوحان على وجهه بتجاعيده الستينية، وعلى شعره الذي صار أشيبَ يحكي تهافتَ الأعوام، ثم تهبطان على قميصه (الآرو) الأمريكي الصنع وبنطلونه السرج الإنكليزي. يبتسم، فيقول:

– ما زلت تحتفظَ بالشباب ورونقِه.

ما الذي يبغيه هذا الضابط من نظراته، وماذا يقصد بالكلمات؟!.. أتراها

ابتداءات لتحقيق سيفجِّر أسئلتَه في وجهي سؤالاً بعد سؤال أم استمالة لمعرفة يُراد منها الصداقةَ أولاً، والسقوط في شراك السلطة ثانياً، ثم طمس تاريخي النظيف في نظر مَن ترفعتُ عليهم بعد تجاهلٍ وغدر ثالثاً؟!

كان الشاب ينتظر من فم جعفر ردّاً يعبر عمّا خالجه. بيدَ أنَّ جعفر أبدى صمتاً.

– لقد أدهشني أنك فنان بارع، يا عم.

كلمة "عم" أحالته إلى مفهومِ أنَّ خيطاً من الاحترام يمدُّه هذا الشاب سببه حبُّه للفن، ورغبتُه في أن يتعرف إلى فنان...

ولـمَ لا؟!.. لقد شاهده يطيل النظر في اللوحات.. يتطلَّع بباصرةٍ متفحصةٍ، ويتفاعل بقساماتٍ اكتشفها تتغير من لوحةٍ للوحة.

– إلا تعرفني، يا عم؟

– أعرفك الآن ضابطَ شرطة، وعرفتكُ قبلاً زائراً لمعرضي؛ رأيتك ترحل مع اللوحات بانفعال، ففرحت لأنني حصدتُ إعجابَك.

– فقط ! هذا كل ما تقوله؟!

– .....

نهض من مكانِه وعاد للجلوس خلف منضدته. مدَّ كفاً تسحب جارواً، وراح يتفحَّص شيئاً. ثم اخرج مَلفّاً فتحه. ومن بين أوراقه استل ورقةً، دفع بها إلى جعفر:

– أتعرف هذا الوجه؟

لا يدري الرجل الستيني لماذا انتفض في الرأس دوارٌ عارم، ولفَّت عينيه غشاوةٌ ضبابية! لا يدري لماذا احتاج إلى ماءٍ ليرطِّب فمه الذي جفَّ ولسانه الذي تخشَّب؟

لماذا توقَّف الزمن تلك اللحظة ليعود عقوداً من سنين حسبها انقضت ولا يهوى العودة إليها، ذلك أنها ماضٍ حمل كل ما يؤسي القلب ويوجعه؟

لماذا كلَّما أغلقَ باباً من الأوجاع المتزاحمة المتيقظة لمداهمة الروح التَّعِب تواريت أبواب حاملةً أعاصير من تطيّرٍ وزوابعٍ من قلق؟

كان وجهُ وهيبة يملأُ الورقة، والورقة هي نفسها التي أهداها إليها يوم جلسا في ظل شجرة الكالبتوس.

عرف الآن لماذا توقَّفَ هذا الشاب طويلاً عند اللوحتين اللتين احتوتا وهيبة، وكيف لاح له كأنه كان يدخل في حوار معهما..

– أيكون أنتَ....

– نعم، أنا ابنها البكر طارق. وهذه أمّي وهيبة.. لم نكن نعلم بهذا الرسم طيلةَ حياتِنا حتى حانت....

وتوقَّفَ!

توقّفُه جعل جعفر حسن درجال على وشكِ أنْ ينهار في الكرسيَّ الذي تمنّاه تلك اللحظة يستحيل تابوتاً يضمُّ جسده.

– لا تقل لي أنها...

– لقد توفيت يا عم.. توفيت في العام الماضي. ولم تسر أحداً غيري بهذا الرسم. حدثتني عن حبٍّ شريف كان بينكما، وقدرٍ لم يرحمكما، وأعرافٍ كانت برزخاً أمام هنائكما.. أخبرتني أنها لم تتزوج إلا بعد أن عرفت انك تزوجت. وكان أبي قد تقدّم إلى جدّي عبد الكريم شوكت لخطبتها فدهُش أنها وافقت بعد أن كانت ترفض كل خطيب يطلب يدها. كان أبي ضابطاً يرتبط بقرابة مع جدّي. كان لطيفاً، حنوناً معنا. مات قبل أشهر إثر وفاة أمي. لقد أحبها حبّاً خالداً فلم يَطق فراقها.

صمت قليلاً، قبل أن يرفع نظراته المتصالبة على وجهها الذي في الورقة:

– لقد ترجّتني وهي على فراش الموت أن أعيدَ إليك هديتَك لتحتفظ بها، ظنّاً منها أنك خير حافظ لها.

– لا، بل هي رسالة على أنها احتفظت بحبِّها لي حتى اللحظة الأخيرة

من حياتها – قال متمتماً في سرّه – .. يا لوفائك يا وهيبة!

ساد بينهما صمتٌ ثقيل، لم يشأ الدخول في التفاصيل، ولم يجرؤ على طرح أسئلةٍ حسبها لا تنتهي.. فقط قال:

– اعتبر نفسك ولدي، وأنا أبوك.. أرجو أن تزورَنا. وإذا رغبت أن تعيش بيننا فهذا سرورنا.

(٩)

تلك الليلة لم ينَم جعفر!

تلك الليلة كانت مأتماً كبيراً ومهيباً في نفسه..

لقد ماتت وهيبة ولم يبصرُها مرةً..

ماتت وهيبة ولم تفارقها أيامُ حبّهما العذبة، الرائقة، البريئة.

(١٠)

أيامٌ من الكدر، والكمد والألم عاشها جعفر.. أبصرَ خلالها الأحزانَ تهاجمه من كل صوب.

رأى الأحبة يتساقطون كورق أصفر من شجرة الحياة، وهو الصاغر لما يرى..

رأى الأيامَ تتوالى، وأفراسَ الأعوام تعدو.

رأى مدينةً تصحو وتنام على خواءٍ وتهالك وضياع.

رأى صراعاً، ونفاقاً..

مراءات وأكاذيب..

رأى أحزاباً أريد لها أن تنتشلَ الشعبَ من مستنقعِ الضياع، وتنقذهُ من براثنِ الديجور لكنّها هي مَن سقطت في هوّة العَمى، وتاهت في سديم العَتم، فأفشلت تجربةَ أولئك الذين جاءوا بجيوشِهم الجرَّارة قبل أربعة عقود؛ رافعين

شعار التحرّر لا الفتوح.. الحضارة لا الجهل. وخرجوا معتقدين أنّما بذروا بذرةَ التغيير التي ستنبت شجرةً وارفة تحمل ثمارَ التقدم الناجز، والمعرفةَ الثرّة، والنورَ الباهر، والرُّقي اللافت، والسرور المتناسل، والبهجة المهفهفة، والتحاور المتحضِّر، والتعبير الحر، والكتابة المؤثِّرة، والتدوين الفاعل، والفن المحبوب، والأدب المرغوب، والموسيقى الساحرة، والأناشيد الغامرة، والحب الطاغي، والمودّة المباحة. والأحلام الطليقة، والآمال الهاطلة، والرزق الوفير، والخير الشامل، والعطر الفائح، والبياض الصائح، والحميمية المتبادلة، والوفاء العميم، والصدق المبارك، والعاطفة الهادئة، والزغاريد الصادحة، والكركرات الباذخة، والبريق الطليق، والمطر الراقص، والخوف الزائل، والظلام المنتهي، والفقر المتقهقر، والحزن الهارب، والجهل الممحو، والقلق المنزوي، والفاجعة العابرة، والفراق المتضائل، والتنكيل الغائب، والخداع المطرود، والزيف المسحوق، والغدر المرفوض. لكن شيئاً من كل هذا لم يحدث.

الذي حدث هو أنَّ جعفر مُخلفاً ستيناً من الأعوام وراءه صار يتناسل في رأسه شعورٌ أنه يعبر قناطرَ تحتها مياهٌ تغلي، ونيراناً تتأجج. شعبٌ حكمَ عليه القدر أو أريد له أن يعيش الايامَ مُحتدماً يعطي ضريبة دمٍ مراق هادر من أجل حياة يومية. شعبٌ جُبل على رؤية العنف تتجسَّد تفاصيلُه باللحظات وأناسٌ تخلَّت عن قلوبِها واستبدلتها بالكراهية والبغض مستعينةً بغريزة الافتراس والوحشية، تماماً كما تمارسها أشد الحيوانات فتكاً بالمخلوقات التي تعيش بينها فيسقط جراءها الأبرياءُ صرعى. تُسحق تطلعاتُ المتطلعين، وتطفأ عيونُ المتأملين تغييراً للمشهد الرمادي للحياة ذلك أنَّ بذرةَ الاستحواذ على هذه الأرض منذُ القِدم تتنامى كأنها ولِدت مع ميلادِها، وأبجديةُ الفتكِ تتوالدُ كأنّها لا تريد أن تنتهي. فمنذُ أنْ وُضِعَ (لوكال زاكيزي) مؤسِّس أول دولة سومرية مع عائلته قبل أربعة آلاف سنة في قفص وأُحرِقوا بكل وحشية أمام الأنظار وحتى هذا اليوم تسيلُ الدماءُ وتهدرُ لمجرد ارتفاع

صوت يطالبُ برفعِ مَظلمة أو تقدُّم يدٍ لتنال حقّاً من جُهدٍ بذلتُه.

من موقعه في الدكان والوقت عصراً لمح جعفر طارقاً قادماً بملابس مدنية خارج أسر الدوام الوظيفي فاستعاد مشهدَ قدومٍ وهيبة وأمّها! استيقظت تلك الجذوة النائمة، الخامدة في منعطفاتِ الذاكرة فدعاها للتنامي سعياً لامتصاص رائحةَ وهيبة.

دعاه للجلوس، فجلس.

راح بعدها يشرح له جانباً من حال السماوة منذ العشرينات: كيف كانت! وكيف عاشت،. أعطاه وصفاً للمكان وقراءةً للزمان، مارّاً بالأحداث والشخوص، مُعقباً على أمرٍ يراه يستحق التعقيب، ومارّاً مروراً عابراً على مَن لا تأثير له. حدثه عن جدتّه جوخه ونصائحها له بخصوص النظر والتعامل مع الناس: هنا؛ في بلدتنا هذه، وفي بلدنا هذا! يحدث كذا.. وكذا..!.. طفق طارق يصغي بانتباه كما لو كان يريد استعادة زمن أمه في هذه المدينة. المدينة التي جمعت أمُّه منها ما حسبته يستحق أن يغور في تربة ذاكرتها رغم المرارة التي انتهت عليها هي وعائلتها يوم الإغارة عليهم وترحيلهم.

حدَّثه.. وحدثه!.. حتى جاء اليوم الذي ختم به الحديث وأعلن رغبة أن لا يبقى طويلاً في هذه المدينة التي هي نموذج لمدن البلاد؛ يراها كل ذي بصيرة تشهد تنامياً لصراع دفين يُراد له أن يتفجر في أية لحظة بين فقراء مسحوقين جاءتهم الشيوعية تدغدغ مشاعرَهم بغدٍ شيوعي تعمُّ فيه الحرية، ويشترك الناس في تقاسم الثروات، ويقود المجتمع نخبةٌ من العمال والفلاحين، ولن يكون هناك اضطهادٌ، ولا تجبّرٌ، ولا استغلال. ووعود كهذه ترسم غداً حُلمياً جميلاً لا يمكن لأيةِ مخيَّلةٍ أن ترفضه.. في المقابل شرائح ميسورة الحال تترفَّع على الفقراء، ترفع شعارَ الديمقراطية كحلٍّ أمثل للمجتمع وهو شعار لا شكَّ أن تجسيده على ارض الواقع يحقّق رَفاهاً وتقدماً وتحضّراً، لكن مَن رفع هذا الشعار لم يكن يقبل الآخر كتجسيد احد مفاهيم الديمقراطية،

فضلّوا يناهضون الأفكار الأخرى بما لديهم من وسائل؛ وهم نتاج هذا المجتمع العاج بالمتناقضات.. ثمّة أيضاً أفراد معدودون جاءوا بفكرةٍ بناء وطن قومي من المحيط إلى الخليج اتخذوا لافتة تحمل اسم " البعث "؛ اندفعوا برغبة تحطيم الشيوعيين كأعداءٍ صميميين، وفكّروا وخططوا كيف ينتقمون منهم.. وهناك العامّة من البشر الذين لا يرون في السياسة غير تأسيس لصداع دائم وتناحر لا طائل من ورائه غير التجنّي والتضاد والألم.

وسط هذه الدوّامة المستمرة وتقدم المستقبل الغامض، وحيث الناس تعيش أوائل أيام عام ١٩٦٣ جاء طارق يوماً ليدفع بورقة أمام أنظار جعفر.

قال: اقرأ يا عَم.. ستعدها مفاجأة!

قرأ العم أمراً رسمياً من مديرية الشرطة العامة بنقل الملازم طارق إلى بغداد.

سأله: كيف حدث هذا؟!.. كيف! ومتى سعيت للحصول على هكذا أمر؟

أجاب ضاحكاً:

لا عليك بكيف ومتى؛ لكن عليك، يا عم أن تدرك أنني أخذتُ بنصيحتِك ونفَّذتها!

******

بعد أسبوعٍ غادرت الخشيةُ قلبَ جعفر بعدما غادر طارق المدينة.

وبعد شهرٍ من مغادرةِ طارق مات جعفر!

ماتَ ميتةً صامتة!

مات وفي عينيه رؤى مُضبَّبة على مدينته التي أقرَّها ترتدي معطف التطيّر، وتضم في صندوق صدرِها متناقضاتٌ مختلفة وانفعالات شتى.

مات جعفر ميتةً في وقتِها المناسب. فلو قُدِّرَ له العيش أسابيعَ معدودة لشهد انقلاباً هزَّ الوطن بأكملِه في يومِ جمعةٍ رعناء من شباط أرعن؛ أذّن بأنهارِ دمٍ تدفَّقت على أرضه، وغيوم ضغينة تنامت في سمائه، ورياحِ حقدٍ

عاتية ضربت مدنَه. كانت السماوةُ واحدةً منها..

انتشر الخوفُ وباءً في الشوارع، والرعبُ أشباحاً جالت في الأزقة.

كراهيـةٌ دقَّـت بكفّهـا الممتلئـة علـى الأبـواب؛ وآلامٌ تراغـت وبـاءً جرثوميـاً هاجم ما لدى العائلات من استقرار شحيح فأطاحَ بجَلَدِ الآباء، وأدمى قلوبَ الأمهات، وفتك بدواخلِ الزوجات، وأثار هلعَ الصغار.

مات جعفر حسن درجال ولم ينتبه أحدٌ إلى اللوحةِ التي تقبع في غرفةِ مرسمه مع اللوحات النائمة على الجدران، تلك التي كانت بياناً خبيئاً لأحداثٍ مَهولةٍ تنبأ بحصولِها، فاستحالت واقعاً ماثلاً، دخلت إليه السماوة عاريةً إلا من وجلِها، وخوائِها.. وضغينةِ أبنائِها.

السماوة

٢٠٠٩ / ١ / ٢٢